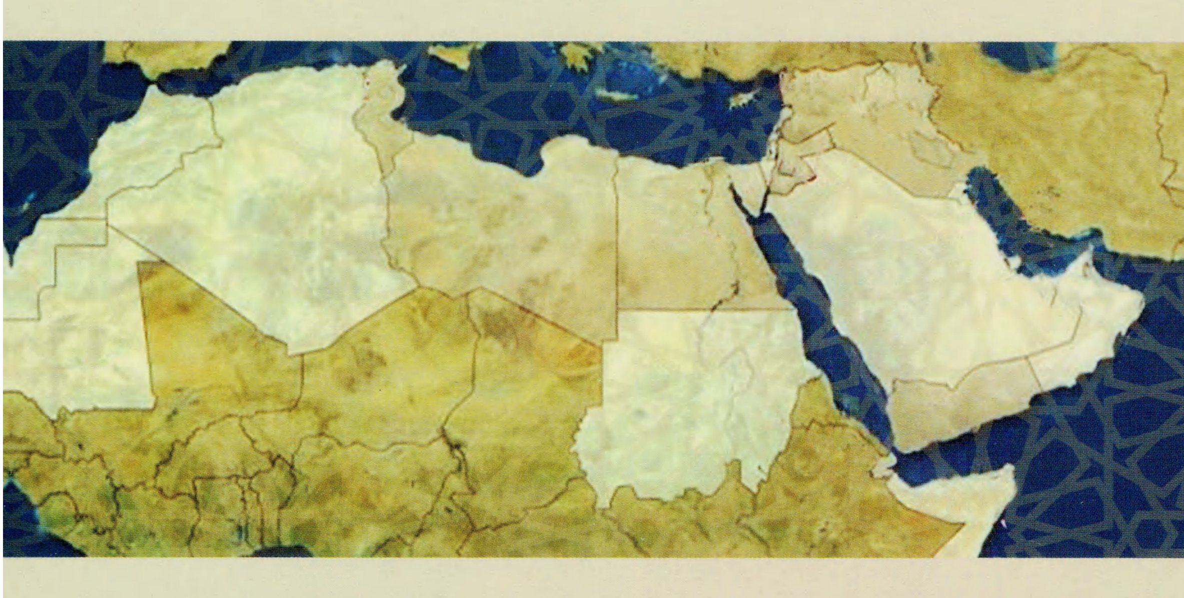
سفير العلم والدعوة



تأليف

فهد بن يحيى العماري

القاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة

سفير العلم والدعوة

تأليف

فهد بن يحيى العماري

القاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة

ح فهـــد بن يحيـــى العماري، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العماري، فهد بن يحيى

سفير العلم والدعوة./ فهد يحيى العماريط١-جدة ١٤٤٣هـ

٠٠ ص ؛ ٠٠×٠٠سم

ردمك: ٥-٣٤-٨٣٢٢-٦٠٣-٩٧٨

١-الإسلام والعلم أ- العنوان

ديوي٢١٩,٧ ١٤٤٣/١١٧٣٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١١٧٣٨

ردمك: ٥-٣٤-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

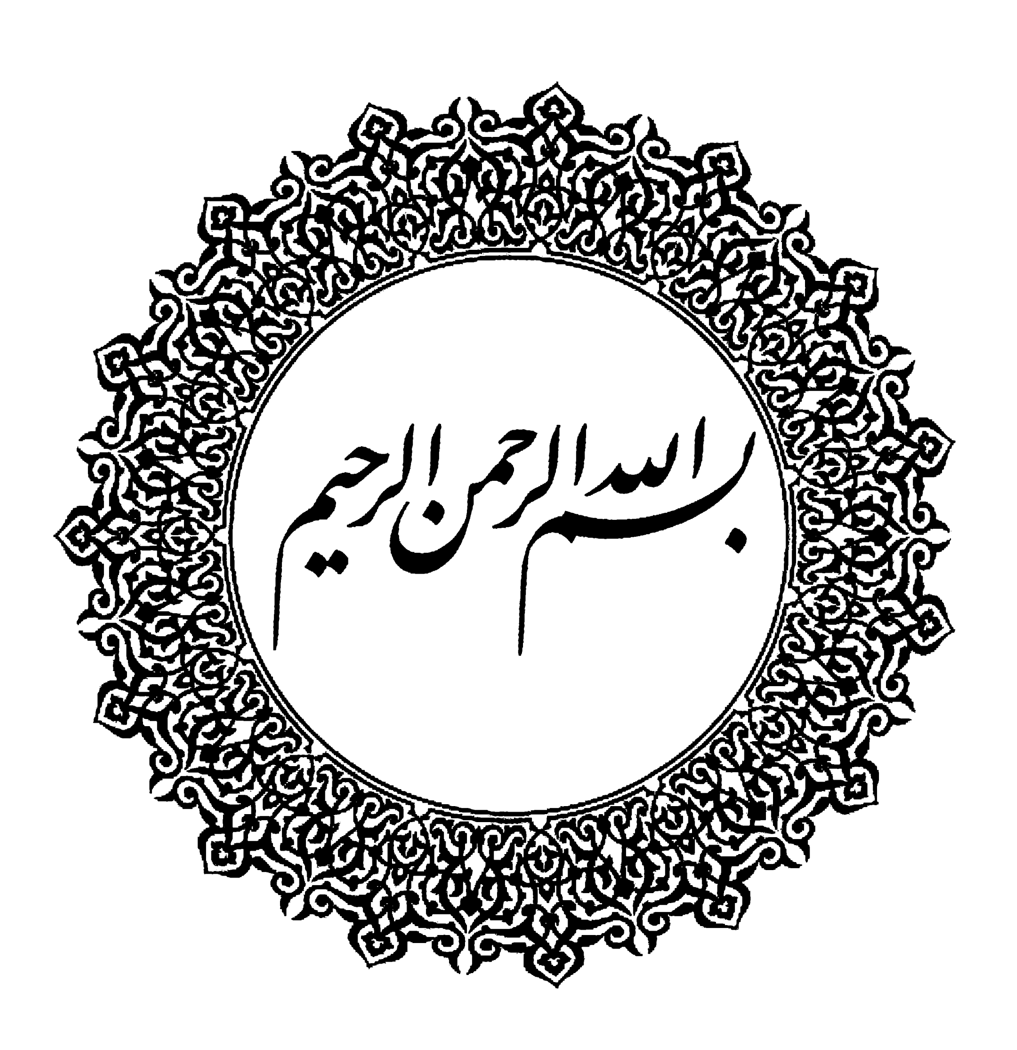
شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـاتف: ٢٤١٦١٣٩- ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحـد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فإن من أعظم النعم والمنن أن يصطفي الله المرء من بين الخلق ليكون من ورثة الأنبياء وحملة الرسالة، ليعبد الله على هدى وبصيرة، ولينال شرف النصرة وتبليغ دين الله وميراث النبوة، ومن فتح له باب من الخير فليحمد الله ولينتهزه ويلزمه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه، وإذا أحب الله عبدًا استعمله في الخير، وأي خير أعظم من العلم والدعوة إلى الله!

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[١].

والعلماء العاملون هم أولياء الله، وإن لم يكونوا هم أولياء الله فمن أولياء الله! والعلماء ورثة الأنبياء، وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٨] فحصر خشيته التي هي سبب الفوز عنده عليهم، حتى كأنه لا يخشاه غيرهم.

وهم المترجمون لعباده المبينون لمراده، وهم الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن يبينوا لعباده ما شرعه لهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧] فهم أمناء الله سبحانه على شريعته، وحماة دينه، وأنصاره ، مصابيح الهدى وأنوار الدجى ومنارات الأرض، يهبّ إليهم الناس في حال الرخاء والشدة، وفضلهم لا ينكره إلا مكابر معاند.

- قال ميمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العلماء هم ضالّتي في كل بلدة، وهم بُغيتي،

---

(١) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (رقم ١٠٣٧).

ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء)[١].

وطلب العلم رتبة عظيمة جليلة، ومنزلة شريفة منيفة، لا تعادلها منزلة ولا تساويها مَزِيّة، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٢].

واعلم أن العلم أشرف ما رغّب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه، وفضله يَنْمِي على طالبه، والعلم أفضل خلَف، والعمل به أكمل شرَف[٣] وما اكتسب مكتسب مثل علم يهدي صاحبه إلى هدًى أو يرده عن رَدًى، ولا يزال الله يغرس هذا الدين في قلوب رجال يغرسون العلم في قلوب الناس.

به تصلح العقائد، وتدفع الشبهات، وتزكو النفوس وتبتعد عن الشهوات، وتهذب الأخلاق، وتزداد قربًا من الله، هو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخَلوة، ومنار سبيل الجنة.

● قال عبد الله بن وهب صاحب مالك: (وكان أول أمري في العبادة قبل

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤ / ٨٥).

(٢) رواه أبو داود (رقم ٣٦٤١) والترمذي (رقم ٢٨٦٢) وابن ماجه (رقم ٢٢٣) والإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٤٥ رقم ٢١٧١٥).

(٣) أدب الدنيا والدين (٣٦).

طلب العلم، فولع بي الشيطان في ذكر عيسى ابن مريم؛ كيف خلقه الله عَزَّوَجَلَّ؟ ونحو هذا، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: ابنَ وهب! قلت: نعم. قال: اطلب العلم. فكان سبب طلبي للعلم)[١].

لذة العلم الشرعي لمن أخلص لله أعظم اللذات، وشهوته أعظم الشهوات، وحلاوته تفوق كل حلاوة، والعلم عوض من كل لذة، ومُغْنٍ عن كل شهوة، فمن تفرد بالعلم لم توجعه خَلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته سَلوة، ولم يَمَلّ من العلم، لأنه غذاؤه وشرابه ودواؤه، ومتعته وأنسه في خَلوته وجَلوته، رُوحان في جسد.

● قال ابن وهب: (ما مللت العلم قط، وما نبت لحمي إلا من الكتاب)[٢].

أهل العلم هم جلاسه وأصدقاؤه وزمرته وأخلاؤه، هو ديدنه وهِجِّيراه في مجلسه ولقائه ومقاله، ولسان حاله:

إذا مَرِضْنَا تداوينَا بِذِكرِكُم ... ونترُكُ الذكرَ أحيانًا فَننتكسُ[٣]

ومتى كانت محبة العلم في القلوب سارية هان كل صعب أمامها، وذلت كل شهوة دونها، لأنه محبته تفوق كل محبة، ولذا كان أكثر طلاب العلم يطلبونه محبة ورغبة.

● يقول ابن المقفع: (حَبّب إلى نفسك العلم حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو هواك، ولذّتك، وسَلْوَتَك، وبُلْغَتَك)[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٧).

(٢) أخبار ابن وهب لابن بشكوال (٦٠).

(٣) البيت لعمر بن محمد البكري اليافي، ولم أجده في ديوانه.

(٤) الأدب الصغير والكبير (١١١).البُلغة: ما يكتفي به من العيش.

يروى أنه وقف بعض المتعلّمين بباب عالم ثم نادى: تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسًا، ولا يُسْقم نفسًا. فأخرج له طعامًا ونفقة، فقال: فاقتي إلى كلامكم أشد من فاقتي إلى طعامكم، إني طالب هُدًى لا سائل نَدًى. فأذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه، فخرج جذلًا فرحًا وهو يقول: علم أوضح لَبسًا خير من مال أغنى نفسًا.

واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال[1].

بقدرِ الجدّ تُكتسبُ المعَالي ... ومنْ طلبَ العُلا سهرَ الليالي
ومَن رامَ العُلا منْ غيرِ جدّ ... أضاعَ العمرَ في طلبِ المحالِ
تركتُ النومَ ربّي في الليالي ... لأجلِ رضاكَ يا مولى المَوالي
فوفِّقني إلى تحصيلِ علمٍ ... وبلّغني إلى أَقصى المعالي[2]

والعلم تعلمًا وتعليمًا هو نوع من الجهاد في سبيل الله والنفير في سبيله، قال الله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

وتأمل وتدبر كلمات (النفير، والحذر، والفِرقة) فهي مصطلحات قتالية جاءت في أثناء الحديث عن العلم.

وطلب العلم من الجهاد، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الأبيات منسوبة للإمام الشافعي، والبيتان الأولان في ديوانه (ص ١٠٨).

● قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعه طوعًا وكرهًا)[١].

ورأس كل باب وأساسه وروحه العلم، ففي كل مكان تدعو فيه، وعند كل لقاء تلتقيه بأصناف الناس، سترى الحقيقة الجلية أن أعظم ما تملكه هو العلم وتقوى الله.

العلم يرفعك، ويحفظك، ويثبتك، ويصونك، ويعينك، ويوصلك إلى كل خير، فتزود منه ليلًا ونهارًا، ولا تقف عند حد معين، وخذه بأصوله وقواعده، فالناس متعطشون لتزكيته والانتفاع منه.

ولو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره!

ولو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال، ومن الهم بمغيب الحقائق عنه، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره، لزاد حمدًا لله عَزَّوَجَلَّ[٢].

● قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من طلب العلم ليُحييَ به الإسلام فهو من

---

(١) تفسير الطبري (١٩ / ٢٨١).

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (٢١).

الصديقين، ودرجته بعد درجة النبوة)[١].

يا سـالكًا سُـبُلَ المعـالي مُخلصًا	تَرجو مـن الرحمنِ رفعـةَ منزلِ
شـمّر وكنْ للعلـمِ دومًـا طالبًا	لا تيأسـنّ ففيـهِ عـذبُ المنهل
يـا أُمتـي عَهـدًا بـأن أتَعلّـما	فعلـوُّ شـأنكِ بُغيتـي ومُؤَمّلي
بالعلـمِ نَبني يـا أُخـيّ حضارةً	ونعيـدُ أمجـادَ الرعيـلِ الأولِ
العلمُ شـمسٌ يُسـتضاءُ بنورها	تَشفي من الأسـقامِ كلَّ مُعلّل[٢]
فإذا بـه للخـيرِ يمضي راشـدًا	نحـو العُـلا بعزيمـةٍ وتَفاؤلِ

واعلموا - رحمكم الله - أنه كلما كثرت الفتنة في الأمة، وفشا الجهل فيها، وتكلم الجاهل والرويبضة في الدين، والتبس على الناس الحق بالباطل، وقام سوق الشبهات في العقول والشهوات في القلوب، وتسابق بعض الناس للانسلاخ من الدين والتدين ووأد شعائره الواجبة، وهُجرت السنة قولًا وعملًا، كلًّا أو بعضًا، وانتشرت الدعوة لذلك والسخرية منها - كانت الحاجة إلى العلم أشد وأعظم، لأن للفتن ظلمة تحيّر العقول وتطفئ القلوب، والعلم نورها وجلاؤها، وأكثر فتن الزمان آخره.

والواجب على العلماء وطلاب العلم وكل غيور على دينه أوجب وأعظم مما سبق، كلٌّ في ميدانه وتخصصه وثغره، ويتخذ موقعه في حراسة هذا الدين وثغوره بما يقدر عليه، والحذر من الحزن واليأس والفتور والدَّعة مهما كانت الفتن والخطوب تعصف بالأمة، فإن لله حكمة وقدرًا، وعلينا مع بذل الجد والعمل بعث روح الأمل والفوز والنصر في أنفسنا وأمتنا، إن وعد الله حق،

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ١٢١).

(٢) المراد تكون سببًا وليس بذاتها.

ومن أُغلق دونه باب فإنه سيُفتح له ألف باب، والخير في الأمة ما زال ولا يزال، انشروا الطمأنينة في النفوس أوقات الشدة والأزمات، فنشرها منهجٌ قرآني ونبوي.

قال الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي بكر: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!»[١].

قولوا لهم قولًا هينًا لينًا، بيّنوا لهم أن بعد كل كربة فرجًا، وبعد كل عسر يسرًا، وبعد كل شدة رخاء، وبعد كل مرض عافية، وبأن الليل يعقبه نهار، والعتمة يزيلها الضوء، والغيمة الداكنة تبشّر بالمطر، وبأن الصبر يعقبه فرج، والحزن يتلوه فرح، والهم مصيره الزوال، واليأس لا يبقى على حال، ولا يدوم الحال على كل حال، أَذْكُوا جَذوة الأمل في النفوس المتعبة المنكسرة، وأخرجوا المعتلين من عنق الزجاجة، أوقدوا لهم شموع الحياة.

أيها اليائســونَ والكــونُ رحبٌ ... هدَّكُــم يأســكُم فأيــنَ الرجاءُ

عقبَ الثباتِ انتصارٌ لا نشــكُّ به ... وعدٌ منَ الله لا طيــفٌ من الحُلمِ

*****

(١) رواه البخاري (رقم ١٩١٣)ومسلم (رقم ٢٣٨١).

أسباب الكتابة

وبعد: لما كان ورود بعض طلاب العلم، طلاب المنح ونحوهم، إلى جامعات بلاد المملكة العربية السعودية ومصر والشام والخليج واليمن والمغرب الأقصى وباكستان وتركيا والجمهوريات الإسلامية وإندونيسيا وماليزيا، وغيرها من بلاد المسلمين، سعيًا في طلب العلم والرحلة إليه، وهذه الفئة من أعظم الفئات على قلوبنا، لأنهم خرجوا وتغربوا ولاقوا العناء والجهد في سبيل طلب العلم، ولاختيارهم الرحلة في طلب العلم الشرعي إلى البلاد الإسلامية ونحوها، فهم من أعز الضيوف وأغلاهم، ولأنهم كنوز ومشاريع استثمار وأوقاف تطوف البلدان، وسفراء ورسل لنشر العلم والدعوة إلى الله، وانتشال الخليقة من الكفر إلى الإسلام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن الضلالة إلى الهداية والمنهج الرباني، ولما يحصل من بعض المشكلات التي تواجههم أثناء رحلتهم العلمية وأثناء رجوعهم بعد رحلتهم، من التحديات والعوائق، خاصة في هذه الأزمنة المتأخرة من فشو الشهوات والشبهات، والخلافات الفكرية والمذهبية، وضعف التمكين في الأرض.

ولما كانت العناية بهم ورعايتهم من أفضل وأجل الأعمال، لذا جاءت هذه الوصايا والخواطر انطلاقًا من الأخوة والمحبة، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي على الحق، توجيهًا وإرشادًا ونصحًا ومدارسة، للارتقاء بهم إلى كل ما فيه خير في طريق العلم والدعوة إلى الله.

وقد حرصت أن يجد سفير العلم والدعوة في هذا الكتاب حاجته وبغيته، والوقوف على بعض مشكلات هذا الطريق، وحلًّا مناسبًا لها، وإجابة لما يشكل عليه في غربته ورحلته العلمية والدعوية، وخارطة طريق لأفضل طريق عرفته البشرية يؤدي إلى الله، ملتمسًا النور فيه من وحي الله وسنة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وسلف الأمة العظام، خير نور عرفته البشرية.

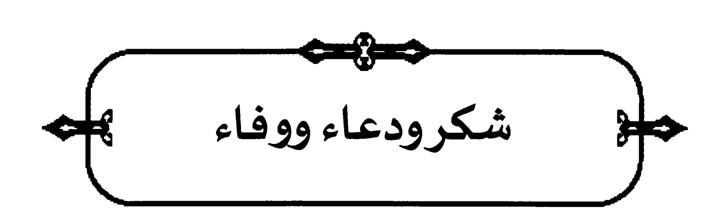
وقد تجد بعض القول مكررًا في بعض المواضع لاقتضاء الحال والتأكيد عليه لأهميته، ومن الله أستمد العون والرشاد وإليه المقصد والمآل، وها أنا أفيض في المقصود، مستفيضًا من ولي الطَّول والجُود.

وخيرُ الكلامِ قليلُ الحروفِ ... كثيرُ القطوفِ بليغُ الأثرِ

ولينعم الناظر فيه النظر، وليوسع العذر إن اللبيب من عذر.

إلى الأحبابِ في كلّ البلاد ... ومن يحلو بهم صفوُ الودادِ
تقبّل ربّنا منّا جميعًا ... وثبّتَنا على دربِ الرشادِ
أعاد الله هذا الوصلِ دومًا ... وأُمّتنا بخيرٍ وازديادِ
أُحبّكمُ وأرجو أن تكونوا ... بأفراحٍ وخَيراتٍ مِدادِ
سكنتمْ مُقلتي فأسَرْتُمُوني ... وفي كبدي فأحييتُم فُؤادي

*****



شكر ودعاء ووفاء

نستهل بعد المقدمة بالشكر لله عَزَّوَجَلَّ ثم بالشكر لكل بلد استقطب طلاب المنح العلمية وغيرهم بمختلف تخصصاتهم، ووفروا لهم سبل العلم، من الرعاية والعناية الاجتماعية والصحية وغيرها، وقد أصبحت بعض الدول تتنافس في ذلك لأنهم يعتبرونه مكسبًا من مكاسبهم، تكسب به عقولًا وقلوبًا ونفعًا ورسلًا للخير.

ونقل الشاطبي عن شيخه ابن الزيات: (لو كان لي بيت مال لأنفقته على طلاب العلم؛ لأنهم قدوتنا وسادتنا وبركتنا وأدلتنا)[1].

ومن حسنت نيته في ذلك طلبًا لنشر العلم الشرعي وتعليمه على منهج الله ومنهج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو نشر غيره من العلوم الدنيوية صافيًا خاليًا من المكدرات والزيف والهوى، وإعانة لطلاب العلم على ذلك، فقد عظم أجره، ونال الحُسْنَيَين، حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، فجزاهم الله عن الإسلام والعلم والعلماء خير الجزاء وأعظمه وأوفاه، وعلى من ولاهم الله أمرهم أن يحسنوا إليهم في جميع أمرهم وشأنهم، ويلتمسوا حاجاتهم، فمن أكرم وأعز طلاب العلم أكرمه الله وأعزه، ومن أهانهم أهانه الله.

والشكر موصول للعلماء وطلبة العلم، الذين فتحوا قلوبهم وبيوتهم ومهجهم، وبذلوا نفيس أوقاتهم لطلاب العلم المغتربين، وسيجدون ثمرة ذلك

---

(١) مقدمة محقق فتاوى الشاطبي أبو الأجفان (٣٧).

في دنياهم وأخراهم، فهنيئًا لهم! لا حرمهم الله الأجر والحسنى!

وقد قسمت الكتاب إلى قسمين:

الأول: الرحلة في طلب العلم.

الثاني: الرحلة في التعليم والدعوة.

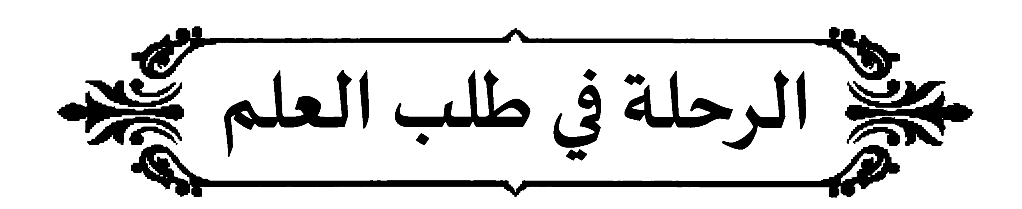
وبعد فهذا جَهد المُقِلّ، لا أبرئه من نقص، ولا أحاشيه من خطأ وزلل، والكمال لله، ومن اطلع إليه فلينظر إليه بعين الموادعة لا المنازعة، والإنصاف لا الاعتساف، فما قصدت به الشقاق والمغالبة ولا إظهار الغلبة والمماحلة.

وأسأله سبحانه أن يكسوه حلل القبول، وأن يمُنّ ببلوغ منتهى السُّول، وأن يكون سببًا ناجحًا وبلسمًا شافيًا وعلاجًا ناجعًا، مباركًا على مرّ الأزمان والعصور، وأن يفتح له القلوب والأسماع والأبصار، وأن يكون سببًا في جمع القلوب وإصلاح العيوب، ورأب الصدع والشقاق والنفوس، يحقق الأمل ويقتل الألم، وهو السميع العليم.

وهـبْ لي يـا إِلَهـي مِنْـكَ عَونًا ... يُسَـانِدُنِي إِذا صَعُـبَ المسـيرُ

إن تَجِـدْ عيبًـا فسُـدّ الخَلَـلَا ... جـلَّ مـن لا عيـبَ فيـه وعلا

*****


الرحلة في طلب العلم

أخي طالب العلم والداعية إلى الله وسالك طريق الحق:

أيها المبارك، رفيق العلم والأدب والجد والاجتهاد والحكمة، صخرةَ الإسلام الراسية والحادي إلى سنة الهادي الشامخة، أعطاك المولى العطايا الوافية، وأدام فوقك سماء العافية، وحباك الرُّتَب العظام السَّامية، حياك وأحياك، ورضي عنك وأرضاك، ومن كل شر وفتنة وقاك وثبتك وهداك.

وبعد: فهذه معالم وخواطر، خلاصة تجارب في ميدان العلم والدعوة إلى الله من بلدان شتى، ومن خلال التدريس واللقاء لطلاب العلم عمومًا ولطلاب المنح خصوصًا من دول متعددة، أخطها إلى من أحسبه يحمل هم دينه وأمته.

إلى من يجهدون أنفسهم ليضيئوا الطريق للآخرين.

إلى من خرجوا ابتغاء نيل العلم وشرف التعلم، وتحمل المسؤولية نحو دينهم وأمتهم.

إلى شباب الأمة الغرّ الميامين، الذين يسعَون في الأرض لإعلاء كلمة الله في الأرض، ونشر الهداية والخير والعدل والأخلاق في العالمين، وفق منهج السلف، وتخليصِ كثير من أفراد الأمة ومجتمعاتها من الخرافة والغثائية والنزاعات التي قطّعت أواصر الأخوة الإيمانية.

إلى من يبحثون عن أنفع الطرق وأصحها وأقصرها وأجذبها لنشر نور الإسلام في العالمين.

إلى من أؤمل وتؤمل أمته فيه الكثير والكثير، فنفع الله بكم العباد والبلاد والحاضر والباد.

فمرحبًا مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ حيث قال: «**سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا، مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَأَقْنُوهُمْ**» قال الراوي: قلتُ للحَكَمِ: مَا «أَقْنُوهُمْ»؟ قَالَ: عَلِّمُوهُمْ(١).

وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ فِي الْمَسْجِدِ عَلَىٰ بُرْدٍ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَقَالَ: «**مَرْحَبًا بطالبِ الْعِلْمِ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ**»)(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طلاب العلم قال: (مَرْحَبًا بِكُمْ، يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَمَصَابِيحَ الظُّلْمَةِ، خُلْقَانَ الثِّيَابِ، جُدُدَ الْقُلُوبِ، حُلْسَ الْبُيُوتِ، رَيْحَانَ كُلِّ قَبِيلَةٍ)(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: (مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوصِينَا بِكُمْ)(٤).

ترفّق بمن يأتيكَ للعلمِ طالبا ... وقلْ مرحبًا يا طالبَ العلمِ مرحبا
فذاك الذي أوصى به سيّدُ الورى ... كما قد روَى الخُدري عنه ورحّبا

---

(١) رواه الترمذي (رقم ٢٦٥١) وابن ماجه (رقم ٢٤٧) والحاكم (رقم ٢٩٨) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٥ رقم ٧٣٤٧).
(٣) شعب الإيمان (رقم ١٦٠٠).
(٤) رواه الحاكم (رقم ٣٠١) وصححه، ووافقه الذهبي.

فلكل فرد أقول بقول القائل:

هديتي لك مــن قَلبي ومنْ قلَمي — إنّ الهدايــا عــلى مِقــدار مُهديها
لو كان يُهدى إلى الإنســانِ قيمتُه — لكنتُ أُهدي لك الدنيا وما فيها

خذهــا وصايــا بألفــاظٍ مطولةٍ — فيها لمــن يبتغــي التبيــانَ تبيانُ

فَخُذْهـا سَـفيرَ العلمِ أخـذَ موفّقٍ — لغُـرّ المعـاني حافـظٍ مُتسـدّد
وكابدْ إلـى أن تَبلغَ النفسُ عُذرَها — وكنْ في اقتباسِ العلمِ طلّاعَ أَنجُد

*****

الرحلة في طلب العلم

اعلم - رحمك الله - أن الرحلة والسفر في طلب العلم أمر مطلوب شرعًا، وهو من أجل العبادات وأفضلها ومن أعظم الرحلات، فلم تكن رحلة للسياحة والنزهة، ولم تكن رحلة للتجارة وطلب الرزق، إنما رحلة للخروج في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله، رحلة في أعظم الجهاد، وهو العلم وتبليغ دين الله، فما أعظم الأجر إن صلح القصد! أصلح الله النوايا.

وحكم الرحلة في طلب العلم: تكون واجبة، ومستحبة، ومكروهة، ومحرمة، فالوسائل لها أحكام المقاصد والغايات، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المستحب إلا به فهو مستحب، فبها يحفظ الدين وينشر الإسلام.

وأول هجرة في طلب العلم هجرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليطلب العلم على يد الخضر كما في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليها جرى العمل منذ بزوغ فجر الإسلام، فكانت الهجرة في طلب العلم إلى طابة، حيث معلّم الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن ثم هجرة الصحابة ومن بعدهم من أئمة الإسلام إلى يومنا هذا إلى الأمصار والبلدان في مشارق الأرض ومغاربها ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢] والمراد بذلك الرحلة في طلب العلم[1].

---

(١) المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٥/ ١٠) القبس في شرح الموطأ (٥٨٠).

وثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»[١]. قال جماعة من أهل العلم: وفيه فضل الرحلة في العلم[٢].

- وعن قيس بن عباد قال: (خرجت إلى المدينة أطلب العلم والشرف)[٣].
- وقال الشعبي: (لو أن رجلًا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت سفره ضاع)[٤].

إن رحلات طلاب العلم اليوم:

تذكرنا بتاريخ عظيم مجيد لعلماء الأمة عامة ولعلماء الشريعة خاصة.

تذكرنا بتلك الهمم السامية والعزائم الماضية والنوايا الصادقة.

تذكرنا بحمل هم الإسلام وحفظ الدين وبلاغه للناس أجمعين.

تذكرنا بالصبر والبلاء وشظف العيش في طريق العلم تعلمًا وتعليمًا.

تذكرنا بالسباق ومضمار التنافس في حلقات العلم ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

- رؤي ابن المبارك في النوم بعد وفاته، فقيل له: (ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي برحلتي)[٥].

تغرّب عن الأوطانِ في طلبِ العُلا ... وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ

تفرج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصُحبةُ ماجدِ[٦]

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

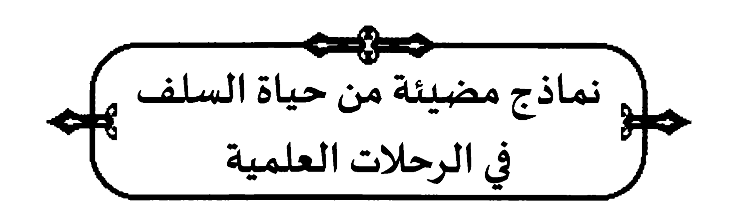
(٢) شرح المصابيح (١/ ١٩٥).

(٣) جامع بيان العلم (١/ ٣٩٨).

(٤) جامع بيان العلم (١/ ٣٩٩).

(٥) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٩).

(٦) الأبيات للإمام الشافعي في ديوانه (ص ٤٩).



نماذج مضيئة من حياة السلف في الرحلات العلمية

● رحل جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهرًا إلى عبد الله بن أنيس بالشام لطلب حديث واحد[1].

● ورحل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى مصر والعراق والشام وخراسان والحجاز وصنعاء اليمن، وجمع مسنده حديثًا حديثًا في أربعين سنة[2].

● ورحل بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلسي من الأندلس إلى مكة وإلى العراق للأخذ عن الإمام أحمد[3].

● ورحل شعبة بن الحجاج للبحث في أصل حديث واحد من الكوفة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى البصرة[4].

● ورحل الحسن من البصرة إلى الكوفة لمقابلة كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليسأله عن مسألة[5].

● ورحل ابن منده وطاف الدنيا، قال الذهبي عنه: (ولم أعلم أحدًا كان أوسع رحلة منه، ولا أكثر حديثًا منه، مع الحفظ والثقة، فبلغنا أن عدد شيوخه

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٥/ ٤٣١ رقم ١٦٠٤٢) الأدب المفرد للبخاري (رقم ٩٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٨٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٨٥).

(٤) الكفاية في معرفة أصول الرواية (٢ / ٢٠٨).

(٥) الرحلة في طلب الحديث (١٤٣).

ألف وسبعمائة شيخ)[١].

بدأ الرحلة في طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ورجع وهو ابن خمس وستين سنة، ولما عاد إلى وطنه تزوج وهو ابن ٦٥ سنة، وقال عن نفسه: (طفت الشرق والغرب مرتين)[٢].

- وطاف الإمام البخاري الدنيا ليجمع «الجامع الصحيح».

ومَن تكـنِ العَليـاءُ همةَ نفسـهِ	فكلُّ الـذي يلقاهُ فيهـا مُحَبَّبُ[٣]
لأَستسهلنّ الصعبَ أو أُدركَ المُنى	فما انقادتِ الآمـالُ إلا لصابرِ[٤]

ولا يكاد عالم في الأمة إلا وارتحل لطلب العلم.

وإذا الديـارُ تَنكرتْ سَـافرتُ في	طلـبِ المعارفِ هاجـرًا لدياري
وإذا أَقمـتُ فَمؤنِـسي كُتُبي، فلا	أَنفَـكُّ في الحالينِ من أَسـفاري

*****

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٧).

(٣) البيت لمحمود سامي البارودي. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢/ ٢٧٨).

(٤) البيت غير معروف قائله، وهو من شواهد النحو المشهورة. شرح التسهيل (٤/ ٢٥).شرح شذور الذهب (ص ٣٨٥).

حكم استئذان الوالدين في السفر لطلب العلم

طلب العلم من آكد الأعمال وأجل القربات، وهو نوعان:

الأول: واجب، وهو علم ما تصح به عقيدة الإنسان وعبادته.

الثاني: تطوع، وهو ما عدا الواجب، كعلوم الآلة ونحوها.

وللابن أن يسافر دون إذن والدَيه المسلمَين لطلب العلم الواجب إذا لم يمكنه معرفته في بلده، لكن عليه أن يلتمس رضاهم واتخاذ الأسباب الموجبة لذلك، فالبر درجات، والآن توافرت كثير من وسائل التعلم عبر المنصات العلمية الإلكترونية وغيرها .

أما غير الواجب فلا يسافر إليه إلا بإذنهما، للأدلة المعروفة في ذلك، وقد بسط الجويني الشافعي في كتابه «نهاية المطلب» التفصيل في المسـألة، ويمكن الرجوع إليه[1].

● قال جعفر الخلدي: كان الأبّار أحمد بن علي بن مسلم (ت٢٩٠هـ) من أزهد الناس، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة، فلم تأذن له، ثم ماتت، فخرج إلى خراسان ثم وصل إلى بلخ، وقد مات قتيبة، فكانوا يعزونه على هذا، فقال: (هذا ثمرة العلم، فإني اخترت رضا الوالدة)[2].

(١) نهاية المطلب (١٧/ ٤٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٤٦٨).

لطيفة: ورد في الحديث: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»[١].

وذكر بعض شراحه في كلمة «مجهلة»: أي يحمل أباه على ترك الرحلة في طلب العلم والجد في تحصيله والانقطاع لطلبه؛ لاهتمامه بما يصلح شأنه من نفقة أو نحوها[٢].

وقد تزوج الإمام أحمد وابن منده بعد الرحلة في طلب العلم.

مسألة: هل العلوم غير الشرعية، كالطب والهندسة والزراعة والحاسب ونحوها من علوم الدنيا، يؤجر الإنسان عليها ويدخل في فضائل العلم؟

القول الأول: النصوص الواردة في فضل العلم المراد بها العلوم الشرعية، سواء كانت من علوم الغايات أو الوسائل.

واختاره جماعة من أهل العلم، لأن الأحاديث تحمل على الحقيقة الشرعية، وكذلك الحقيقة العرفية في زمن النبوة[٣].

القول الثاني: يشمل كل ما فيه نفع للمسلمين لمن حسنت نيته.

واختاره جماعة من أهل العلم كابن رسلان الشافعي، لأن (علمًا) في قوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا» نكرة في سياق الشرط، فيعم كل علم جائز،

---

(١) رواه الحاكم (رقم ٥٢٨٤) قال الذهبي: إسناده قوي (المهذب في اختصار السنن الكبير ٨/ ٤١٢٠).

(٢) السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير (٢/ ٥٦).

(٣) الجواهر البهية في شرح الأربعين النووية للشبشيري (٢٠٠) الفتح المبين بشرح الأربعين للهيتمي (٥٧٢) المعين على تفهم الأربعين لابن الملقن (٤٠٩).

من علم الطب والحساب واللغة والصناعة والزراعة ونحوها[١].

القول الثالث: أنه يؤجر لمن حسنت نيته الأجر المطلق في فضل نفع الناس والإحسان إليهم وقضاء حاجات المسلمين. واختاره الغزالي.

الراجح: الأول والثالث، لما تقدم.

فإن قال قائل: «**يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا**» عام في كل علم شرعي أو دنيوي، فلم خصصتموه بالعلم الشرعي؟

أجاب الطوفي وغيره: التخصيص بدليل قوله: «**سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**» والعلوم التي يطلب بها الجنة ويسهل بها طريقها هي الشرعية[٢].

واعلم أنه قد تكون التخصصات غير الشرعية، كالطب ونحوها، من فروض الكفايات وأفضل الواجبات للحاجة إليها، وعدم قيام القدر الكافي للقيام بها، وقد يكون المفضول فاضلًا، كما هو مقرر شرعًا، والأمة تحتاج إلى من يقوم بعلوم الدنيا، ليتقوى المسلمون بأبنائهم ويستغنوا عن غيرهم، ويبنوا مجدًا وحضارة، ويقوموا بأسلمة كثير من العلوم الدنيوية وَفْقَ شرع الله، في الطب والاقتصاد وغيرها، ويكونوا دعاة خير في تلك التخصصات وبيئاتها.

والعلوم الدنيوية قد لا تُطلب إلا في الدراسات النظامية، أما العلوم الشرعية فهي متاحة في كل زمان ومكان.

● قال ابن حجر: («**سلك طريقًا**» نكرة، ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى

---

(١) شرح سنن أبي داود لابن رسلان (١٥/ ٦٤).

(٢) التعيين في شرح الأربعين (١/ ٣١٢).

تحصيل العلوم الدينية، وليندرج فيه القليل والكثير)[١].

● وقال ابن رجب: (يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي، وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم، مثل حفظه، ودراسته، ومذاكرته، ومطالعته، وكتابته، والتفهم له، ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصل بها إلى العلم)[٢].

واليوم تدخل في الفضائل وسائل طلب العلم الحديثة، كوسائل التواصل علمًا وتعليمًا ونشرًا.

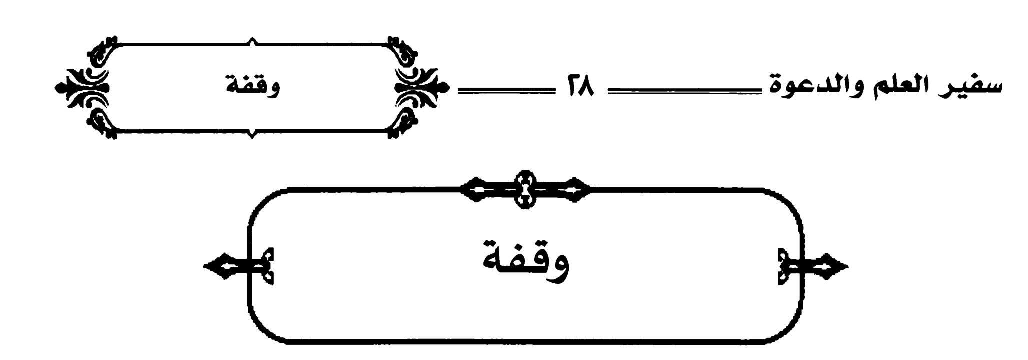
وأوصي إخواني بمواصلة الدراسات العليا ونيل الشهادات العالية، خاصة في هذه الأزمان التي أصبحت لها مكانة وقيمة واعتبار في نفوس العامة والخاصة والمسؤولين، حتى يتسنى للإنسان الوصول للدرجات العلية والأماكن السامية، وتفتح له الأبواب التي من خلالها يتم نفع الناس، ونشر العلم والخير، وخدمة الإسلام والمسلمين والأوطان، والتغيير للأسمى والأسنى، ومزاحمة من ليس له هدف سامٍ وغاية شريفة منيفة، غير البحث في مصالحه وحب الشهرة والرفعة والمناصب. وَلْيَحُثّ الأساتذة والطلبة بعضهم بعضًا على ذلك والتواصي فيما بينهم، مع صدق النية في القول والعمل في ذلك وتصحيحها.

*****

---

(١) فتح الباري (١/ ١٦٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢ / ٢٩٧).



وقفة

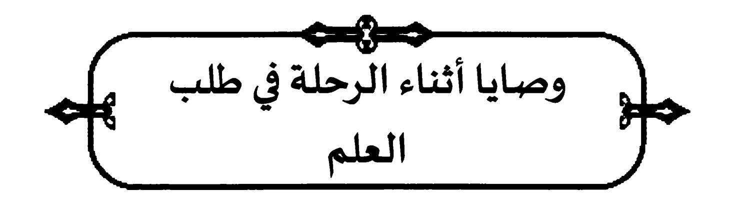
يا طالب العلم: اعلم أن طريق العلم طريق الرسل والأنبياء، وورثتهم من الصحابة والتابعين ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢] والاختيار والاصطفاء هو توفيق ورحمة وفضل من الله عَزَّوَجَلَّ فعليك بحمد الله وشكره أن اصطفاك لهذا الطريق.

واحذر من أن تكون هذه النعمة استدراجًا ونقمة وابتلاء، كما كانت على كثير من الناس، فضلوا وأضلوا، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، وفُتنوا وفتَنوا، فكن دائمًا شاكرًا له ومستعينًا به ومستعيذًا من الضلال والغواية.

واحذر كل الحذر من ارتكاب ما يكون سببًا في نزع هذا الاصطفاء والتوفيق، فلا تغتر، ولا تتنكب الطريق، فالله يبتلي بعض القوم بالنعم.

فاشرحْ بنوركَ ربِّ ضيقَ صُدورنا ... واجعــلْ لنا دربَ الحيــاةِ رَحيبًا

*****



وصايا أثناء الرحلة في طلب العلم

الوصيّة الأولى: تقوى الله تعالى.

ومن ذلك تقواه في طلب العلم؛ بأن يتعاهد الطالب نيّته ومقصده، وعمله بما يتعلّم، ويتفكّر في أثر العلم على قلبه وجوارحه وسلوكه وأخلاقه.

من أولى الناس بأثر العلم وتقوى الله في حياتهم طالب العلم، فبالعلم يظهر الصدق على جوارحه، وبالعلم يظهر حفظه لجوارحه من الشهوات والشبهات، خاصة في بلد الغربة والوحدة فإنه يحتاج أن يستحضر تقوى الله في أفعاله وأقواله، في خلواته وجلوته.

الوصيّة الثانية: الإخلاص مفتاح التوفيق.

أخلص في خروجك في طلب العلم لله، ومن أجل الله، وابتغاء مرضاة الله، وتعاهد نيتك وقلبك دومًا، فإنّ أعظم الأصول المهمة في دين الإِسلام تحقيق الإِخلاص لله تعالى في جميع العبادات، وطلب العلم من أجلّ العبادات.

والإِخلاص: ألا تطلب على عملك شاهدًا غير الله تعالى ولا مجازيًا سواه. وهو حقيقة الدِّين، ومفتاح دعوة الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

فروح العمل الإخلاص، ولا قوام للجسد بدون روح، وصلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن أعظم مداخل الشيطان على طالب العلم عدم الإخلاص وتشكيكه في نيته، فعليك - يا طالب العلم -

مجاهدة نفسك في ذلك وعدم الاستسلام، وكما قيل: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله. والمجاهدة توفيق.

إذا لم يكـن لله فِعلـكَ خالصًـا ... فـكلُّ بنـاءٍ قـد بنيتَ خـرابُ

● (ومن طلب هذا العلم لله تعالى شرُف وسَعِد في الدنيا والآخرة، ومن لم يطلبه لغير الله خسر الدنيا والآخرة، وليحذر أن يجعله سبيلًا إلى نيل الأعراض، وطريقًا إلى أخذ الأعواض، فقد جاء الوعيد لمن ابتغى ذلك بعلمه)[١].

فكن صادقًا مع الله، وقد قيل: تعلم الصدق قبل أن تتعلم العلم، فالعلم يحتاج إلى الصدق.

● قال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه صناعة لا يرتفع فيها إلا صادق)[٢].

اللهم اجعلنا من الصادقين.

● وقال سفيان بن عيينة: (من طلب الحديث فقد بايع الله عَزَّوَجَلَّ)[٣].

فأخلص البيع مع الله، ولا تنقض العهد والميثاق في القول والعمل.

والحذر من أن يطلب لمراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِتَصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ**»[٤].

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٨٣).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ / ٧).
(٣) تاريخ دمشق (٥ / ١٧٤).
(٤) رواه ابن ماجه (رقم ٢٥٩).

وليس المماري به المناظرَ فيه طلبًا للصواب منه.

واسمع لهذا الحديث الذي ترجف منه القلوب.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يَعْنِي رِيحَهَا[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لِغَيْرِ الله، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ الله، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[2].

● وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخَلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والدين عند الأجلاء، يرفع الله تعالى به أقوامًا ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامّه وسباع الطير وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، إمام العمل،

---

(١) رواه أبو داود (رقم ٣٦٦٤) وابن ماجه (رقم ٢٥٢) والإمام أحمد في مسنده (١٤/ ١٦٩ رقم ٨٤٥٧).

(٢) رواه الترمذي (رقم ٢٦٥٥) وابن ماجه (رقم ٨٥٢) وحسنه الترمذي.

والعمل تابعه، يُلهَمه السعداء، ويُحرَمه الأشقياء)[١].

واعلم أن العالم ليس بكثرة الرواية والكتب، ولكن العالم من اتبع الكتاب والسنة وإن كان قليل العلم والكتب، ومن خالف الكتاب والسنة فهو صاحب بدعة وإن كان كثير الرواية والكتب[٢].

فالعلم نور يقذفه الله في القلب، وشرطه الاتباع والفرار من الهوى والابتداع[٣].

وفقنا الله وإياكم لطاعته.

أحوال الناس في النية في طلب العلم:

● لقد أحسن الغزالي بقوله: (واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال:

الأولى: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد إلا وجه الله والدار الآخرة، فهذا من الفائزين.

الثانية: رجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلبه ركاكة حاله، وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين، فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة، وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط فيه من الخلل، التحق بالفائزين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

---

(١) حلية الأولياء (١ / ٢٣٨).

(٢) طبقات الحنابلة (٢ / ٣١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٢٣).

الثالثة: رجل استحوذ عليه الشيطان، فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضي من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين)[1].

● وقال ابن جماعة: (حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعدّ لأهله من رضوانه وعظيم فضله)[2].

وعلى طالب العلم أن ينوي بتعلمه الخروج من الجهل، ومنفعة الخلق، وإحياء العلم والعمل به.

واحذر أخرى: أن يكون طلبك للعلم لنيل الشهادات والتفاخر والتجمل بها حتى يقال: فلان نال الشهادات العليا، وينادى بأعلى الألقاب العلمية، وقد فتن الناس في هذه الأزمان المتأخرة بمثل هذا.

● قال الرحبي: (تعلموا العلم، واعقلوه، وانتفعوا به، ولا تعلموه لتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يُتجمّل بالعلم كما يَتجمل الرجل بثوبه)[3].

الوصيّة الثالثة: الحاجة إلى العلم.

إن من الواجب أن يدرك طالب العلم حاجة نفسه إلى العلم، وحاجة أمّته

---

(١) بداية الهداية للإمام الغزالي (ص ١٩ - ٢٢).

(٢) تذكرة السامع (٣٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٦٩٣).

إليه، حتى يحسن إعداد نفسه وتأهيلها بالتحصيل العلمي النافع؛ لينفع نفسه وينفع أمّته، فإنّ حاجة الأمّة إلى العلم ماسّة.

والجهاد بالعلم أعظم أنواع الجهاد، فلا يكن همّ الطالب قاصرًا على ضبط ما يُلقى إليه من مسائل العلم أو ما يقرؤه في الكتب على أهميّته، بل ينبغي له أن يكون قائمًا لله بهذا العلم كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾[المائدة: ٨] فيتعرّف في تعلّمه على ما يمكنه بذلُه للدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، والتعرف على الأبواب التي يحتاج الناس إلى فقهها فيوليها عناية أكبر ليدعو بها في مجتمعه ومجاله، وهذا يكون في كل مجتمع بحسبه.

وليعلم طالب العلم أن العمر سريع التقضّي، وأنفس ما في العمر سنّ الشباب، فمن أعدّ نفسه في شبابه إعدادًا حسنًا حمدَ العاقبة وانتفع وارتفع، ومن فرّط وضيّع ندم حين لا تنفعه الندامة، وفي قصص المشمّرين والمقصّرين عِبَر وعِظَات، والسعيد من وُعظ بغيره، والطالب اللبيب لا ينظر إلى من يثبّطه، ولا يلتفت إلى ما يشغله عمّا فيه فوزه وفلاحه ورفعته، ولا يحفل بما يصيبه من الأذى والمشقّة المحتملة في طريق الطلب.

● قال عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (لما توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قلت لرجل من الأنصار: يا فلان، هَلُمَّ فلنسأل أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنهم اليوم كثير. فقال: واعجبًا لك يا بن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من ترى! فتركَ ذلك، وأقبلتُ على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسّد ردائي على بابه، فتَسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا بن عم

رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فآتيك! فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث. قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ، فقال: كان هذا الفتى أعقلَ مني)[١].

● وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (إن كنتُ لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٢].

وهذا من شدّة نهمته في العلم، وتثبّته في طلب العلم.

● وقيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كيف أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سَؤول، وقلب عَقُول)[٣].

● وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبنيه: (يا بَنيَّ، إنكم اليوم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم، فعليكم بالعلم؛ فمن لم يحفظ منكم فليكتبه)[٤].

● ووقف عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حلقة من قريش فقال: (ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة! لا تفعلوا، وأوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إيَّاه؛ فإنهم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم، فأنتم اليوم كبار قوم)[٥].

وصية سفّارينية:

● يقول الإمام السفّاريني رَحِمَهُ اللَّهُ: (وحرمان العلم يكون بستة أوجه:

---

(١) رواه الدارمي (رقم ٩٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٤٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٣٨٦).
(٤) تقييد العلم للبغدادي (٩١).
(٥) شرف أصحاب الحديث للبغدادي (٦٥).

أحدها: ترك السؤال.

الثاني: سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع.

الثالث: سوء الفهم.

الرابع: عدم الحفظ.

الخامس: عدم نشره وتعليمه، فمن خزن علمه ولم ينشره ابتلاه الله بنسيانه جزاء وفاقًا.

السادس: عدم العمل به، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه. قال بعض السلف: كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به. وقال بعضهم: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل، فما استُدرّ العلم واستُجلب بمثل العمل به)[1].

وقد قيل: ومن تصدر قبل أن يتقعر، وتزبب قبل أن يتحصرم، وعلا وهو من العلم قد خلا، وجلس للتعليم دون حكمة ورأي حليم، وتكلم من غير أن يكون في سبيل العلم قد تألم، فقد أفسد أكثر مما يصلح، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوصيّة الرابعة: الاجتهاد مفتاح النجاح.

جدّ واجتهد في طلب العلم، وما تيسر من حفظ القرآن إذا لم يتيسر لك حفظه كاملًا، فبه تنال البركات والهدايات، واحذر الدعة والكسل، فإنك ما تغربت وسافرت وتركت الأهل والأوطان، ولاقيت التعب، إلا في سبيل الجد

---

(١) غذاء الألباب (١ / ٤٤).

والاجتهاد في تحصيل العلم، فمن الخسارة والخيبة بعد ذلك ألا تجد تحصيلًا وترجع بثقافة علمية ضحلة، وعلم ضعيف يفتقر إلى كثير من التأصيل العلمي وأساسيات العلوم، فلا ترفع به الجهل عن نفسك ولا غيرك.

كم فرصةٍ ذهبتْ فعادتْ غُصّةً   تُشجي بُطولِ تَلهفٍ وتَندّمِ

بَادرِ الفرصةَ واحذرْ فَوتها   فبلوغُ العزّ في نيلِ الفُرص

واعلم أن العلم لا ينال إلا بالجد والاجتهاد وترك الصوارف من مشاغل الحياة ومتعها.

واسمع لهمة سامية وليست دانية.

● ورد عن أبي الفضل الهاشمي (ت ٣٦٣هـ) قوله: (مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق، فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى سماع الحديث)[1].

فما اعتذر عن الدرس أو تأخر لأجل توافه الحياة والخروج للنزهة والسآمة ومواعيد ليست ذات بال، وتعجب من بعض الطلبة اليوم الذين يصرفهم أدنى صارف عن حضور الدروس، ولو علم القوم حال بعض الطلبة اليوم لرموهم بالحجارة وهجوهم بالشعر والنثر.

واسمع لأخرى:

● ورد في السير: (أن يحيى بن يحيى الليثي كان في مجلس الإمام مالك، فقدم فيل، وخرج الناس ينظرون إليه، ولم يخرج، فقال له مالك: لم لا تخرج

---

(١) تاريخ بغداد (١١ / ١٧٨).

تنظره؛ فإنه ليس ببلدك فيل! فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم هديك وعلمك. فأعجبه ذلك منه، وسماه: عاقل الأندلس)[١].

ما أعقله وأسمى منطقه وجوابه! واليوم ينشغل بعض الطلبة في الدرس بالهواتف ووسائل التواصل، فأي قيمة يحملونها للعلم والفائدة والأستاذ! مصيبة أيما مصيبة!

فإن أصابك الملل والكلل فدونك هذه الكلمات من الإمام البخاري مسليًا لتلميذه.

● قال الفَرَبريّ: (كنت جالسًا مع أبي عبد الله البخاري بفَرَبْرَ في المسجد، فدفعت من لحيته قذاة مثل الذرة، فأردت أن ألقيها في المسجد، فقال: ألقها خارج المسجد. قال: وأملى يومًا عليّ حديثًا كثيرًا، فخاف مَلَالي فقال: طب نفسًا؛ فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه. فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله، إلا وأنا أرى الحظ لنفسي فيه)[٢].

● وذكر البغدادي بأنه كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه ، فعزم على تركه ، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر الماء فيها ، فقال: (الماء على لطافته قد أثر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبن العلم! فطلب فأدرك)[٣].

ففي السير ما يوقظ النفوس ويجدد العزم والهمة ، وفي سير الرجال مدارس للأجيال .

---

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٣٨٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ / ١٧٩).

الوصيّة الخامسة: استثمار الوقت والفرص.

استثمر وقتك في حضور الدروس والدورات العلمية والمهارية والتطويرية في الدعوة، والعمل الخيري، وزيارة المراكز والمؤسسات والجمعيات الخيرية، واستفد من برامجهم، واكتسب خبرة حتى تعود إلى بلدك قويًّا تستطيع أن تكون نافعًا، لا ضعيفًا في علمك وقدراتك، كما هو حال بعض الطلبة للأسف، فإنهم يعودون ضعفاء، لم يحصلوا إلا شيئًا يسيرًا، بسبب تضييع أوقاتهم وتشتيت أفكارهم، وعدم وضع خطة ورؤية واضحة في طلب العلم، وانشغالهم بغير طلب العلم، والسعي في التزود من مكاسب المال ونحوه بما يتعارض مع الهدف الرئيس، وهو طلب العلم، فأعط العلم نفيس وقتك وصحتك وصفاء عقلك.

● وقد قال أبو يوسف الحنفي: (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)[1] فكيف بمن يعطي العلم بعضه!

إن رُمتَ علمًا فلازمْ   للدرسِ واجهدْ تُحصِّلْ
واسهرْ وطالعْ وباحثْ   فالبحثُ دأبُ المحصِّلْ

وتميّز الإنسان ونجاحه وسره هو معرفة قيمة الوقت وعدم ضياعه، فإن العظماء في كل فن وميدان ما وصلوا إلى قمة المجد والعطاء إلا بالحفاظ على الوقت، فالوقت هو الحياة.

فاحذر كل الحذر ممن يسرق وقتك ويضيع أنفاس عمرك فيما لا فائدة منه، في ذهاب وإياب، وكثرة خلطة، وزيارات ولقاءات وسفر، من غير فائدة، والاستجمام راحة للعودة للقوة والنشاط.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ / ١٧٤).

● يقول ابن يونس الخزرجي (ت ٦٦٨هـ) وهو يؤرخ لأحد علماء الطب: (والملقب بالهلال لأنه كان كثير الملازمة لمنزله، منغمسًا في العلوم والتأليفات، فكان لا يراه الناس إلا كل مدة، فلقب بالهلال من الاستتار)[(١)].

واعتكف السيوطي وابن حجر حقبة من الزمن واعتزلوا الناس، حتى قاموا بالتأليف وإكمال كتبهم وتحريرها، وسيأتي مزيد بيان لهذا.

الوصيّة السادسة: لا تشتت.

لا تشتت نفسك وأفكارك، واحذر الخوض فيما لا ينفعك، ولا تُضع وقتك وفكرك في الخلافات المنهجية والفكرية والسياسية والحزبية، وهذه الرحلة فرصة العمر للتفرغ للعلم بشتى أنواعه، فلا تفرط فيها حتى لا تندم وتتحسر، فإنها قد لا تعود مرة أخرى.

فالزمْ حـــدودكَ في قولٍ وفي عملٍ ودعْكَ من كلّ أَمــرٍ ليسَ يُغنيكَا

أمتك وبلدك ينتظرون منك الكثير والكثير، فجد واجتهد وبادر وثابر وانتهز الفرص، والحياة دروس وفرص، وفوات الفرص ما له عِوَض.

● قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخير ينبغي أن يبادر به، فإن الآفات تعرض، والموانع تمنع، والموت لا يؤمن، والتسويف غير محمود، وهو أخلص للذمة، وأنفى للحاجة، وأبعد من المطل المذموم، وأرضى للرب)[(٢)].

العمــرُ يذهــبُ والآمــالُ باقيةٌ فانظرْ لعزمكَ فيما أَنتَ شــاغلُه

إن الذي ينفعك هو انغماسك وانهماكك في مشروعك العلمي البنائي

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١٥٠).

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٩٩).

لنفسك ولأمتك، حتى تقوى وتشتد لتمد أكف العطاء، كن ذلك الذي تركته جلبت الأحداث إلى الخلود نحو صفاء الروح والعلم حيث بناء مجدك ومجد أمتك، كن كذلك، ودع هيشات الزمن[1] فلست حكماً على الناس.

وكن شاهد اليوم والغد على أولئك الذين فرغوا أنفسهم وأوقاتهم للعلم والتعليم والتربية والتوجيه وتحصين الأمة، وآخرون انشغلوا بمتابعة الأحداث والصراعات والتحليلات، والأسفار، ومجالس السمر، والقيل والقال، ووسائل التواصل، فأي الفريقين كان في المراتب السنية وفي سجلات العظماء! ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

الوصيّة السابعة: التواصل مع العلماء وطلاب العلم.

كن على تواصل مع العلماء وطلبة العلم والدعاة وغيرهم في بلدك، وأنت في بلد طلب العلم، وكذلك إذا عدت إلى بلدك في أثناء الإجازات، واحمل لهم ما تستطيع من الهدايا، فهي مفاتيح القلوب، وفي كل ذلك فوائد عدة ليس المقام لبسطها.

تعرّف على طلاب العلم المغتربين من دول شتى واستفد من تجاربهم، وكن على وصال مع بني قومك من الطلاب ليعين بعضكم بعضًا في مجالات العلم والدعوة، وما يحقق النجاح لأمة الإسلام، ومن الأهمية بمكان وضع برامج مشتركة فيما بينكم ولأولادكم وزوجاتكم.

وعليك بمن يعينك في طلب العلم ويقربك من الله، فالمرء بحاجة إلى ذلك أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، واحذر ممن يبعدك عن العلم ويقطعك عن الله.

---

(١) الهيشات: كل ما يكون سببًا في المنازعات واللغط والفتن.

● يقول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك لحال الآخرة فعله)[١].

واصحب رفيقًا من تراه مشـمِّرًا بالجِـدِّ يدفـع عِلّـة الكسـلانِ

واحذر من غلاة التبديع والتكفير والتفسيق والتحزب والبغي وعدم الإنصاف، فلا تكن لهم تلميذًا ولا صاحبًا، فإنهم يجلبون عليك بما لا فائدة منه، فتكون غارمًا لا غانمًا، وما جئت هنا إلا لتكون غانمًا وتعود عظيمًا.

● قال إبراهيم الجِبْنِيَانِيُّ المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٣٩٦هـ): (لا تعلّموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، فدِين الصبي على دين معلمه، فلقد عرفت معلمًا كان يخفي القول بخلق القرآن، ففُطن له، فلما علم أنه يطرد وقف بين يدي مكتبه وقال لصبيانه: ما تقولون في القرآن؟ قالوا: لا علم لنا. فقال: هو مخلوق، ولا تُزالون عن هذا القول لو قُتلتم. فماتوا كلهم على هذا الاعتقاد)[٢].

● يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعليك بترك مخالطة السفهاء، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب)[٣].

والزم شـيوخًا قد أَنِسْتَ بنفعهمْ واحذر رؤوسَ الجهلِ والعدوانِ

الوصيّة الثامنة: العمل بالعلم.

تطرق العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى هذا الموضوع في عدد من المصنفات، ولعل من أشهرهم الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي تكلم في رسالة له بعنوان: «اقتضاء العلم العمل».

---

(١) ترتيب المدارك (٢ / ٦٤).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٢٤٥).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٥٥).

وقال بعض السلف: معنى قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[آل عمران: ١٨٧] يعني تركوا العمل به.

وأول من تسعر به النار يوم القيامة الذين لا يعملون بعلمهم.

عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له ناتل أهل الشام(١): يا أبا هريرة حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ»** وذكر منهم: **«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»**(٢).

وعَالِمٌ بعلمِه لم يَعمَلَنْ مُعذَّبٌ مِن قَبلِ عُبّادِ الوثنِ

فهؤلاء أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ!»**(٣).

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ معاتبًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

---

(١) هو: ناتل بن قيس الشامي، من أهل فلسطين، تابعي، كان كبير قومه، وكان أبوه صحابيًا.

(٢) رواه مسلم (رقم ١٩٠٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢١/ ١٠٤ رقم ١٣٤٢١) وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٥٣).

تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢-٣].

وقد قيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل.

● قال أبو عصمة البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بتّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل!)(١).

● وقال الحسن: (كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره ويده)(٢).

● وقال أبو عمرو ابن حَمدان: (سمعت أبي يقول: كنت في مجلس أبي عبد الله المروزي، فحضرت صلاة الظهر، فأذّن أبو عبد الله، فخرجت من المسجد، فقال: يا أبا جعفر، إلى أين؟ قلت: أتطهر للصلاة. قال: كان ظني بك غير هذا، يدخل عليك وقت الصلاة وأنت على غير طهارة!)(٣).

● وكان بعض السلف يقول: (أخشى ألا تبقى آية في كتاب الله تعالى آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع)(٤).

حصلت البركة عند الأولين لأنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٤٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٦٨٣).

يعملوا بما فيها، وهذا العلم إذا لم يعمل به يذهب.

● قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هتف العلم بالعمل، فإن إجابه وإلا ارتحل)(١).

● وقالت أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرجل: (هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا. قالت: فَلِمَ تستكثر من حجة الله عليك!)(٢).

اللهم اجعل العلم حجة لنا لا علينا.

وللعلم بالعمل أثر على النفس وبركة في حياة طالب العلم والداعية، وفي علمه ودعوته للآخرين.

إنَّ الفَقيـهَ هُـوَ الفَقيـهُ بِفِعلِـهِ ... لَيـسَ الفَقيـهُ بِنُطقِـهِ وَمَقالِـهِ

تعلّم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به، فيكون عليك بُورُه(٣) ولغيرك نوره.

● وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم)(٤).

● وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول: قد علمتَ، فماذا عملت إذ علمت!)(٥).

● وكان يقال: (خير من القول فاعله، وخير من الصواب قائله، وخير من

---

(١) اقتضاء العلم العمل (٣٦).
(٢) صيد الخاطر (٥٧).
(٣) البُور: الهلاك.
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٠٨٧).
(٥) المصدر السابق (٧٥٢).

العلم حامله، وخير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع)[١].

لا خير في قول بلا فعل، ولا في منظر بلا مخبر، ولا في مال بلا جود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فقه بلا ورع، ولا في صدقة إلا بنية، ولا في حياة إلا بصحة وأمن.

اعملْ بعلمكَ تَغنـم أيها الرجلُ ... لا ينفعُ العلمُ إن لم يحسـنِ العملُ
والعلمُ زيـنٌ وتقـوى الله زينتُه ... والمتقـونَ لهم في عِلمهم شـغلُ

واحرص على اتباع منهج السلف، واحذر من كل ما يؤثر على دينك وعقيدتك من البدع، واحرص على سلامة معتقدك وفكرك، والفلاح كل الفلاح والفوز والنعيم في اتباع السلف.

واقطف ثمارَ العلمِ من أشـجارهِ ... لا تَعْجِـزَنّ ولا تكـن بِالـواني
هـذا النعيـمُ إذا التمسـتَ لجَنّةٍ ... فارتَعْ رعـاك الله في الرِّيضانِ[٢]

واعلم أن من أعظم وسائل الثبات العملَ بالعلم، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

الوصيّة التاسعة: التخصص طريق النجاح.

التخصص في أي فن من فنون العلم مهم للغاية، خاصة في هذه الأزمان، فإن الأمة اليوم تحتاج في كل قضاياها متخصصين في تجلية الشبهات والشهوات مما يقذفه أعداء الإسلام، قال الله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

والتخصص لا يعني أنه لا يكون له حظ من العلوم الأخرى المرتبطة

(١) أدب الدنيا والدين (٧٦).
(٢) الريضان جمع روضة، والمراد مجالس الذكر.

بتخصصه.

الوصيّة العاشرة: عناء الغربة.

الرحلة في طلب العلم والغربة فيه يعتريها شيء من الجهد والعناء والتعب بكل أنواعه، وربما واجه الطالب نوعًا من قلة المال وضعف العيش، من مسكن ونحوه، وربما واجه عددًا من المعوقات، كالبعد عن الزوجة والأهل، واختلاف العادات، واختلاف المذاهب والأفكار، وعدم التوجيه المناسب، فعليه حينئذ بالصبر والمصابرة والتحمل في مرضاة الله، وهكذا كان السلف وأهل العلم في رحلتهم في طلب العلم، صبروا حتى نالوا ما تمنوا من العلم، ورجعوا بالفوز والفلاح.

فلا تكن ممن يقطعون رحلتهم بسبب تغير الحال وبعض الأخطاء والمكدرات في العيش والتعامل، وقد كره بعض أهل العلم ذلك وجعله كالحج، لا يُقطع إذا شرع الإنسان فيه.

● قال تقي الدين: (ولهذا مضت السنة بأن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج، يعني أن ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته)(١).

الجوعُ يُطـردُ بالرغيـفِ اليابسِ   فَعلامَ تَكثرُ حَسرتي ووسَـاوسي

● واسمع للمحدث الكبير أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف حاله قائلًا: (إنَّ النَّاسَ كَانُوا يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ! وَإِنِّي كُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِبَعِ بَطْنِي، حَتَّى لاَ آكُلُ الخَمِيرَ وَلاَ أَلْبَسُ الحَبِيرَ، وَلاَ يَخْدُمُنِي فُلاَنٌ وَلاَ فُلاَنَةُ، وَكُنْتُ أُلْصِقُ بَطْنِي بِالحَصْبَاءِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لأَسْتَقْرِئُ الرَّجُلَ الآيَةَ، هِيَ

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ١٨٦).

مَعِي، كَيْ يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَنِي، وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا العُكَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَنَشُقُّهَا فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا)[1].

● وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحَدِيثَ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واللهُ المَوْعِدُ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا، أَلْزَمُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَكَانَتِ الأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ القِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَشَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَالَ: «**مَنْ يَبْسُطْ رِدَاءَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي، ثُمَّ يَقْبِضْهُ، فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي**» فَبَسَطْتُ بُرْدَةً كَانَتْ عَلَيَّ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ)[2].

ولم أَجِد الإِنسانَ إلا ابنَ سعيه ... فمن كانَ أسعَى كانَ بالمجدِ أَجدرَا
وبالهمةِ العلياءِ يرقَى إِلى العُلا ... فمن كان أرقَى هِمَّةً كان أَظهرا
ولم يتأخرْ مَن يريدُ تقدمًا ... ولم يتقدمْ مَن يريدُ تأخرا

ولمَّا رحل الإمام أحمد لطلب العلم لم يكن لديه مال، فكان يحمل البضائع على الجمال وعلى الحمير، فيأخذ من هذا درهمًا ومن هذا درهمًا، فيعيش بهذه

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣٧٠٨).

(أكثرأبو هريرة) أي: في روايته للحديث (بشبع بطني) أي: رضيت بشبع بطني ولم أطلب زيادة على ذلك، فتهيأ لي من سماع حديثه ما لم يتهيأ لغيري (الخمير) الخبز الذي خُمِّر وجُعل في عجينه الخميرة (الحبير) الجديد والحسن (بالحصباء) بالأرض لتنكسر شدة الجوع (لأستقرى الرجل الآية) أقول له: أريد أن أقرأ عليك آية كذا (هي معي) أحفظها (ينقلب) يرجع (العُكّة) وعاء من جلد يجعل فيه السمن وغيره.

(٢) رواه البخاري (رقم ٧٣٥٤) ومسلم (رقم ٢٤٩٣).

الدراهم، وفي الصباح يطلب العلم حتى يستغني عن سؤال الناس (عِفَّة وطلب علم)[١].

تُريدينَ إدراكَ المَعَالي رَخيصَةً ... وَلا بُدّ دونَ الشّهدِ من إبَرِ النّحلِ[٢]

● وصلى الإمام أحمد بن حنبل بعبد الرزاق الصنعاني، فسها، فسأل عنه عبدُ الرزاق، فأُخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئًا[٣].

● ويقول ابن قاضي الجبل الحنبلي: (كنت في حال الشبوبية ما أتغدى إلا بعد عشاء الآخرة؛ للاشتغال بالعلم)[٤].

ولا ينال العلم براحة البدن.

● قال الشافعي: (لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملل وغنى النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلّة النفس، وضيق العيش، وخدمة العلم أفلح)[٥].

واصبر على مُرِّ التعلّم إنه ... مَهْرُ الوصول لجنّة الرحمنِ

واتخذ في رحلتك وغربتك رفيقًا تتوافق معه في كثير من جوانب حياتك؛ العلمية والعقلية والنفسية، حتى لا يغمك ولا يهمك ولا تشقى به بكثرة المخالفة، يقويك ولا يضعفك، يؤنسك ولا يزعجك، فهو مصدر نجاح وثبات، فاحرص على اختياره وانتقائه.

● قال حريث بن قبيصة: (لما قدمت المدينة سألت الله أن يرزقني جليسًا

(١) وقفات من سيرة الإمام أحمد للعمري.
(٢) البيت للمتنبي (شرح ديوان المتنبي، للواحدي ص ٣٦٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٩٣).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٥ / ١٨٠).
(٥) تدريب الراوي (٢ / ٥٨٤).

صالحًا، فجلست إلى أبي هريرة، فأخبرته بذلك)[١] فهيأ الله له أباهريرة، نِعْمَ الصالح والرفيق والمعين.

● وعن علقمة قال: (دخلت دمشق فقلت: اللهم ارزقني جليسًا صالحًا! فرُزقت بأبي الدرداء)[٢].

الوصيّة الحادية عشرة: اللغة العربية.

احرص على تعلم اللغة العربية وإتقانها، فهي الطريق إلى فهم القرآن والسنة، ونشر العلم والخير في الناس، وترجمة الكتب، ولا تستهن في ذلك فتندم بعد ذلك، وكلما كنت قويًّا في اللغة العربية كنت قويًّا في الاستفادة والإفادة.

من لم يجاهد نفسَه وقتَ الصبا ... ضاعتْ عليه مراتبُ الأخيارِ

جَمِّلِ المَنطِقَ بالنَّحو فمنْ ... يُحرَمِ الإعرابَ بالنُّطقِ اختبلْ

الوصيّة الثانية عشرة: دوّن العلم.

ضع لك دفترًا للفوائد والأفكار العلمية والدعوية وغيرها، ومن خلالها تفتح لك آفاقًا في المشاريع العلمية والدعوية، وبها تحفظ العلم وتراجعه.

العلمُ صيدٌ والكِتَابةُ قيدُهُ ... قيِّد صيودكَ بالحبالِ الواثِقَهْ

فمِنْ الحماقَةِ أنْ تصيدَ غزالةً ... وتتركَهَا بين الخَلائقِ طَالَقَهْ

وكن متحفظًا متيقظًا من ضياعها وفقدانها إذا كنت تتعامل في حفظها مع الأجهزة الحاسوبية ونحوها.

● قال علي ابن المديني: (كنت صنفت «المسند» على الطرق مستقص،

(١) تاريخ دمشق (١٢/ ٢٧٣).

(٢) تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٧).

وكتبته في قراطيس، وصيرته في قمطر كبير، وخلفته في المنزل، وغبت هذه الغيبة، فلما قدمت ذهبت يومًا لأطالع ما كنت كتبت. قال: فحركت القمطر فإذا هو ثقيل رزين بخلاف ما كانت، ففتحتها فإذا الأَرَضة قد خالطت الكتب، فصارت طينًا، فلم أنشط بعد لجمعه)[١].

واحذر من الكتابة بخط دقيق أو سريع المحو ، فقد حذر السلف من ذلك.

● ورد عن حنبل بن إسحاق قال: رآني أحمد بن حنبل وأنا أكتب خطًّا دقيقًا فقال: (لا تفعل، أحوج ما تكون إليه يخونك)[٢].

ولقد شوهد من نفائس التعليقات ما يعجز المرء عن قراءتها، وتتحسر النفس على فواتها، مما كتبه الأوائل، أو مما يكتبه المرء بنفسه.

الوصيّة الثالثة عشرة: حدد الهدف.

لابد أن يكون لديك أهداف وأسباب دعتك للرحلة في طلب العلم، فاعتن بتحقيق هذه الأهداف ووقتها وخطتها لتكون ناجحًا وغانمًا، وإلا فسيضيع وقتك وعمرك وتتعب نفسك كثيرًا، والنتيجة غير مرضية وضعيفة، فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجِز .

الوصيّة الرابعة عشرة: مذاكرة العلم.

من أنفع الوسائل في تثبيت العلم وفتح آفاقه واستذكاره وتصحيح مسائله، وتلاقح العقول والأفكار وتثويرها، مذاكرة العلم، فاختر لك رفقة وأخًا تتذاكر معه العلم وتناقشه، ويجلي لك ما استغلق من المسائل وكشف المشكل عنها وعن أدلتها.

وللسلف في ذلك أقوال ومجالس وثناء، وحث على مذاكرة العلم،

---

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ٤٢١).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٦١).



وأوصاف لمحبي المذاكرة، حتى غدت ألقابًا لهم، فيقال: فلان جميل المذاكرة، عذب المذاكرة، طيب المذاكرة.

● ومن أجمل ما قيل ما قاله علقمة: (إحياء العلم المذاكرة، وآفته النسيان)[١].

● وقال عبد الله: (تذاكروا الحديث، فإن حياته مذاكرته)[٢].

● وقال طلق بن حبيب: (تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيّج الحديث)[٣].

● وقال سعيد بن عبد العزيز يعاتب أصحاب الأوزاعي: (ما لكم لا تجتمعون! ما لكم لا تتذاكرون!)[٤].

● وقال الخليل بن أحمد: (ذاكر بعلمك تذكر ما عندك، وتستفد ما ليس عندك)[٥].

● وتذاكر وكيع وعبد الرحمن ليلة في المسجد الحرام، فلم يزالا حتى أذّن المؤذن أذان الصبح[٦].

● ويقول ابن رجب: (ولابد في هذا العلم من طول الممارسة وكثرة المذاكرة، فإذا عدم المذاكرة به فليكثر طالبه المطالعة في كلام الأئمة العارفين)[٧].

● وفي ترتيب المدارك: (وكان ابن طالب القاضي المالكي حريصًا على المناظرة، فيجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ويُغري بينهم لتظهر الفائدة، ولم

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (٥٤٦).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ / ٢٧٣).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) شرح العلل (٢/ ٤٦٦).

يكن شيء أحب لابن طالب من المذاكرة في العلم)[١].

● وفيه: (أن أبا العباس التونسي الإبياني المالكي يفصل المسائل كتفصيل الجزار الحاذق اللحم، وكان يحب المذاكرة في العلم، ويقول: دعونا من السماع، ألقوا علينا المسائل)[٢].

● وقال عون بن عبد الله بن عتبة: (لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها، فقلنا: أمللناك يا أم الدرداء! فقالت: ما أمللتموني، لقد طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت شيئًا أشفى لنفسي من مذاكرة العلم. أو قالت: من مذاكرة الفقه)[٣].

● وفي إنباه الرواة: (كان المنذر أبو الحكم بن عبد الرحمن الأموي يعرف بـ«المذاكرة» لأنه كان إذا لقي رجلًا من إخوانه قال له: هل لك في مذاكرة باب من النحو! حتى لقّب بـ«المذاكرة»)[٤].

الوصيّة الخامسة عشرة: إصلاح السريرة.

إذا جاء الحديث عنها ارتجف القلب وخافت الروح، وتوقف الإنسان وفكر في نفسه والتفت لها صادقًا معها، حديث مخيف، لأنه حديث النفس مع النفس، والضمير مع الضمير بلا غش ولا خداع، لأن القلب محل اطلاع الله عليه، لأنه تجرد لله ومع الله، لأنه أعظم صراع وصدام ومعركة، لأنه مع النفس وحظوظها ورغباتها، لأنه تقديم لما يحبه الله، لأنه يوم القيامة تنكشف السرائر، فأعدّ للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا، لأنه من أعظم مواقع المدح والذم.

---

(١) (٤ / ٣٠٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) جامع بيان العلم (١ / ٢٠٤).

(٤) (٣ / ٣٢٣).

وفي سير التراجم في الثناء يقال: (صفي نقي حميد السريرة)، (طاهر طيب مأمون السريرة)، (صالح نيّر عفيف السريرة) وفي الذم يقال: (خبيث الطوية، قبيح السريرة).

● قال بلال بن سعد: (ولا تكن ولي الله في العلانية عدوه في السر)(١).

● وقال سفيان: (إذا وافقت السريرةُ العلانيةَ فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجَور)(٢).

● وقال ابن الجوزي: (لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك، ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته السريرة، فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر)(٣).

● وورد عن السلف: (ومن صفّى صُفّي له، ومن كدّر كُدّر عليه، من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، من صدق في ترك شهوة كُفي مؤنتها، وكان الله أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له)(٤).

● قال ابن المبارك: (ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك؛ ليس له كثير صلاة

---

(١) تاريخ دمشق (١٠/ ٤٨٩).
(٢) تاريخ بغداد (١٣ / ١٧٤).
(٣) صيد الخاطر (ص ٢٢٠).
(٤) حلية الأولياء (٩ / ٢٥٥).

ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة) قال الذهبي: قلت: (ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله)[١].

طبقات الناس في العلم:

الطبقة الأولى: من يتعلم العلم ليرفع الجهل به عن نفسه ويعبد الله على بصيرة.

الطبقة الثانية: من يتعلم العلم لإصلاح لسانه وتقويم فهمه وتوسيع مداركه.

الطبقة الثالثة: من يتعلم العلم ليكون عند تحصيله إمامًا يرجع إليه ويستفاد منه، مدرسًا ومفتيًا ومصنِّفًا[٢].

وهي أفضلها وأسماها وأبلغها وأعظمها عند الله لمن قام بشرطها، فانظر - أعزك الله - أي الطبقات أربح صفقة، وأكثر فائدة، وأعظم عائدة، فقد بان الصبح لذي عينين، وعند الصباح يحمد القوم السُّرَى.

هذه - والله - رُتب السمو والعلو، ومنازل تتقاصر عندها النجوم، فكيف بك إذا كنت مع هذه المزية مرجعًا في دين الله، ملجأ لعباد الله، مترجمًا لكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدوم لك الأجر، ويستمر لك النفع، ويعود لك الخير، وأنت بين أطباق الثرى وفي عداد الموتى بعد مِئِين من السنين.

ولا يحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ما تنازعك نفسك إليه من مطالب الدنيا التي تروقها وتود الظفر بها، فإنه حاصل لك على الوجه الذي تحب والسبيل الذي تريد، وتكون إذ ذاك مخطوبًا لا خاطبًا، ومطلوبا لا طالبًا، وعلى فرض أنها تُكدي عليك المطالب وتعاند الأسباب فلست تعدم الكفاف

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٧).

(٢) أدب الطلب للشوكاني (١٣٢) بتصرف.



الذي لا بد لك منه، فما رأينا عالمًا ولا متعلمًا مات جوعًا، ولا أعوزه الحال حتى انكشفت عورته عريًّا، أو لم يجد مكانًا يكنّه ومنزلًا يسكنه، وليست الدنيا إلا هذه الأمور، وما عداها فضلات مشغلة للأحياء مهلكة للأموات. وإن من تصور هذا الأمر حق التصور وتعقله كما ينبغي، انتفع به انتفاعًا عظيمًا، ونال به من الفوائد أمرًا جسيمًا، والهداية بيد الهادي جَلَّجَلَالُهُ وتقدست أسماؤه[1].

*****

(١) المصدر السابق.

قطعة ذهبية من نوادر الإمام الشافعي وجزيل كلامه:

العلم أفضل من صلاة النافلة، ومن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، وما تقرّب إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر عليَّ، ولا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس، وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النفس أفلح.

تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

ومن طلب علمًا فليدقق لئلا يضيع دقيق العلم.

من لا يحب العلم لا خير فيه، ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

زينة العلماء التوفيق، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس، وزينة العلم الورع والحلم.

ليس العلم ما حُفظ، العلم ما نفع.

فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار.

المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن.

الناس في غفلة عن هذه السورة: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1].

*****

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٥٣-٥٤).



آداب طلب العلم

تحلّ بآداب طلب العلم.

● قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث)[١].

● وقال أيضًا: (طلبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين سنة، وكانوا يطلبون الأدب ثم العلم)[٢].

● وقيل: (علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم).

● وقيل: (قيراط من أدب خير من أربعة وعشرين قيراطًا من العلم)[٣].

● وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: قال لي أبي: (يا بني، إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلي لك من كثير من الحديث)[٤].

● وقال إبراهيم النخعي: (كنا نأتي مسروقًا فنتعلم من هديه ودَلّه)[٥].

● وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: (قلت لأبي: لم لم تكتب عن وليد بن

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٨٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) شرح مختصر خليل للخرشي (٨/ ٢٣٣).

(٤) المصدر السابق.

(٥) جامع بيان العلم (١ / ٢٥١).

صالح؟ قال: رأيته يصلي في مسجد الجامع يسيء الصلاة)[١].

● وترك الإمام شعبة حديث محمد بن مسلم المكي لأنه رآه وهو لا يحسن يصلي، ورآه يَزِنُ ويسترجح في الوزن، ورأى رجلًا أغضبه، فافترى عليه وهو حاضر[٢].

● وقال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إلي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم)[٣].

● وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كانت أمي تعمّمني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه)[٤].

● واسمع إلى حسين بن إسماعيل يحدث عن أبيه: (كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف - أو يزيدون نحو خمسمائة - يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت)[٥].

● وقال أبو بكر ابن المطّوعي: (اختلفت إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ «المسند» على أولاده، فما كتبت عنه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه)[٦].

قوم شغفهم تربية النفس وزكاتها، وقوم شغفهم العلم والتقاط المسائل

---

(١) العلل ومعرفة الرجال (١ / ٣٢٢).
(٢) شرح علل الترمذي (٢ / ٥٧١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) ترتيب المدارك (١/ ١٣٠).
(٥) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣١٦).
(٦) مناقب الإمام أحمد (٢٨٨).

لكن لا يلتفتون إلى هدي العالم وسمته وأدبه وخشيته، فمنهم من نجا وسلم، ومنهم من أخطأ السلوك والطريق.

كيف يفلح طالب علم لم يعرف للعالم حقه، ولم يعرف أدب الحديث والسؤال!

كيف يفلح طالب علم ديدنه التجريح في العلماء وطلبة العلم، وقيل وقال، ولا يحفظ لسانه، ويدعي أن ذلك هو طريق الحق لإقامة الحق!

كيف يفلح طالب علم ويكون مؤثرًا في الناس، وليس فيه شيء من هدي السلف في أدبه وخشيته وعبادته وسلوكه ولسانه وجوارحه وتعامله وأخلاقه!

● قال ابن أبي حاتم الرازي: (اعتلّ أبو زرعة فمضيت مع أبي لعيادته، فسأله أبي عن سبب هذه العلة، فقال: بت وأنا في عافية، فوقع في نفسي أني إذا أصبحت أخرجت من الحديث ما أخطأ فيه سفيان الثوري، فلما أصبحت خرجت إلى الصلاة، وفي دربنا كلب ما نبحني قط، ولا رأيته عدا على أحد، فعدا عليّ وعقرني، وحُمِمتُ، فوقع في نفسي أن هذا عقوبة لما وضعت في نفسي، فأضربت عن ذلك الرأي)[1].

فكن لأهـل العلـمِ عونـًا وإنْ   عاديتَهـم يومًـا فخُذ مـا أتاك

● قال سفيان: (كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب وتعبّد قبل ذلك بعشرين سنة)[2].

● وقيل: (تعلموا العلم، وتعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا لمن

(١) تاريخ بغداد (١٢ / ٣١٧).

(٢) حلية الأولياء (٦ / ٣٦١).

تتعلمون منه).

● وأوصى ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: (اعلم - يا أخي - وفقنا الله وإياك لمرضاته ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم، والاقتداء بما مدح الله به قول المتبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصف كريم)[١].

● وقال يزيد بن الكميت: (سمعت أبا حنيفة يقول، وقد ناظره رجل في مسألة وقال له: يا مبتدع يا زنديق! فقال: غفر الله لك! الله يعلم مني خلاف ما قلتَ، وهو يعلم أني ما عدلتُ به أحدًا منذ عرفته، ولا رجوت إلا عفوه، ولا خفت إلا عقابه. ثم بكى عند ذكر العقاب، فسقط صريعًا، ثم أفاق فقال له الرجل: اجعلني في حل. فقال: كل من قال ما ليس فيّ من أهل الجهل فهو في حل، وكل من قال شيئًا مما ليس فيّ من أهل العلم فهو في حرج؛ فإن غيبة العلماء تبقى شيئًا بعدهم، وأما أنا فقد جعلتك في حل. قال: فكانا بعد ذلك متواخيين حتى ماتا)[٢].

● وقال أبو سنان الأسدي: (إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس، متى يفلح!)[٣].

● وقال أحمد بن الأذرعي: (الوقيعة في أهل العلم، ولا سيما أكابرهم، من

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (٣٩).
(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري (٤٨، ٥٤).
(٣) ترتيب المدارك (٢ / ١٤).

كبائر الذنوب)[١].

وليس من الإنصافِ أنْ يَدفعَ الفتى ... يدَ النقصِ عنه بانتقاصِ الأفاضلِ

وإن ما يشاهد في العصور المتأخرة من بعض المنتسبين للعلم من الصغار، من بعض الآفات العلمية والسلوكية، هو نتيجة العلم بلا تربية، وهو شر مستطير، وقد قيل: (والعلم بلا تربية شر يستعاذ منه، وكل ما نحن فيه اليوم من شرور إنما هو بعض نتائج العلم المجرد من التربية).

والعلم وحده بلا تربية لا يصنع جيلًا ناجحًا، فإذا هذّب العلمُ الأخلاقَ، وقوّم السلوك، ونقّى السريرة، وطهّر السيرة، فهذا هو العلم النافع، فما قيمة العلم إذا كان يَهتك العلم بسلوكه وأخلاقه من حسد وبغي وغش، وسوء أدب، واستطالة على أهل العلم، وتقصير في الواجبات، وعدم تزكية النفس.

العلم بلا أدب كنار بلا حطب، والأدب بلا علم كروح بلا جسم.

● قال ابن سيرين: (كانوا يتعلمون الهَدي كما يتعلمون العلم) قال: (وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هَدْي القاسم وحاله)[٢].

يــا ســافكًا دمَ عــالمٍ متبحِّــرٍ ... قد طــارَ في أقصى الممالــكِ صيتُهُ

بــالله قل لي يــا ظلــومُ ولا تخف ... من كان يُحيــي الدينَ كيف تُميتهُ!

فالواجب أن يكون طلبة العلم أكمل الناس أدبًا، وأشد الخلق تواضعًا، وأعظمهم نزاهة وتدينًا، وأقلهم طيشًا وغضبًا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف

---

(١) الرد الوافر (١٩٧).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١ / ٧٩).

الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق العلماء، ومآثر الماضين، فيأخذون بأجملها وأحسنها، ويَصدِفون عن أرذلها وأدونها[١].

أدب النفس وسمّوها ومجاهدتها على ذلك أعظم وأشد من طلب العلم وبذله، لأن النفس تميل بطبعها إلى حظوظها وشهواتها وحريتها دون قيد ومغالبة، والأدب يزمّها ويزجرها.

فَعليْـك بـالأدب المُزيِّـنِ أَهْلَه   كيـما تَفـوزَ بِبَهْجـةٍ وثـوَابِ

ولله در ابن الوردي قائلاً:

فَالنَّـاسُ لَمْ يُؤَلِّفُـوا فِي الْعِلْـمِ   لِكَيْ يَـصِـيرُوا هَدَفاً لِلذَّمِّ

مَـا أَلَّفُـوا إِلاَّ ابْتِغَـاءَ الأَجْـرِ   وَالـدَّعَـوَاتِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ

لَكِنْ فَدَيْتُ جَسَـدًا بِلاَ حَسَـدْ   وَلاَ يُضِيعُ اللهُ حَقًّا لأَحَـدْ

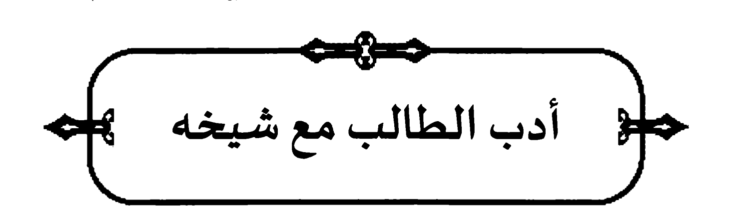
وَاللهِ عِنْـدَ قَـولِ كُلِّ قَائِـلِ   وَذُو الحِجَا مِنْ نَفسِهِ فِي شَاغِلِ

وَأَسـأَلُ اللهَ صَـلاَحَ الحَـالِ   لِيْ وَلَـكُـمْ وَالـفَـوزَ فِي المَآلِ

*****

---

(١) المصدر السابق بتصرف.



أدب الطالب مع شيخه

تعرّف على أهل العلم الثقات أصحاب المعتقد والمنهج والفكر السليم، وارتبط واستعن بهم في وضع خطة علمية، وارجع إليهم فيما يشكل عليك من المسائل وغيرها لتكون على بصيرة وعلم وهدى.

من حق الشيخ والأستاذ على الطالب:

أن يعرف للشيخ حقه ولا ينسى له فضله، وأن يعظم حرمته، وينشر علمه وفضائله، وأن يصبر على ما يجد منه، وألا يشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

والذب والدفاع عنه، والتثبت في النقل عنه وإليه، وإقالة عثراته وعدم نشرها، والإجلال والتقدير والوفاء والدعاء له، والفرح به، وزيارته وتعاهد حاجاته.

وتوديعه عند السفر والسلام عليه حين الرجوع، ومرافقته في سفره متى سنحت الفرصة في ذلك، وتعاهده إذا طالت غيبته.

من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، وأي مكافأة يَجزي بها الولد لوالده والطالب لشيخه! فمن علمني حرفًا صرت له ابنًا، وأخلصت له ودًّا، وازددت له برًّا.

وأن يتحرى رضا شيخه، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله بخدمته، ويعلم أن تواضعه له رفعة.

وإذا خاطب الطالب أستاذه خاطبه بما يليق، كقوله: (يا أستاذي، ويا

شيخي) ونحوها، ولا يستنكف من ندائه بذلك وإن علا كعبه وكثر علمه وكان في مجمع من الناس، ولا يخاطبه بلغة المفرد (قلت، وأنت) وإنما بلغة الجمع (قلتم وأنتم).

وأن يتأدب بآدابه، ويتخذه قدوة في كل خير، وأن يشكره؛ فإن شكره يجلب له المودة والعناية به، وأن يصبر على جفوة تصدر منه أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته.

وأن يتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار، وينسب الموجِب إليه ويجعل العتب عليه، فإن ذلك أبقى لمودة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته[١].

اصبر على مُرّ الجفا من معلّمٍ   فإنّ رسوبَ العلمِ[٢] في نَفراته

وأن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب بتواضع واحترام، ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه.

● قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنّته في الجواب، وألا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تفشينّ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته)[٣].

● وقال خلف: (جاءني أَحمد بن حنبل يسمع حديث أَبي عوانة، فاجتهدت

---

(١) الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية للأهدل.

(٢) رسوب العلم: حفظه وبقاؤه.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٢٥٥).بتصرف.

أن أرفعه فأبى وقال: لا أجلس إلا بين يديك، أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلم منه)[١].

● وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه، ولا يلح في السؤال إلحاحًا مضجرًا، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه، ويتلطف في سؤاله، ويحسن خطابه، ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقّ وجهه رقّ علمه، ومن رقّ وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال)[٢].

ومن أدب السؤال:

أن يسأل في مكان مناسب لا في سوق أو طريق ونحوه ، وأن يكون لبقًا مع أهل العلم، واضحًا في سؤاله، لا مُلغِزًا ومختبرًا ، متواضعًا لا مستكبرًا ، فإن العالم متى رأى ذلك من الطالب سيزيده علمًا ويبسط له الجواب بسطًا احترامًا له، وأن يبتعد عن السؤال المحرج بكل أنواعه، فليس ذلك من الشجاعة في شيء، وربما من السؤال الحسن في مجمع الطلبة أن يسأل عن شيء رغبة في إفادة الحاضرين تعليمًا وتنبيهًا واغتنامًا للوقت، وفتح باب المذاكرة في العلم، وليحرص على أهل العلم الذين يقبلون المناقشة والسؤال، ففي ذلك نفع كبير.

ومن آداب المتعلم:

أن يتحرى رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه، وأن يرد غيبته إذا سمعها، فإن عجز فارق ذلك المجلس، وألا يدخل عليه بغير إذن.

ولا ينبغي أن يظهر لشيخه المخالفة والفرح بذلك حين النقاش ويرى أنه

---

(١) مناقب الإمام أحمد (١/ ١٧).

(٢) المجموع للنووي (١/ ٦٨).

أعلم بالصواب من شيخه، فالحذر من سوء الأدب مع شيخه، بل يأخذ رأيه ببشر ظاهر، وإن لم يكن الشيخ مصيبًا لخطأ ونسيان ونحوه.

● قال ابن حجر عن شيخه الهيثمي: (وقد تتبعت أوهامه في كتابه «مجمع الزوائد» فبلغني أن ذلك شق عليه فتركته رعاية له)[١].

ما أجمله من أدب وأزكاه من سمو، وفقه له اجتهاده لمصلحة رآها ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع حب وأدب مع شيخه واحترام له، ولا يقال: كتَم الحق! لأن الحق قد يقوله غيره، ويقبل من غيره ما لا يقبل منه، والأصل التواصي على الحق والتعاون على البر، والمؤمنون وأهل العلم نَصَحَة.

وينبغي على الطالب:

أن يلزم حلقة شيخه في التدريس وجميع مجالسه إذا أمكن، فإنه لا يزيده إلا خيرًا وتحصيلًا وأدبًا، ولا يشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء، ويجتهد على مواظبته في خدمته والمسارعة إليها فإن ذلك يكسبه شرفًا وتبجيلًا[٢].

وينبغي على الطالب:

أن يكون شيخه في عينه محل رضا ومحبة وقناعة حتى يستفيد، وإلا فلن يستفيد.

● قال الشافعي عن شيخه محمد بن الحسن: (وكان يملأ القلب والعين)[٣].

---

(١) إنباء الغمر (٥/ ٢٦٠).
(٢) الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية (١٩٠).
(٣) طبقات الحنفية (٥٥).

وينبغي لطالب العلم:

ألا يشارك شيخه في حديث أو مسألة ويظهر له معرفته بها إلا بإذنه أو طلب منه.

● قال معاذ بن سعيد: (كنا عند عطاء بن أبي رباح، فتحدث رجل بحديث، فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله! ما هذه الأخلاق! ما هذه الأحلام! إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم منه، فأريهم من نفسي أني لا أحسن منه شيئًا)(١).

● وقال خالد بن صفوان: (إذا رأيت محدثًا يحدث حديثًا قد سمعته، أو يخبر خبرًا قد علمته، فلا تشاركه فيه، حرصًا على أن تعلم من حضرك أنك قد علمته، فإن ذلك خفة وسوء أدب)(٢).

انظروا إلى أدب السلف الصالح، رحمهم الله تعالى، مع علمائهم:

● قال موسى بن يسار: (كان رجاء بن حيوة وعدي بن عدي ومكحول في المسجد، فسأل رجل مكحولًا عن مسألة، فقال مكحول: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة)(٣).

● وقال عبيد الله بن عمر: (كان يحيى بن سعيد يحدثنا فيسيح علينا مثل اللؤلؤ، فإذا طلع ربيعة قطع يحيى حديثه إجلالًا لربيعة وإعظامًا له)(٤).

فـلا تشـارك في الحديـثِ أهلَه ... وإن عرفــتَ فرعَــه وأَصلَــه

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٣١٣).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٠٠).

(٣) تاريخ دمشق (١٨/ ١٠٣).

(٤) تاريخ دمشق (٦٤/ ٢٥٠).

وللأسف نجد في هذه الأزمان بعض طلاب العلم من يبادر في التصدي للحوادث والنوازل والمشكلات قبل العلماء والكبار، وفي حضرتهم حضرة حقيقية أو حكمية في المكان أو الزمان، ولا يراجعهم فيما يكتب ويحرر.

● وقال أبو عبدالله المعيطي: (رأيت أبا بكر بن عياش بمكة، فأتاه سفيان ابن عيينة، فبرك بين يديه، فجعل أبوبكر يقول له: يا سفيان كيف أنت؟ يا سفيان كيف عيال أبيك؟ فجاء رجل يسأل سفيان عن حديث، فقال سفيان: لا تسألني ما دام هذا الشيخ قاعدًا)[1].

● وذكر السبكي في طبقاته: (أن علاء الباجي الشافعي رآه ابن تيمية، فعظمه ولم يجر بين يديه بلفظة، فأخذ الشيخ علاء الدين يقول: تكلم نبحث معك. وابن تيمية يقول: مثلي لا يتكلم بين يديك، أنا وظيفتي الاستفادة منك)[2].

وينبغي على الطالب:

أن يخالط الشيخ مخالطة توقفه على محاسنه والتأثر به، واللجوء إليه بعد الله عند الشدائد ليجد عنده عونًا ورأيًا سديدًا وتثبيتًا ونصحًا رشيدًا وحكمة، ويشاوره في أموره ويتخذه أبًا له.

وإن تقلد الطالب شيئًا من مناصب الدنيا وحصّل علمًا كثيرًا، فليحذر من الاستنكاف والأنفة من التعامل مع الشيخ معاملة الطالب مع شيخه وأستاذه، فذلك لا ينقص من قدره وواجبه، بل يزيده علوًّا ورفعة وأجرًا، وعلى قدر نيتكم تؤجرون.

وأما بعد الوفاة فيزداد برًّا به وله، في نشر علمه وفضائله، والاستغفار

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩٩).
(٢) (١٠/ ٣٤٢).

والدعاء له والصدقة عنه، ومن البر أن يسعى له في صدقات جاريات، ويتعاهد أولاده بكل خير. وما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق والوفاء والإحسان.

ومن روائع الوفاء من التلميذ لشيخه بنشر علم شيخه:

● قال نصر بن علي الجهضمي: (لما أراد سيبويه أن يؤلف كتابه قال لأبي: تعال نُحْيِ علم الخليل)[(١)].

هذه كانت طريقة السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ مع أشياخهم وأساتذتهم.

واعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه وأقرب أهله إليه، ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**[(٢)]»[(٣)] فتفرسوا في وجوه القوم، وألقوا عليهم الشباك لكي يكونوا في الأمة نجباء قادة وعلماء أمة.

واحذر من التنكر لشيخك الذي طالما أفادك وعلّمك وأحسن إليك وأدبك، وكانت الهداية بعد الله على يده إلى سلوك طريق العلم ومعرفته وتفهمه والإعانة عليه.

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للإشبيلي (٧٥).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).
(٣) تذكرة السامع والمتكلم (٣٢).

فيـا عَجَبًـا لمـن رَبَّيـتُ طِفـلًا أُلقِّمُـهُ بأطْـرافِ الْبنـانِ
أُعَلِّـمُهُ الرِّمَـايةَ كُلَّ يَـومٍ فَلمَّـا اشـتَدَّ سَـاعِدُه رَمـانِي
وَكَـمْ عَلَّمْتُـهُ نَظْـمَ القَـوَافي فَلَـمَّـا قَـالَ قَافِيـةً هَجـانِي
أعلِّمـهُ الْفُتُـوَّةَ كُلَّ وَقْـتٍ فلـمَّا طـرَّ شـارِبُهُ جفـاني

وحاشاك ممن حاله هذه!

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

● ومما يذكر من التعظيم والبر أنه قيل لابن الصباح: (لماذا تعظم ابن غطاس على جهله؟ قال: لمكان أبيه؛ فإنه كان أستاذي)[1].

● وحكى ابن السمعاني: (أن قاضي بيهق ابن أبي حامد البيهقي بالغ في إكرامه جدًّا، فقال: خرجت إلى قصد أصبهان، فتركت القافلة وعرجت إلى خِسْرُوجَرْدَ مع رفيق لي راجلَين، فلما دخلنا دار الحسين سلمنا على أصحابه، وما التفت إلينا أحد، ثم خرج إلينا فاستقبلناه، فأقبل علينا وقال: لم جئتم؟ فقلنا: لنقرأ عليك جزأين من «معرفة الآثار» للبيهقي. فقال: لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبار وفاتكم هذا القدر! قلنا: بلى. وكان الجزآن لعبد الجبار، فقال: تكونون عندي الليلة؛ فإن لي مهمًّا، أريد أن أخرج إلى سبزوار، فإن ابني كتب إليّ أن ابن أستاذي خارج في هذه القافلة، فأريد أن أسلم عليه وأسأله أن يكون عندي أيامًا. وسمّاني، فتبسمت، فقال لي: تعرفه؟ فقلت: هو بين يديك. فقام ونزل وبكى، وكان يقبّل رجلي، ثم أخرج الكتب والأجزاء، ووهبني بعض أصوله، فكنت عنده ثلاثة أيام)[2].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٠/ ٥٩٦).
(٢) تاريخ الإسلام (١١/ ٦٥٢).

● ورش المقرئ من القراء السبعة، وهذا لقب لقبه به شيخه، فكان يُعجبه هذا الَّلقب ويقول: (أستاذي نافع سمّاني بِهِ)[1].

فكونوا - معشر طلاب العلم - ممن يتسابقون في البر بعلمائهم وأساتذتهم، وهو من خير ما يتنافس فيه المتنافسون من الطلاب مع شيخهم ووالدهم في العلم، ونورهم في الطريق إلى الله، فاحفظوا للعلم هيبته، وللعلماء مكانتهم في مجلس العلم ومجالس الدنيا وأنديتها.

وينبغي إن وقف الطالب على خطأ من شيخه وعيب وتقصير ألا يترك التعلم عنده؛ فربما له من العذر ما لا يعرفه، وهو بشر كسائر البشر.

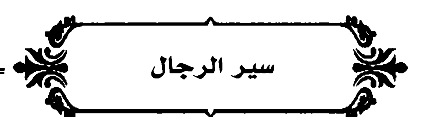
اعمَل بعلمي وإن قصَّرتُ في عملي ... يَنفَعكَ عِلمي وَلا يَضرُرْكَ تَقصيري
وانـظُر لنفسِـكَ فيما أَنـتَ فاعِلُهُ ... مِنَ الأُمورِ وَشَمِّر فَوقَ تَشميري

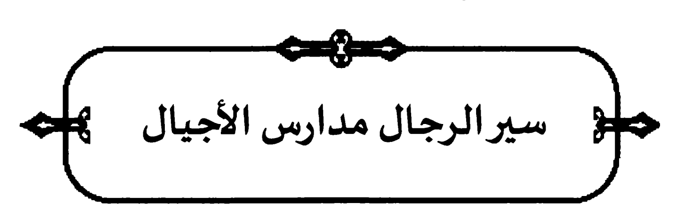
خُذْ من علومي ولا تنظرْ إلى عَملي ... واقصدْ بذلك وجهَ الواحدِ الباري
وإن مـررتَ بأشـجارٍ لهـا ثمرٌ ... فاجـنِ الثمارَ وخلِّ العـودَ للنارِ

*****

---

(١) تاريخ الإسلام (٣١/ ٥٢٣).





● قال طاووس: (من السنة أن يوقر العالم)[1].

● وقال عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي: (ما كان إنسان يجترئ على سعيد ابن المسيب، يسأله عن شيء، حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير)[2].

● وقال الزهري: (كان أبو سلمة يماري ابن عباس، فحُرم بذلك علمًا كثيرًا)[3].

● وقال أبو سلمة: (لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علمًا كثيرًا)[4].

● وقال الشافعي: (أَمنُّ الناس عليّ في الفقه محمد بن الحسن، ولم يزل عندي عظيمًا جليلًا)[5].

● وكان يختلف إلى الأعمش رجلان: أحدهما كان الحديث من شأنه، والآخر لم يكن الحديث من شأنه، فغضب الأعمش يومًا على الذي من شأنه الحديث، فقال الآخر: لو غضب عليَّ كما غضب عليك لم أعد إليه! فقال الأعمش: إذًا هو أحمق مثلك، يترك ما ينفعه لسوء خلقي![6].

● وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما صليتُ منذ مات شيخي حماد إلا استغفرتُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥١٩).
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٧٣).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥١٩).
(٤) المصدر السابق.
(٥) تاريخ بغداد (٢ / ١٧٣).
(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١٠٤).

له مع والدي، وإني لأَستغفر لمن تعلَّمت منه علمًا أو علَّمته علمًا)[١].

• وقال أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ: (إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوَيَّ)[٢].

• وقال ابن حمدون: (جاء الإمام مسلم إلى محمد بن إسماعيل البخاري فقبّل ما بين عينيه وقال: دعني أقبّل رجليك يا أستاذ الأستاذين ومسند المحدثين)[٣].

• وقال إبراهيم بن الأشعث: (رأيت سفيان بن عيينة يقبل يد الفضيل مرتين)[٤].

مسألة: حكم تقبيل يد الشيخ

هو جائز عند الحنفية - وقيل: سنة عندهم - ومستحب عند الشافعية، ومندوب عند المالكية، ومباح عند الحنابلة[٥].

مسألة: حكم تقبيل الرأس

هو من الإكرام والاحترام عند الحنفية، ويندب عند المالكية، ويباح عند الحنابلة[٦].

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٣٤).

(٢) نفس المصدر(١٣ / ٣٤٠).

(٣) طبقات الشافعية السبكي (٢/ ٢٢٣).

(٤) المصدر السابق (٧/ ٤٠٤).

(٥) حاشية ابن عابدين (٦/ ٣٨٣) والمجموع (٤ / ٦٣٦) والشرح الصغير(٤ / ٧٦١) وكشاف القناع (٢ / ١٥٧).

(٦) المصادر السابقة.

وقال الشيخ تقي الدين: تقبيل اليد لم يكونوا يعتادونه إلا قليلًا، وقال سليمان بن حرب: هي السجدة الصغرى. وأما ابتداء الإنسان بمد يده للناس ليقبلوها وقصده لذلك، فهذا ينهى عنه بلا نزاع، كائنًا من كان، بخلاف ما إذا كان المقبِّل هو المبتدئ بذلك (الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٥٩).

وربما اختلفت العادات في تقبيل اليد والرأس لأهل العلم، وفي أصله الاستحباب، لأنه من البر ومكارم الأخلاق، وكتقبيل يد ورأس الوالدين، ما لم يكن فيه خضوع وخنوع وركوع، وبعض المعاصرين يمنعه سدًّا لذريعة الغلو في العالم ومنع التشبه ببعض الغلاة، والأقرب الأول.

ولقد أدركت كبارًا من أهل العلم والقضاة يقبلون رؤوس مشايخهم أمام الناس وفي المحافل، فما استنكفوا ولا أنفوا ولا تحرجوا، وهكذا طالب العلم مهما يعلُ كعبه في العلم يبقَ طالبًا مجلًّا مقدمًا لشيخه وأستاذه في المجالس العامة والخاصة.

ولقد شاهدت من يقبّل رأس أخيه الأصغر منه سنًّا، لسابقته في العلم والدعوة إلى الله، ولاشك أن في فعل ذلك أمام الناس إظهار حب أهل العلم وتقديرهم والاعتزاز والاحتفاء بهم وتربية للطلبة وغيرهم.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا**»[١] أي: حقه.

ورحم الله ربيعة بن أبي عبدالرحمن إذ قال: (الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور أمَّهاتهم)[٢].

● قال تقي الدين: (وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، وتنهى عن الظلم والفواحش، ويعظمون أهل العلم والدين منهم)[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٧/ ٤١٦ رقم ٢٢٧٥٥) وحسنه الحافظ ابن كثير في جامع المسانيد والسنن (٤/ ٦١٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٣٨).

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز (١٠٥).

(٣) الجواب الصحيح (٦ / ١٢).

● قال عبد الله ابن الإمام أحمد: (رأيت كثيرًا من العلماء والفقهاء والمحدثين وبني هاشم وقريش والأنصار يقبلونه - يعني أباه - بعضهم يده، وبعضهم رأسه، ويعظمونه تعظيمًا لم أرهم يفعلون ذلك بأحد من الفقهاء غيره، لم أره يشتهي أن يفعل ذلك)[١] تواضعًا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

● ولما بلغ الثوريَّ مقدم الأوزاعي خرج لاستقباله فرحًا به ومجلًّا له، حتى لقيه بذي طُوًى، موضع بمكة، وكان إذا مرَّ بجماعة قال: الطريق للشيخ[٢].

● وقال الطوفي: (إذا رأيتُ فائدة مستغربة، أو حل أمر مشكل، أقرأ لمصنف الكتاب شيئًا من القرآن وأجعل له ثوابه، على مذهبنا في ذلك، وإن كان المصنِّف ممن لا يعتقد وصوله)[٣].

● وقال الإمام أحمد بن حنبل عن نفسه: (هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي - يعني معظم فقهي وعلمي جعله الله سببًا فيهما - ما بتُّ مدة أربعين سنة إلا وأدعو الله للشافعي)[٤].

● ولكثرة دعائه للشافعي قال له ابنه: (أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال له: يا بنيّ، كان الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فهل لهذين من خلَف، أو منهما عِوض!)[٥].

---

(١) الآداب الشرعية (٢ / ٢٤٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٢).

(٣) شرح مختصر الروضة الطوفي (١ / ١٠٩). وهذه المسألة محل خلاف بين الفقهاء بين مجيز ومانع، والراجح المنع لعدم الدليل، والعبادات توقيفية.

(٤) تاريخ دمشق (٥١/ ٣٤٦).

(٥) سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٥٢).

فانظر إلى هذا الاعتراف بالجميل والبر والوفاء!

وَفِيُّ العَهْـدِ ذُو كـرمٍ وصـدقٍ شَـمائِلُهُ السَّـماحَةُ والوفـاءُ

● وقال القاضي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: (ما تركت الدعاء لأبي حنيفة مع أبويّ منذ أربعين سنة، من لم يعرف حقًّا لأستاذ لم يفلح)[1].

● وقال إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان: (غاب أبي غيبة في سفر له ثم قدم، فقلت له: يا أبت، إلى أي شيء كنت أشوق؟ قال، وأنا أرى أنه يقول: إلى ابني. فقال: إلى أبي حنيفة، ولو أمكنني ألا أرفع طرفي عنه فعلت)[2].

● وقال ابن الديبع معترفًا بالفضل لشيخه ابن الشرجي: (وهو الذي تعلمت منه صنعة التأليف والتصنيف، والترصيف والتصفيف)[3].

● وكان أبوحنيفة يضرب به المثل في برّه بوالديه وتعظيمه لشيخه حمّاد، ومن شدة حبه لشيخه سمى ولده بشيخه حماد، وابنُه من الفقهاء[4] حتى قيل فيه:

نعـمانُ كان أبـرَّ النـاس كلِّهـم بوالديـه وبالأسـتاذِ حمّـادِ
مـا مدّ رجليـه يومًا نحـو منزله ودونَه سِـككٌ سـبعٌ كأطوادِ[5]

● وكان الشافعي يقول: (مالك معلّمي، وعنه أخذت العلم)[6].

---

(١) جامع القراءات للروذباري (١ / ٢٨٧).

(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٣٤).

(٣) النور السافر (٢٨٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٣).

(٥) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١ / ١١٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٦).

● وقال ابن وهب تلميذ مالك، معترفًا بفضله عليه: (لولا أني لقيت مالكًا لضللت)[١]. ما أعظمه من أدب وبر ووفاء وصلة!

فقد كان للعلم أثر في سلوكهم وأخلاقهم، وإن حصل خلاف علمي بين الشيخ وطالبه، فأبو يوسف صار إمامًا بعد شيخه أبي حنيفة، وخالفه، لكنه لم يتنكر له، بل مازال به وفيًّا نقيًّا حفيًّا، ومعه صادقًا بارًّا، وله داعيًا، حتى مات.

أما ما نشاهده اليوم مما يفعله بعض الطلبة لما اشتد عوده وخالف منهج شيخه وطريقته أو في بعض المسائل، صار لسانًا شريرًا عليه، وأعلن الحرب عليه تصريحًا أو تلميحًا بحجة الحق والصدع به! وآسفاه!

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وسعدٌ مُشْتَمِلْ ... ما هكَذَا تُورَدُ يا سَعْدُ الإِبِلْ[٢]

وللنصح والحوار آداب، ولكن الهوى في فلتات اللسان له دلائله.

سارتْ مشرّقةً وسرتُ مغربًا ... شتّان بين مشرّقٍ ومغرّب

جازيتموني بالوصالِ قطيعةً ... شتّانَ بين صنيعِكم وصنيعي

وهذا محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة قام خير قيام في نشر علم شيخه.

● قال الإمام النووي مفتخرًا وموفيًا لإمامه الشافعي: (وأرجو بما أذكره وأشيّعه من محاسن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأدعو له في كتابتي وغيرها من أحوالي، أن أكون موفيًا لحقه أو بعض حقه عليّ؛ لما وصلني من كلامه وعلمه وانتفعت به، وغير ذلك من وجوه إحسانه إليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وأكرم نزله ومثواه، وجمع بيني

(١) المصدر السابق.

(٢) البيت لمالك بن زيد مناة. انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٨٦) وصار مثلاً لمن يريد إدراك حاجته من غير استعداد لها.

وبينه مع أحبابنا في دار كرامته، ونفعني بانتسابي إليه وانتمائي إلى صحبته)[١].

يـا من يذكّـرني حديـثَ أَحبتي ... طابَ الحديـثُ بذكرهِم ويطيبُ

أعـدِ الحديـثَ عليّ مـن جنباته ... إنَّ الحديثَ عـن الحبيبِ حبيبُ

● وهذا ابن القيم النموذج الرائع والصورة المشرقة للطالب مع شيخه أدبًا وحبًّا وتأثرًا وتواضعًا ووفاء ودفاعًا وتضحية وبرًّا ودعاء واعترافًا بفضله، فمن ذلك قوله: (وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرِّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابًا في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها)[٢].

● وقال في «نونيته» عن شيخه ابن تيمية وقد سجن معه في سجن القلعة:

حتـى أتـاح لي الإلـهُ بفضلـهِ ... مَـن ليـس تُجزيه يَدي ولِسـاني

حَـبْرٌ أتى مـن أَرضِ حَـرّانَ فيا ... أهـلًا بمـن جاء مـنْ حـرانِ

فـاللهُ يَجزيـه الـذي هـو أهلُه ... من جنـةِ المأوى مـع الرضوانِ

أخذتْ يداهُ يَدي وسـارَ فَلَم يرمِ ... حتـى أَراني مطلـعَ الإيـمان[٣]

---

(١) المجموع (١ / ١٤).

(٢) الوابل الصيب (٧٠).

(٣) الكافية الشافية (ص ١٤٣).

● وجاء أحد طلاب العلم إلى أحد العلماء في عصره، وقد أصابه شيء من الهم والحزن واليأس مما يصيب الأمة في دينها، فتلا عليه الإمام قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠] يقول: فسكن القلب، واطمأنت النفس، وهدأت الروح، وانشرح الصدر إيمانًا بالله، وكأننا أول مرة نسمعها.

ما علّقَ العبدُ آمالًا بخالقهِ ... إلا رآها كضوءِ الصبحِ مُبتهجًا

يا طالب العلم: إنها نماذج مشرقة مضيئة للوفاء، وتعظيم حق الشيخ والمعلم من هؤلاء الأئمة الكبار، فسيروا على نهجهم تفلحوا وترشدوا، فحال بعض الطلبة اليوم مع شيخه وأستاذه مما يحزن القلب، من جفوة وعقوق، وعدم أداء الحقوق، ونسيان المعروف، وسوء الأدب في الرأي والسلوك.

● جاء في حاشية العدوي المالكي: (المطلوب ممن أراد قبول دعائه أن يبدأ بوالديه ثم بمن قرأ عليه، وكان بعض العلماء يبدأ بمعلميه قبل أبويه محتجًّا بأن المعلم تسبب له في الحياة الدائمة، ولكن الحق الأول، لأن الشرع دل على شرف الوالدين. أقول: ويقوي الثاني ما نقله النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» أن عاق المعلم لا تقبل توبته، بخلاف عاقّ الوالدين)[1].

● وجاء في الطبقات عن أبي سهل: (عقوق الوالدين يمحوها الاستغفار وعقوق الأستاذين لا يمحوها شيء)[2].

والبر نوعان مع العقوق ... فاسمعهما واعلمهما صديقي
البرِّ للآباءِ والشيوخِ ... كما أفادنا ذَوو الرسوخِ

(١) (١/ ٢٧٧). وقوله: عدم قبول توبة العاق، محل نظر، وهو على سبيل المبالغة.
(٢) طبقات الشافعية (٣/ ١٧١).

وبعضهم فضّل بِرّ العُلما لكون نفعهِم لنا تقدّما
حتى لقد قيل بأن لا توبةْ لمن يعقّ شيخَه أو أَوبه
وذاكَ واردٌ على المبالغة فيمن يعقّ شيخَه أو راوغَه
إنّ شيوخنا أحقُّ الناسِ بالشكرِ والوفَا بلا التباسِ
فحقُّهم يا صاحبي عظيمٌ وحظّهم من جمعنا التكريمُ
جزاهم الرحمنُ أفضلَ الجزا وما أردتُ نظمه قد نجَزا

ما أحْوجنا إلى هذه النماذج والقدوات لنهذِّب به الحال، فيظهر التميُّزُ في فعال الشباب والأجيال، وإنه من الضروري والواجب التعليمي وجود مقررات في آداب الطلب تدرّس في محاضن التربية والتعليم، ويبدأ أهل العلم وطلابه بتدريسها وشرحها في مجالسهم العامة والخاصة.

إن ملازمة الطالب لشيخه وأستاذه يكسبه العلم والأدب والحكمة، وبقدر الملازمة تكون الفائدة والأثر، فهؤلاء صحابة رسول الله كم بلغ تأثرهم برسول الله ﷺ وقد لازموه وصحبوه في حله وترحاله.

وهذا ابن عبدالهادي يلازم شيخه المزي عشر سنين، وابن حجر العسقلاني مع شيخه الحافظ العراقي عشر سنين، وابن الجوزي يلازم شيخه الإمام السلامي ثلاثين عامًا، وأبو حنيفة يلازم شيخه حمادًا عشرين عامًا، وابن القيم يلازم شيخه ابن تيمية عشرين عامًا، فكانوا أئمة في العلم والهدى كشيوخهم، وما كانت الملازمة إلا سببًا في ذلك، فغلبت محبتهم لعلمائهم وأساتذتهم وتوقيرهم.

انظر إن تحدثوا عن شيوخهم تجد أرواحهم تتكلم قبل ألسنتهم، محبة ووفاء وذكرًا حسنًا وثناء عاطرًا واعترافًا بالجميل، وكأني بهم وعيونهم تهراق دمعًا على

فراقهم ووفاتهم، ولسان حالهم:

إني لصفوِ الودِّ فيكم مضمِرُ ... وعلى محبتكم أَموتُ وأُحشرُ
وإذا تغيرَ كلُّ صاحبِ صُحبةٍ ... فأَنا الذي والله لا أَتغيرُ

وسئل أحد السلف عن فائدة مذاكرة السير فقال: إن الحكايات جند من جنود الله يثبت بها قلوب أوليائه. قال: وشاهده قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1] [هود: ١٢٠].

● يقول ابن الجوزي: (ومن لم يطّلع على أسرار سير السلف وحالهم لم يمكنه سلوك طريقهم، وينبغي أن يعلم أن الطبع لص، فإذا ترك مع أهل هذا الزمان سرق من طبائعهم فصار مثلهم، فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم)[2].

يقول أحد طلاب العلم: لازمت أهل العلم ثلاثين سنة في دروس ومحاضرات، فازددت قربًا من الله وعلمًا، وهديًا وأخلاقًا، وتواضعًا وحكمة، وفطنة وتجربة، ورحمة وشفقة بالخلق، فلازم الأكابر لتكن من الأكابر يا أولي العلم والبصائر.

اللهم ارض عن مشايخنا رضًا لا شقاء بعده، ومتعهم متاع الصالحين، واجعلهم في عليين، الأحياء منهم والميتين.



أبوّة العلم

وأبوة العلم والتعليم شعبة من الهَدي النبوي.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ**»[١] وفي رواية: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، أُعَلِّمُكُمْ**»[٢].

● وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الشافعي يقول: (من قرأ عليّ مسألة فهو ولدي)[٣].

وقد تبلغ منزلة الطالب عند شيخه أعظم من ابنه.

● قال مالك بن دينار: (أتينا أنسًا أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لأنتم أحب إليّ من عِدَة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار)[٤].

ووجدت هذا في بعض العلماء وطلبة العلم في عصرنا من ينزل طلابه منزلة أولاده، وربما قدمهم على أولاده تعظيمًا للعلم وأهله، وتربية لأولاده على ذلك وتحبيب العلم فيهم، ولأن النفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، ولأن المصلح أنفع من الصالح وأولى بالتقديم.

---

(١) رواه أبوداود (رقم ٨) والنسائي (رقم ٤٠) وصححه النووي في المجموع (٢/ ٩٥).
(٢) رواها ابن ماجه (رقم ٣١٣).
(٣) طبقات الشافعية (٤ / ٢٢٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥ / ٣٦٤).

وقد ترسخت معاني الأبوة العلمية في قلوب العلماء والأشياخ والطلاب، ومن ذلك ما كان يردده الإمام النووي في مواضع عدة من كتابه «المجموع»: (وهو أحد أجدادنا في سلسلة التفقه)[1] يقصد عثمان بن سعيد بن بشار الأنماطي وسفيان الثوري شيخ الإمام الشافعي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

● قال الإمام النووي، العالم البار بشيوخه: (فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب! مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم)[2].

ومتى استشعر الطالب تلك البنوة والأبوة نال من العلم والخير والأجر شيئًا كثيرًا.

ومثل ما تقدم يكون الشيخ والمعلم لطلابه، وتجد تلك المواقف والسير في كتاب «التواضع العلمي»[3].

والأستاذ في عين تلميذه وطالبه هو ضياؤه ونوره وقدوته ونبراسه وأبوه في الإفادة والتربية، ملء بصره وسمعه، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويتألم لفراقه، هو كالظل له، يعينه على بذل العلم ونشره والثبات على دينه، ينزله منزلة أبيه.

والطالب في عين أستاذه كالأب لابنه، يأخذه بالشفقة والرحمة والمدح والثناء والتشجيع تارة، وبالحزم والعزم والنصح والتقويم تارة، حتى لا يختل التوازن في التربية، يفرح لنجاحه وتقدمه العلمي وفطانته وثباته على دينه وإيمانه،

---

(١) المجموع (١ / ١٥٦، ١٥٩، ٣ / ٣٨، ٣٨٦). وانظر أبوة العلم.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٩).

(٣) قريبًا يصدر بإذن الله.

يفرح إن رآه خطيبًا مفوهًا، ومعلمًا متميزًا، وداعية مؤثرًا، ويشار إليه بالبنان كفرح الأب بابنه، ويحزن لما يصيبه من عوارض الدنيا وآفاتها، ويبلغ به الأسى حينما يتنكب الطريق ويصاب بالعثرات والزلات، أو يصبح ليس صاحب رسالة سامية وهدف منشود، وإنما كالدهماء من عامة الناس في أندية أهل الدنيا يرتع، ومنطقه منطقهم، وحاله حالهم، ليس للعلم أثر في حياته وتميزه وكلامه.

يتفقده إن غاب، ويعوده إذا مرض، ويفرح به إذا قدم عليه، ويرفق به إذا رأى منه خوفًا ودهشة، ويتودد للطالب الغريب إذا قدم حتى لا يستوحش، ويسعى في مصالح الطلبة والشفاعة لهم وجمع قلوبهم، ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال عند قدرته على ذلك، وتوفير الكتب لهم، ويسهل لهم العلم، ويفهمهم إياه بلاضجر، ويمدهم بالمشاريع العلمية، ويبذل النصح لهم فيما يكتبون.

● وما أجمل ما قيل في مسلم بن أحمد القرطبي (ت ٣٣٤): (كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق، يجتهد فى تبصيرهم ويتلطّف فى ذلك)[1].

● وقال ابن كثير عن كمال الدين الشاغوري الشافعي (ت ٢١٦): (كان يقرئ بالجامع الأموي الفقه، وشرح التنبيه للطلبة، ويتأنى في تفهيمهم حتى يفهموا احتسابًا)[2].

● واسمع ثالثة إلى البكري مع شيخه القرافي (ت ٤٨٦) في أجمل وصف وأبدع وفاء وبيان في العناية الفائقة بالإقبال عليه وتعليمه: (كان معتكفًا على

---

(١) إنباه الرواة (٣/ ١٦٢).

(٢) البداية والنهاية (١٧/ ٥٠).

التعليم على الدوام، فأحلَّني محلّ السواد من العين والروح من الجسد، فجلت معه في المنقول والمعقول)[١].

● وكان ابن حجر يمد طلابه بكتبه وغيرها ليكملوها مشاريع علمية.

ومن حق الشيخ على تلميذه أن يدله على العلماء وطلاب العلم ليتلقى عليهم ويشفع لهم عنده.

● وممن اشتهر بذلك الواقدي (ت ٢٠٧) يقول العقدي والزبير: (ما كان يدلنا ويفيدنا على الشيوخ إلا الواقدي)[٢].

● ويقول السخاوي: (إن شيخه ابن حجر كان يكتب إلى العز بن الفرات يرغبه في التحديث ويحثه عليه، ويؤكد عليه في الاهتمام بشأني، وبالله كلما تذكرت هذا وشبهه من إقباله علي وإحسانه إلي يتصدع قلبي، فإنا لله وإنا إليه راجعون! وكل هذا يسيرٌ بالنسبة لما أودعه الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه من النصح والرغبة في نشر العلم، ولذلك نشر الله ذكره في الآفاق، ورفعه إلى المحل الأعلى)[٣].

ما أعظمهم وأعظم الأنس بهم والحزن على فراقهم، صدقًا كانوا علماء صادقين ربانيين، جعلهم الله في عليين!

غابـوا وألحـاظُ أفـكاري تُمثِّلُهُم   لأنّهـم في ضميرِ القلـبِ قد نزلوا

وكن لبيبًا بالإشارة تفهم فيما يعرض ويلمح في التربية والسلوك والعتاب من الأستاذ لتلميذه، فربّ إشارة أبلغ من عبارة، ورُبّ تلميح أبلغ من تصريح.

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٣٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٥٤).

(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/ ١٠٢١).

كونوا لمن نَهَلتم من علمه وأخلاقه أوفياء بررة كما كانوا لكم، وقد بذلوا لكم نفيس أعمارهم وأوقاتهم، وضحوا من أجلكم بالكثير، وقدموكم على غيركم من القريب والبعيد، وخاصة أهلهم.

وإليك صورة رائعة جمالية من جميل الألفة بين الشيخ وطالبه.

● قال ابن النّطّاح: (كنت عند الخليل بن أحمد، فأقبل سيبويه، فقال: مرحبًا مرحبًا بزائر لا يُملّ. فقال أبو عمر المخزومي، وكان كثير المجالسة للخليل: ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه)[١].

يا سليل العلم: لا تضجر من النصح والتوجيه والعتاب من شيخك وأستاذك، فما كان دافعه إلا المحبة والنصح والشفقة، وإلا فما ضره تقصيرك وتغيرك! وإليك سموًّا في التواضع.

● قال الخُتَّلي: (رأيت شيخًا راكبًا بمنى، وشيخ يقوده وآخر يسوقه، وهما يقولان: أوسعوا للشيخ! فقلت: من الراكب؟ فقيل: الأوزاعي. قلت: من القائد؟ قال: سفيان الثوري. قلت: فالسائق؟ قال: مالك بن أنس)[٢].

وإليك ما يخفق له القلب: فهذا ابن غديان عالم الأصول والمقاصد وقبلتها يصلي بالناس، وخلفه الباز إمام من أئمة عصره، فيسبقه إلى باب المسجد، ويأخذ نعله وينفض الغبار عنها ويضعها بين قدمي الباز! فعليهم سوابغ الرحمة والغفران.

يقف القلم حائرًا عن الوصف والتعليق.

إنه سمو الطالب مع شيخه مهما علا كعبه.

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢/ ٣٥٢).

(٢) الكامل (١ / ١٧٤).

إنه درس لطلاب العلم في التواضع والخدمة.

إنه أثر العلم على الروح والأخلاق والنفس فيزكيها ويعلو بها في درجات السمو والأخلاق.

كن وسطًا فيما تقدم بين الغلو والجفوة والجفاء في علاقتك مع شيخك وأستاذك، فلا إفراط ولا تفريط، ولا ردود أفعال، فخير الأمور الوسط، وكن على منهج السلف، وفي فعل السلف ما يغني عن بعض أفعال الخلف، وقد تقدم موجزه ومختصره.

وفي الاعتدالِ للنفوسِ مخرجُ   فخُذْ به فنعمَ ذاكَ المنهجُ
وحاذرِ الإفراطَ والتفريطَ   فإنّ فيه للفتى تَوريطا

ومن عناية العلماء بطلابهم وحب الطلاب لعلمائهم زواجهم من بنات شيوخهم، وهذا كثير، ومن ذلك زواج ابن المسيب من ابنة أبي هريرة.

وزوّج السمرقندي ابنته للكاساني بعدما خطبها الملوك لجمالها، لكنه آثر العلم وأهله والبر بطلابه. وقد قيل: زوجه ابنته فشرح تحفته. قال ابن عابدين في حاشيته: (وكانت الفتوى تخرج من دارهم، وعليها خطها وخط أبيها وزوجها)[1].

وتزوج ابن كثير ابنة شيخه المزي.

وتزوج الهيثمي ابنة شيخه العراقي.

وفي ترجمة ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الفقهية: (أنه ألزمه شيخه

---

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ١٠٠).

الشناوي بالتزوج فقال: لا أملك شيئًا. فقال: هي ابنة أختي، والمهر من عندي. فزوجه بها)[١].

ما أعظمها من نفوس وأبرها! ونظر ثاقب لبناء أسر علمية ومجتمع صالح، فلم تنظر لغير ذلك مما هو واقع اليوم.

ومن جميل الوفاء والمحبة بين العالم وطلابه طلب اللقاء في الآخرة.

● قال الشاذلي في ترجمته لشيخه السيوطي: (وبلغني عن الشيخ أنه قال لطلبته قبيل موته: إن أذن لي في الشفاعة شفعت لأصحابي ودخلت بهم الجنة. قلت: انظر لمحبته لطلابه وشفقته عليهم وعنايته بهم رضي الله عنه)[٢].

● وروي مرفوعًا: «يبعث الله العالم والعابد، فيقال للعابد: ادخل الجنة. ويقال للعالم: اشفع للناس كما أحسنت أدبهم» قال شبل: يعني تعليمهم[٣].

● وكان شيخنا محمد الصالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قدّم أحد الطلبة نعاله إليه غضب وقال: أعدها مكانها! تواضعًا وإعزازًا ورفعة لطلاب العلم.

صور جمالية ناطقة بجمالها ومعبرة بذاتها عن روعتها.

اللهم اجمعنا في جنتك بمشايخنا وطلابنا ووالدينا وذرياتنا!

إنها معالم رائعة في حياة ومنهج العلماء مع طلابهم.

إنّ وراء هذه العناية المدهشة غايات نبيلة، وهي طلب مرضاة الله تعالى والفوز بجزيل نعمائه وكريم آلائه، وهذا أعظم الدوافع وأجل البواعث، وإذا

---

(١) الفتاوى الفقهية الكبرى (١/ ٤).

(٢) بهجة العابدين (٢٦٩).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٧١٧) وفيه ضعف.

تحقق ذلك للإنسان جاء بالعظائم.

وقد انطلق العلماء في عنايتهم هذه من أسس متينة، قام عليها هذا البناء الشامخ وثبتت أركانه وتعالت جدرانه، هذه الأسس هي عناية الشريعة بالعلم وأهله .

كتب في أدب الطلب والأخلاق والسلوك:

اقرأ كتبًا في أدب طلب العلم، فمن أساء الأدب ولم يتحلّ بآدابه فإنه يُحرَم خيرًا كثيرًا، ويخشى أن يكون سعيه هباءً منثورًا.

ومن الكتب المقترحة في ذلك:

أ- تعليم المتعلم، للزرنوجي الحنفي.

ب- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر المالكي.

ج- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الشافعي.

د- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي الشافعي.

هـ- مقدمة المجموع، للنووي الشافعي.

و- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلي.

ز- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم الحنبلي.

*****

ركائز التحصيل العلمي

اعلم - رحمك الله - أن لطلب العلم مناهج متنوّعة، وطرائق متعدّدة، تتفق في غاياتها، وتتنوّع في مسالكها، لتفاوت الطلاب في أوجه العناية العلمية، وفيما أنعم الله عليهم به من الملَكَات والقدرات، ولاختلاف الظروف المحيطة بكل إنسان، وتوفر أدوات العلم، فلا يُحصر طلب العلم في مسار واحد ولا طريقة بعينها، وقد سلك العلماء في طلبهم للعلم مسارات متنوعة، فوصل كل عالم إلى ما كتبه الله له من المنزلة في العلم بفضل الله تعالى ثمّ بسيره على طريقة صحيحة أوصلته إلى مطلوبه.

ومن تيسير الدين تيسير التفقّه فيه، فمن سار على طريقة صحيحة من طرق التعلّم المعتبرة عند العلماء وثبت عليها، فإنه يبلغ المنزلةَ التي يُعدّ بها من أهل العلم، ومن سار على الدرب وصل.

وتعدد مناهج الطلب وكثرتها واختلافها، واختلاط المناهج الصحيحة بغيرها، وكثرة المتكلمين في اقتراح مناهج الطلب بعلم وبغير علم، كلّ ذلك ممّا يقتضي من طالب العلم أن يتعرّف على الأصول التي يميز بها المناهج الصحيحة من الخاطئة، حتى يضبط مساره في التحصيل العلمي، ويحفظ وقته وجهده، ويتعرّف على معالم كلّ علم يَطلبه، فيأتيه من بابه ويتعلّمه على وجهه الصحيح، ويعرف سبيل التدرّج في طلبه.

والتحصيل العلمي لا يتمّ لطالب العلم إلا بأربع ركائز:

الركيزة الأولى: الإشراف العلمي من عالم أو طالب علم متمكّن يأخذ بيده في مسالك الطلب، ويقوّمه، ويعرّفه جوانب الإجادة والتقصير لديه، حتى يسير بأمان في طريق طلب العلم إلى أن يعرف معالم العلوم التي يطلبها، وتتبيّن له مسالك أهل العلم في تحصيلها وتعليمها.

وكل من أراد أن يتعلَّم صنعة من الصنائع فلا بد له من أن يصحب أستاذًا فيها، يتعلَّم منه مبادئ تلك الصنعة، وأدواتها الأوّلية، ويرتّب له تعلّمها، ويدرّبه عليها، ويقوّمه إذا أخطأ، ولا يزال معه حتى يشتدَّ عوده في تلك الصنعة، ويكون من أهلها المعروفين بها.

لا بدّ من شيخٍ يُريكَ رُسومَها وإلا فَنُصُّ العِلْمِ عندكَ ضائعُ

وما نشاهده في هذه الأزمان من الإعراض عن التلقي على أهل العلم نتائجه وخيمة، وقد قيل: (من دخل في العلم وحده خرج وحده).

إذَا رُمْتَ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبِسُ العُلُومُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الحَكِيمِ

● وذكر الذهبي في ترجمة ابن رضوان (المتوفى: ٣٥٤هـ): (وكان كثير الرد على أرباب فنه، وعنده سفه في بحثه وتشنيع، ولم يكن له شيخ، بل أخذ من الكتب، وألف كتابًا أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين، وغلط في ذلك)[١].

وتناقل السلف كلمة عظيمة: (لا تأخذوا العلم عن صَحَفِيٍّ، ولا تأخذوا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٣).

القرآن من مُصْحَفِيٍّ) (لا يفتي الناس صَحَفِيٌّ، ولا يقرئهم مُصْحَفِيٌّ)[١].

وهذا الإشراف يُحتاج إليه في عامّة الصنائع التي تتعلّق بها مصالح الناس، من الطبّ والهندسة والنجارة والحدادة وغيرها، فمن رام تعلّم صنعة من تلك الصنائع وجد أنّه لا بدّ له من أستاذ بارعٍ يعلّمه ويشرف على تدرّجه في تعلّم تلك الصنعة، ومن استعجل التصدّر في تلك الصنعة، ولم يتعلّمها من أهلها على وجهها الصحيح، فسيكون في أدائه من الخلل والنقص ما يضرّ به من يتعامل معه ولا يثق به من يعرف حاله، وأرباب تلك الصنعة يحكمون عليه بأنّه مدّعٍ لها ليس من أهلها، وإن غرّ بعض البسطاء من الناس الذين لا تمييز لهم بين المتقن وغير المتقن في بعض الأمور.

وكذلك حال من تلبس بلباس أهل العلم وتحدث بلسانهم واستعمل شيئًا من أدواتهم، وهو لم يسلك سبيلهم في تحصيله ورعايته، فإنّه لا يعدّ من أهل العلم، وإنما هو جاهل متعالم لا يوثق به، ولا يأتمنه من يعرف حاله، بل ما أسهل ما يبين الامتحانُ كذبه وادعاءه.

والركيزة الثانية: التدرّج في الدراسة وتنظيم القراءة، فيبدأ بمختصر في كلّ علم يتعلّمه، ويدرسه بإتقان وضبط، على طريقة ميسّرة غير شاقّة، ويداوم على دراسته بعناية حتى يتمّه، ويراجع شيخه فيما يشكل عليه، حتى يكون إلمامه بذلك المختصر إلمامًا حسنًا، يمكنه البناء عليه، ثمّ ينتقل إلى دراسة كتاب أوسع منه، فيدرسه بتفصيل أوسع، فتتوسّع مداركه في العلم شيئًا فشيئًا، وينمو تحصيله العلمي بتوازن

---

(١) الجرح والتعديل (٢/ ٣١) الكفاية في علم الرواية (١/ ٦٢). والمعنى أن الذي يأخذ العلم من الكتب يقال له «الصَّحَفي» والذي يأخذ القرءان من المصحف يقال له «مصحفي».

محكم - بإذن الله - إلى أن يتمّ مرحلة التأسيس العلمي في ذلك العلم بإشراف شيخه وتوجيه، ثم ينظّم قراءته في كتب ذلك العلم حتى يكون على إلمام حسن بعامة ما كتب في أبوابه ومسائله، وسيأتي مزيد إيضاح لمراحل الطلب.

● قال ابن شهاب: (لا تكابر العلم؛ فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام)[1].

قال الله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وورد في صحيح البخاري: (الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)[2].

فليس من الصواب ما يشاهد من بعض أهل العلم اليوم ملقيًا ومتلقيًا إغراق الطالب بالخلاف وأدلته فوق حاجته وطاقته وتتبع الطالب للمجالس الكبيرة والشروح الطويلة، وما يشاهد من القفزات في طلب العلم ونشره نتيجته ضعف البناء العلمي، والاستعجال في العلم ونشره، والتصدر للفتوى والتأليف.

● واسمع إلى ابن بدران الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يشخص الواقع، يقول: (واعلم أن كثيرًا من الناس يقضون السنين الطوال في تعلم العلم، بل في علم واحد، ولا يحصلون منه على طائل، وربما قضَوا أعمارهم فيه ولم يرتقوا عن درجة المبتدئين، وإنما يكون ذلك لأحد أمرين:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٤٣١).
(٢) البخاري، كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل.

أحدهما: عدم الذكاء الفطري وانتفاء الإدراك التصوري. وهذا لا كلام لنا فيه ولا في علاجه.

والثاني: الجهل بطرق التعليم. وهذا قد وقع فيه غالب المعلّمين، فتراهم يأتي إليهم الطالب المبتدئ، فيشغلونه بالكلام على البسملة ثم على الحمدلة أيامًا، بل شهورًا، ليوهموه سعة مداركهم وغزارة علمهم، ثم إذا قدر له الخلاص من ذلك أخذوا يلقنونه متنًا أو شرحًا بحواشيه وحواشي حواشيه، ويحشرون له خلاف العلماء، ويشغلونه بكلام من رد على القائل وما أجيب به عن الرد)[١] .

والركيزة الثالثة: النهمة في التعلم. والنهمة في العلم معنى يلتئم من شدّة محبة العلم والحرص عليه، والولَع به والاجتهاد في طلبه، فتبقى نفس طالب العلم في تطلّع دائم للازدياد من العلم، لا تشبع منه، ولا تكفّ عن الفِكْرة فيه، حتى تشتغل به عن بعض محبوباتها ومرغوباتها الدنيوية.

وقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ**»[٢] وورد مرفوعًا[٣].

ومما يعين على تحصيل النهمة في العلم محبة العلم وأهله، واليقين بفضائله وفضائلهم، وسموّ النفس لنيل تلك الفضائل، ويغذّيها التفكر فيما ورد من النصوص في فضل العلم ومحبة الله تعالى له ولأهله الذين يطلبونه إيمانًا واحتسابًا، وما أعدّ الله لهم من الثواب الكريم والفضل العظيم، وتأمّل سير العلماء، وجميل آثارهم، وحسن أثر العلم عليهم.

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (٤٨٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١١٨).

(٣) رواه الحاكم (٣١٢) وغيره، وهو ضعيف.

وإذا حصّل الطالب النهمة في العلم كانت من أعظم الدوافع لطلبه، والانكباب عليه، والازدياد منه، والفرح بما يستفاد من فوائده وعوائده، والحرص على ضبطه وتقييده، ومن كان إقباله على العلم بنَهَم فإنَّه لا يشتغل عنه بشيء من العوائق والعلائق، بل هو كثير التفكر في العلم وضبط مسائله، وتعرّف ما خفي عليه منه، على كلّ حال من أحواله، ويعدّ لكل حال ما يناسبها من وسائل الطلب.

فلا يلبث بالمداومة على هذه النهمة حتى يحصّل علمًا غزيرًا، وتتسّع معرفته في ذلك العلم، وترسخ قدمه فيه، ويكون من أهله الخبيرين بمسائل الإجماع والخلاف فيه، وكتبه ومناهجها، وأحوال أئمته ومراتبهم، وطرائق تعلّمه وتعليمه، وكلما أشكل عليه شيء في ذلك العلم لم يقرّ له قرار حتى يروي غليله من معرفته وتفهّمه.

والنهمة تحمل صاحبها على مداومة استذكار العلم، وتقليب النظر في المسائل، واستثارة الأسئلة، والتفكّر في أجوبتها، وسؤال أشياخه عمّا لا يعرفه، فيعتني بأجوبتهم ويعقلها بقلبه، ويضبطها ضبطًا حسنًا، ويُعمل الفِكْرة في طريقة اهتدائهم لتلك الأجوبة، ويستفيد من طريقتهم في نظائر تلك الأمثلة.

وقد صحّ عن جماعة من السلف أنهم ذكروا عن أنفسهم أنهم حصّلوا العلم بلسانٍ سَؤُولٍ، وقَلبٍ عَقُول، وهذا من آثار النهمة في طلب العلم ودلائلها.

● قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان لي لسان سَؤول وقَلب عَقُول، وما نزلت آية إلا علمت فيم نزلت، وبم نزلت، وعلى من نزلت)[1].

● وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! قال: (ذاكم فتى الكهول، له لسان

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٦٧) والقضاء والقدر للبيهقي (٣٦٩).

سَؤُول، وقلب عَقُول)[١].

فمن جمع قلبًا يعي مسائل العلم ويعقلها، ولسانًا سَؤولًا يحسن استثارة الأسئلة التي تنفعه؛ فإنّه يحصّل علمًا غزيرًا مباركًا بإذن الله تعالى.

والركيزة الرابعة: الوقت الكافي. فلا بدّ للمتعلّم من الصبر على طلب العلم مدّة كافية من الزمن حتى يُحسن تعلّمه، ويتدرّج في مدارجه، ويسلك سبيل أهله، برفق وطمأنينة، وضبط وإتقان، وتفهّم وتفكّر، ومداومة على المذاكرة والمدارسة، حتى يبلغ فيه مبلغ أهل العلم. ومن اغترّ بذكائه وسرعة فهمه وأراد أن يحوز العلم في وقتٍ وجيزٍ مغالبةً ومكابرةً، تمنّع عليه العلم وتعزّز، واستعصى عليه تحصيله والانتفاع به.

وبيان سرّ ذلك أن في طريق الطلب مزالقَ وفتنًا، من لم يكن على بصيرة منها زلّت قدمه، واضطرب تحصيله، وانحرف مساره، فسلك بعض سبل أهل الأهواء أو انقطع ورجع، ولا سبيل إلى النجاة من تلك المزالق والفتن إلا باتّباع سبيل أهل العلم والإيمان، وتوثّق الطالب مما يتعلّمه، والسير في طريق الطلب مرحلةً مرحلةً، وإعطاء كلّ مرحلة حقّها من التزوّد والتمهّل، والتبصّر والتصبّر.

● قال الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ هذا العلم إن أخذته بالمكاثرة له غلبك، ولكنْ خُذْهُ مع الأيَّامِ والليالي أخذًا رفيقًا تظفرْ به)[٢].

● وقال معمر بن راشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من طلب الحديث جُملةً ذهب منه جملةً، إنما كنا نطلب حديثًا وحديثين)[٣].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (رقم ٢١٣٥٢) والحاكم (رقم ٦٢٩٨) قال الذهبي: إسناده منقطع.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي (١ / ٢٣٢).

(٣) المصدر السابق.

● وقد قيل : (فإنّ اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم مضلّة للفهم)[١].

والعجلة من أعظم الآفات التي تقطع على الطلاب مواصلة طريق الطلب؛ وتحول بينهم وبين التدرج في طلبه كما ينبغي، فيضيع عليهم من الوقت أضعاف ما أرادوا اختصاره. ولا يختصر طالب العلم طريقَ الطلب بأحسن من طلبه على وجهه الصحيح، ودراسته دراسة متقنة متأنّية، بتدرّج وترفّق تحت إشراف علمي من غير تعجل ولا مكاثرة. فمن وجد في نفسه عجَلة مذمومة فليبارد إلى معالجة أسبابها، وليتبصّر بطريقة أهل العلم في تحصيله، وصبرهم على سلوك سبيله[٢].

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أهمية البحث، وأن يكون من الأولويات الحاضرة في ذهنه بقوة، فالبحث هو روح العلم وقلبه النابض، فالمتعلم إذا بحث المسألة يأتي لشيخه ويناقشه في بحثه لتقويمه وحل مشكله، ليرتقي في سلم البحث والعلم والمعرفة والتحقيق .

● واسمع إلى نصيحة ابن الوزير قائلاً: (وطلب العلم متسهّل على ذكي القلب، صادق الرّغبة، خليّ البال من الأشغال، واجد الكتب المفيدة والشّيوخ المبرّزين، والكفاية فيما يحتاج إليه، ونحو ذلك ، وطلب العلم متعسّر على من فقد هذه الأمور كلّها، وبينهما في التسهّل والتّعسّر درجات غير منحصرة ومراتب غير منضبطة، وبين النّاس من التّفاوت ما لا يمكن ضبطه ولا يتهيّأ، وأين الثّريّا من الثّرى!)[٣].

---

(١) عيون الأخبار (٢ / ١٦٧).
(٢) معالم المنهج الصحيح لطلب العلم.
(٣) الروض الباسم (١/ ٧٩).

محاذير وتنبيهات

وبما تقدّم من البيان عن معالم المنهج الصحيح لطلب العلم، يتبيّن للطالب اللبيب بعض الآفات التي حُرم بسببها بعض الطلاب من مواصلة الطلب والانتفاع بالعلم، منها:

١- ما يقدح في صحّة النية وصلاح القصد، من طلب العلم رياء أو سمعة، أو لطلب العلوّ في الأرض، ومباهاة العلماء ومماراة السفهاء، والتصدّر به في المجالس، ولفت أنظار الناس إليه، وغير ذلك من القوادح التي تقدح في قصد صاحبها، فإنّها سبب لحرمان طالب العلم من الانتفاع بعلمه.

٢- العجلة في طلب العلم ودراسة مسائله، واستعجال الثمرة قبل أوانها.

ولترقَ شيئًا فشـيئًا صاعدًا درجًا ... من البنـاءِ رصينًا واحذرِ العجَلا
فكمْ عجولٍ كبَا من ضعفِ رؤيتِه ... وذي أناةٍ أصابَ الرشدَ والأَملا

٣- التذبذب في مناهج الطلب والعشوائية في الدراسة والقراءة، فتجده كل يوم في طريقة ومنهجية، تمضي عليه الأعوام وما حصل إلا اليسير من العلم وغير مؤصل، ولا تعدو كونها ثقافة.

٤- التوصيات الخاطئة من الطلاب المبتدئين ومن لم يُعرف بالخبرة في مناهج الطلب.

٥- الاستجابة للقواطع والشواغل عن طلب العلم، وهذه مصيبة العصر وفاقرته.

٦- العجب كبيرة من الكبائر[١] ومن أشد الآفات التي تعتري طالب العلم، خاصة في بداية طلب العلم، ولمن وهبه الله قوة في الحفظ والفهم والتبرز مبكرًا والتفوق على الأقران.

والعجب يهدم المحاسن، وآفة الألباب، وإعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله، ومن أعجب برأيه ذل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ولا ترى المعجب إلا طالبًا للرئاسة[٢].

المـــالُ آفتُـــه التبذيـــرُ والنهـــبُ والعلمُ آفتُه الإعجابُ والغضبُ

واحذر أن يتسرب إليك من العجب ما يتلف عليك قلبك، فقد روى عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: (الهلاك في شيئين: العجب والقنوط)[٣].

وثمرة الإعجاب:

- الاستبداد بالرأي وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضًا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارًا لهم[٤].

- ديدنه: (أنا وأنا) كما قال إبليس، ونتيجته في المجالس التقدم والترفع وطلب التصدر، وفي المحاورة الاستنكاف من أن يرد كلامه، وذلك مهلك في الدنيا والآخرة[٥].

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (١ / ١٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٥٦٩).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧ / ٢٩٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٥).

(٥) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٢ / ٢٣٦).

- نفور الناس منه مهما كان عنده من العلم والحفظ والفهم، فهي عقوبة عاجلة من الله له في الدنيا.

- ومن أعظم العقوبة للمعجب أنه يحجب عن التوفيق من الله تعالى، فلا شيء أسرع منه إلى الهلاك، والنفس تحتاج دومًا إلى معالجة ومحاسبة ومن غفل عنها هلك.

احـــذَرْ كمائِنَ نفسِـــكَ اللاَّتي متى خَرجتْ عليكَ كُسِرْتَ كسرَ مُهانِ
وإِذَا انتصرتَ لها فأنت كَمَنْ بَغَى طَفْيَ الدَّخَـــانِ بَمَوْقَـــدِ النِّيرانِ

٦- التصدر قبل التأهّل؛ فإنّه يفضي بصاحبه إلى التعالم، ويشغله عن إتقان التحصيل العلمي، وهو آفة في العلم والعمل، وقد قيل: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه.

● قال الشعبي: (العلم ثلاثة أشبار: فمن نال منه شبرًا شمخ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدًا)[1].

● وقال الماوردي: (ومما أنذرك به من حالي أنني صنفت في البيوع كتابًا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعًا بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابًا، فأطرقت مفكرًا وبحالي وحالهما معتبرًا، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب،

---

(١) أدب الدنيا والدين (٧٣).

وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا. فقالا: واهًا لك! وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه، فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه، فبقيت مرتبكًا، وبحالهما وحالي معتبرًا، وإني لعلى ما كنت عليه من المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس، وانخفض لها جناح العجب، توفيقًا مُنحته ورشدًا أُوتيته، وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن؛ فقديمًا نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما)[١].

● (وقال بعض الحكماء: من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك جهلًا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم، ولا ينبغي للرجل وإن صار في طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف)[٢].

ومن كان يهــوى أن يُرى متصدرًا ... ويَكره «لا أدري» أُصيبت مَقاتِله

واحذر التعالم وتفخيم الذات فهو من أسوأ الداء العلمي، وصاحبه يتسم بعدم النضج وسوء التقييم للذات.

التعالم آفة التعلُّم والإنصاف، والدَّافع للتسرع في تبنِي المواقف والأفكار قبل تمييزها وفحصها.

التعالم داء خطير وبلاء مستطير ابتليت به الأمة على تعاقب الأجيال، كم فتن طالب علم تعجّل ثمرة العلم والتصدر فاشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

المتعالم يظنُّ نفسَه بسبب كثرة المَديح المتكلَّف، والإطراء المبالَغ فيه، والثَّناء العَطِر، وكثرة إمطاره بالشُّكر، مقابل ما أَبدع وبما خطَّته أناملُه، أنَّه حقيقة صار عالمًا نحريرًا وباحثًا مبدعًا، وأنَّه فريد عصره وأوحد زمانِه، وأنَّه لا مثيل له ولا شبيه، وصدَّق هذا الوهمَ الكاذب والزَّعم البارد، ولبس رداءَ العِلم والمعرفة زورًا وبهتانًا، وهو لم يرَ يومًا بصيصَ علمٍ، وإنَّما هو ظلام جهلٍ أحاط نفسَه به سرعان ما يَنكشف ويزول لمعانُه الكاذِب عندما يُحاط بسورٍ له باب، ظاهِره الستر وباطِنه الفضيحة، أو عند أول اختبارٍ أليمٍ يليق به(١).

يقولــونَ هــذا عندنا غــيرُ جائزٍ ... ومن أنتمُ حتى يكــونَ لكُم عندُ

● ورد عن مالك قوله: (وجدت ربيعة يومًا يبكي فقيل له: ما الذي أبكاك؟ أمصيبة نزلت بك؟ فقال: لا، ولكن أبكاني أنه استفتي من لا علم له! وقال: لَبعضُ من يُفتي هاهنا أحق بالسجن من السارق)(٢).

واليوم تجد بعض طلاب العلم المبتدئ والقاضي المبتدئ، والذي بالأمس كان على مقاعد الدراسة، ولأجل نيله الشهادة العليا أصبح يتصدى للنوازل والردود والفتوى، ويجزم بحرمة هذا وحلّ هذا، ويصوّب هذا ويخطّئ هذا، وفي المجالس ومواقع التواصل يخالف ما عليه الفتوى وما استقر عليه العمل، غير مبال بما يترتب على مخالفته من المفاسد والطعن في الدين وأهل العلم ، وكل هذا في حضرة القمم الشمّاء من العلماء الأكابر، ولسان حاله أنا هنا، والإمام مالك يقول: (ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أنّي أهل لذلك)(٣).

---

(١) التعالم لمحمد فقهاء.

(٢) التمهيد (٣ / ٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٧٩).

كثر الجدل واللغط والقول على الله بغير علم في زماننا هذا الموحش فعاله، وأصبح كل متعالم ونصيف العلم يتكلم ويفتي في نوازل لو عرضت على أبي يوسف والخلال وابن حجر وابن القيم لعرضوها على مشايخهم، بعد أن كان في زمن يكتم عطسته في حضرة الأكابر، واليوم أصبح أشجع من عنترة وأبلغ من سحبان من خلال شيخه محرك البحث، وهي وسائل تعينك على العلم والمعرفة ولا تؤهلك للفتوى.

لأن الفتوى ليست معادلة رياضية، الفتوى هي مراعاة لعدة قضايا: النصوص الشرعية والقواعد الشرعية، وكلام أهل العلم، وواقع المستفتي ونحوها.

والفتوى أحيانًا تكون شبيهة ببعض الحالات المرضية وغيرها ، فلا يمكن التعامل معها بقواعد حرفية مهنية في الطب فقط.

وقد قيل: (والحقيقة أنَّنا قبل خمسين عامًا كنَّا نعرف مرضًا واحدًا يمكن علاجه، هو الجهل والأميَّة، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضًا جديدًا مستعصيًا هو «التعالم»).

يقرأُ شخص منهمُ كتابًا	وبعدَها تَرى له أَنيابًا
أو يحضرُ الواحدُ منهمْ دَورهْ	ثم يُثيرُ في الأنامِ ثَورهْ
مُغلّطًا مُستدركًا معْ جهلهِ	وهو أَضلُّ من حمارِ أهلهِ
ينتقدُ الفحولَ والأَئمه	وهو ضريرٌ سائرٌ في الظلمهْ

ويروى أن رجلًا قال لابن الأعرابي، أحد أئمة اللغة وفحولها: (إن شعر أبي العتاهية شعر ضعيف! فقال ابن الأعرابي: والله الضعيف عقلك!).

وهكذا يكون التأديب من العالم للتلميذ المتعالي ، لكي يجل الكبار ويعرف قدرهم، وقد أدركنا بعض مشايخنا دائمًا يكررون: جئنا لنتعلم الأدب قبل العلم!

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تأدبوا ثم تعلموا)[١].

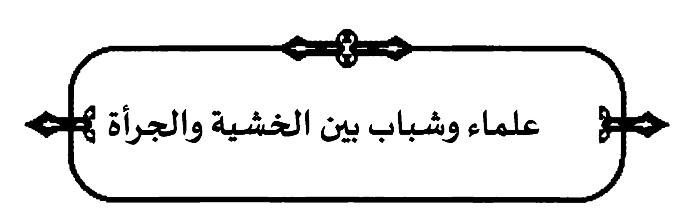
وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (اطلب الأدب؛ فإنه زيادة في العقل ودليل على المروءة)[٢].

*****

---

(١) غذاء الألباب (١/ ٣٦).

(٢) غذاء الألباب (١/ ٣٦).



علماء وشباب بين الخشية والجرأة

ولقد قرأت، وأدركت أناسًا شاخوا في العلم والمعرفة والتربية والسلوك يتوقفون ويحارون في بعض المسائل ليس جهلًا بها وبمداركها ومنزعها والأقوال فيها، لكن لتعارض الأدلة فيها، وخوفًا من أن يلقى الله أحدهم وقد أفتى بما لم يتبين له الصواب أو القريب من الصواب، فيتعذر عليهم الوقوف على راجحها ومرجوحها، ويدركون عبارة: «إن الدين يسر» لكنهم يدركون موقفًا عظيمًا بين يدي الله، وعظم المسؤولية وآثار الفتوى على الفرد والمجتمع، فكانوا كثيرًا ما يرددون: (لا أدري، تحتاج تأملًا، الله أعلم، راجعني بعد أيام) فإن أجاب حال الضيق والإلحاح والشدة قال: أستغفر الله من زللي وخطئي. أو قال: اسأل غيري.

● واسمع لعقبة بن مسلم يقول: (إن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سئل عن شيء فقال: «لا أدري» ثم أتبعها فقال: «أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسورًا في جهنم! أن تقولوا: أفتانا ابن عمر بهذا)[1].

معرفة العلم والأقوال بأدلتها كثير من يدركها، لكن الوقوف على الفتوى هو الأمر الجلل والعظيم.

● وبوّب البغدادي بقوله: باب ما جاء في الإحجام عن الجواب إذا خفي على المسؤول وجه الصواب (ولأن يعيش الرجل جاهلًا خير له من أن يفتي

---

(١) الزهد لابن المبارك (رقم ٥٢).

بما لا يعلم، ومن أنف من قول «لا أدري» فقد تكلف الكذب، والوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام على الهلكة)[١].

● (ولما سئل مالك إمام دار الهجرة عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بـ«لا أدري»)[٢].

هل كان ذلك من الإمام جهلًا بحكمها وعدم معرفة أقوال أهل العلم فيها، أم كان متوقفًا حيث لم يستبن الصواب فيها، أو لا يستطيع أن يفتح كتابًا فيرى كلام أهل العلم، أو لا يستطيع أن يُعمل القياس والنظائر فيها!

ما هو الخبر والجواب؟ - رحمكم الله - نبئوني وأخبروني. إنها موعظة بليغة ومؤثرة في زمن التسارع إلى الفتوى والجرأة عليها، وكلٌّ يرى أنه أهلًا للتصدر للفتوى وحليف الحق والصواب، ونقض أقوال من سبقوه في السر والعلن أمام القنوات العالمية، وتجهيلهم وتضليلهم والتعريض بهم، أي مصيبة تعاني منها الأمة اليوم كهذه المصيبة!

● يقول ابن وهب: (لو كتبنا عن مالك «لا أدري» لملأنا الألواح)[٣].

إنهم منحوا العلم جمالًا ومعنى ومغزى في جميل مبنى، فعليهم سوابغ الرحمة والغفران.

«لا أدري» كلمة ما أبردها على قلوبهم! وما أحرها وأشدها على قلوب الجاهلين وغير المتقين!

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

● قال الماوردي: (فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي إليها ولا حد يقف عنده، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يَضل ويُضل)[1].

● ورد عن معاوية بن أبي عياش الأنصاري أنه كان جالسًا مع عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر بن الخطاب، قال: فجاءهما محمد بن إياس بن البكير فقال: إن رجلًا من أهل البادية طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها، فماذا تريان؟ فقال ابن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فاذهب إلى ابن عباس وأبي هريرة فإني تركتهما عند عائشة، فسلهما ثم ائتنا فأخبرنا. فذهب فسألهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة! قال أبو هريرة: الواحدة تبينها، والثلاثة تحرمها حتى تنكح زوجا غيره. قال ابن عباس مثل ذلك)[2].

● وقال أبو إسحاق: (كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وإنه ليدخل يسأل عن الشيء، فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية الفتيا)[3].

ونجد في زماننا هذا بعض طلاب العلم من يفتي في الطلاق والدماء والفروج وعُقَد المعاملات المالية والمصرفية والنوازل في الأمة، وهو عنده أسهل من شرب الماء، ولسان حاله (نحن رجال وهم رجال، والدين للجميع).

تحميل النفس ما لا تطيق، فإنّ المنبتّ لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع. وهذا كله من أسباب الانقطاع عن طلب العلم على وجهه الصحيح، وحرمان بركة التعلم.

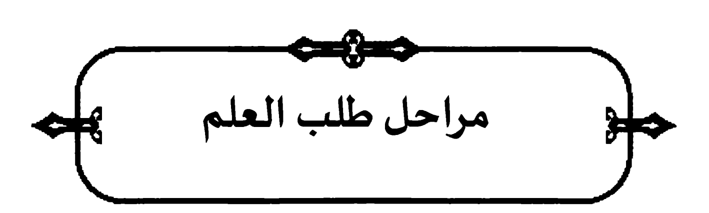
*****

---

(١) أدب الدنيا والدين (٧٤).

(٢) رواه مالك في الموطأ (رقم ١٦٣٠).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣٧).



مراحل طلب العلم

لطلب العلم عدة مراحل مهمة ينبغي لطالب العلم أن يكون حسن الاستعداد لكل مرحلة منها، ودرج أهل العلم عليها تعلمًا وتعليمًا وتأليفًا، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس في ذلك العلم.

بدراسة مختصر فيه تحت إشراف علمي، ثمّ التدرج في دراسته، وتنظيم قراءة كتبه الأوّلية إلى أن يجتاز درجة المبتدئين في ذلك العلم.

المرحلة الثانية: مرحلة البناء العلمي.

وفيها يكون التحصيل العلمي المنظّم، ويُحقّق التوازن والتكامل في تحصيل ذلك العلم، بعد اكتساب التأسيس فيه، وتكميل أدواته، والتمكن من بحث مسائله وتحريرها بمهارة عالية؛ فيجتهد في بناء أصل علميّ له - في ذلك العلم - يحسن كتابته بطريقة منظمة، ويداوم على مراجعته وتهذيبه والإضافة إليه، ليكون عُدّة له في ذلك العلم. ومن فرّط في بناء أصل علميّ له في العلم الذي يطلبه أضاع علمه، وعرّضه للتفلّت والنسيان.

ويمكن نجعل هذه المرحلة على عدة مراحل وهي:

مرحلة المتوسطين: وهو أن يأخذ في كل فن متنًا علميًّا أوسع من سابقه.

مرحلة المتقدمين: وهو أن يأخذ في كل فن كتابًا من الكتب المطولة التي تعتني بذكر الخلاف والأدلة والمناقشة والترجيح.

مرحلة **التخصص**: وهو أن يتخصص في الفن الذي يريد أن يكون متخصصًا فيه، كأن يتخصص في علم العقيدة أو الفقه أو الحديث أو علوم الآلة كأصول الفقه أو علوم الحديث ونحوها.

المرحلة الثالثة: مرحلة النشر العلمي، ويراد به تحصيل ما يمكّنه من الإفادة من علمه؛ بالتدرّب على البحث والتأليف، والإفتاء والتدريس، وإلقاء الكلمات، وكتابة الرسائل، وغير ذلك من أنواع النشر العلمي التي ينبغي أن يعتني طالب العلم بتحصيل أدواتها والتمهّر فيها ليُحسن الإفادة من علمه[1].

تدوين العلم:

ويحرص كل الحرص طالب العلم والعالم على تدوين ذلك بكل وسيلة متاحة حتى لا يندم على ضياع جهده وعلمه في عدم نشره، وحتى يكون له من العلم النافع الذي ينتفع به في حال حياته وبعد وفاته، وصدقة جارية، تجري حسناته عليه، فما خلّف أهل العلم بأفضل من العلم، وما خلّد الله ذكر أهل العلم إلا بعلمهم، وكم من أهل العلم ضاع علمهم بسبب التفريط في ذلك أو التواضع غير المحمود، وطلب الكمال وشبهه وغير ذلك من الأعذار المتوهمة.

ولا تحقرنّ من العلم شيئًا.

وفي تدريب الراوي: صنف ابن أبي ذئب موطأ أكبر من موطأ الإمام مالك، فقيل لمالك: ما الفائدة من تصنيفك؟ فقال: (ما كان لله يبقى).

وهذه الأربعون النووية عابرة القارات والتاريخ، وما هي إلا صفحات، والبركة من الله والصدق مع الله، فلا تحقرنّ من العلم شيئًا، والله يتولى كل ذلك.

(١) معالم المنهج الصحيح لطلب العلم.

وعلى طالب العلم أن يعرض مشاريعه العلمية وتحريراته على شيوخه وزملائه ليستنير بهم، ويدع العجلة في ذلك، والاعتداد بالرأي والزهو بالنفس؛ فإن ذلك مؤذن بالسقوط والانحراف والعرج في المسير، والتواضع كله خير، وفي حياة من سلف نبراس للخلف.

*****



رأس المال

رأس المال لدى العالم وطالب العلم كتبه ، أنفق أموالاً طائلة وربما طاف كثيراً من البلدان لجمعها، فلازم الأمر أخذ الحذر في الحفاظ عليها من كل ما ينقصها ويتلفها، وفي السير عبر، وإليك منها عظة وعبرة:

قال محمد بن الحسين بن الفضل: سمعت ابن الجعابي يقول: (دخلت الرقة، وكان لي ثم قمطرين كتب، فأنفذت غلامي إلى الذي عنده كتبي، فرجع مغمومًا وقال: ضاعت الكتب! فقلت: يا بني لا تغتم، فإن فيها مائتي ألف حديث لا يشكل عليّ حديث منها، لا إسنادًا ولا متنًا)[1].

وقال ابن الخفاف : (احترق مرة سوق باب الطاق، فاحترق من كتبي ألف وثمانون منّا، كلها سماعي)[2].

قال السخاوي في ترجمة ابن الملقن الشافعي: (احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره، ففقد أكثرها، وتغير حاله بعدها، فحجبه ولده إلى أن مات، وقبل احتراق كتبه كان مستقيم الذهن. قلت: وأنشده - أي ابن حجر - من نظمه مخاطبًا له[3]:

لا يُزعِجَنَّكَ يا سراج الدِّين أنْ ... لعبَت بكُتبِكَ أَلسنُ النِّيرانِ

---

(١) تاريخ الإسلام (٨ / ٨٤).

(٢) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٧) المَنّ: نوع من أنواع المكاييل والموازين.

(٣) الضوء اللامع (٦/ ١٠٥) ذيل الدرر الكامنة (١٢٢).

لله قـد قَرَّبتَهـا فَتُقُبِّلـتْ والنارُ مسرعةٌ إلى القُربانِ

ومما شوهد في الأزمنة المتأخرة من زهد ورثة العالم في كتبه بعد وفاته وبيعها بأبخس الأثمان ، فليحرص العالم وطالب العلم على كتابة وصية في مصير كتبه بعد وفاته .

إعارة الكتب:

ولعلي هنا أتحدث عن إعارة الكتب، والناس فيها طرفان ووسط؛ فمنهم من أغلق الباب تمامًا، ومنهم من لا يرد طالبًا لها وبدون ضوابط، ومنهم وسط بضوابط ومتابعة وتسجيل، وللسلف في هذا مواقف.

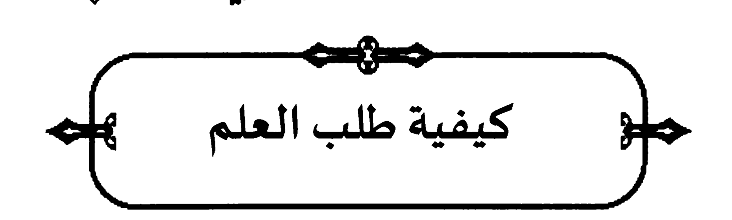
كان ابن حجر لايرد أحدًا يستعير منه، ويعين الطلبة في ذلك، وكان يقول للسخاوي: (لا تستعر من غيري. حتى ضاعت كتبه ووجدت تباع في الأسواق).

ويصف ابن البارزي بأنه كان سمحًا في عارية الكتب.

وقام عبد الحكيم الأفغاني الدمشقي بتوزيع كتبه على طلابه قبل وفاته. عليهم رحمة رب العالمين[1].

*****

(١) الجواهر والدرر (٣/ ١٠١٨) الضوء اللامع (٩/ ٢٣٨) تاريخ علماء دمشق (٢/ ٧٢٨).



كيفية طلب العلم

ضع خطة وبرنامجًا علميًّا من حفظ وقراءة وحضور مجالس العلم في فنون متنوعة ، وقد جرت العادة عند أهل العلم في طلب العلم البدء بتعلم العقيدة، ثم الفقه، ثم الحديث، ثم التفسير، ثم اللغة، ثم أصول الفقه، ثم مصطلح الحديث، والتقديم والتأخير في بعضها اجتهادي.

ومن كتب **العقيدة**: كتاب التوحيد من صحيح الإمام البخاري، كتاب الإيمان من صحيح الإمام مسلم، كتاب التوحيد لابن خزيمة، عقيدة السلف للإمام الصابوني،كتاب التوحيد للإمام المقريزي الشافعي، بيان عقيدة أهل السنة والجماعة للإمام الطحاوي، مقدمة ابن أبي زيد القيرواني المالكي، التوحيد لابن منده، الشريعة للآجري، إجماع السلف في الاعتقاد للكرماني، اعتقاد الإمام الشافعي للهكاري، الإبانة لابن بطة.

ومن كتب **التفسير**: تفسير الجلالين، ومختصر تفسير ابن كثير لأحمد شاكر، والمصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير للمباركفوري، وتفسير ابن سعدي، ومن أراد التوسع في المطولات: فكتفسير الطبري وابن كثير، وتفسير ابن عطية وابن جزي و القرطبي، وغيرها.

ومن كتب **الحديث**: الأربعون النووية مع شرحها لابن رجب أو لابن دقيق العيد والطوفي وغيرهم، ثم عمدة الأحكام للمقدسي، وعليها شروح، منها: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن الشافعي، والنكت على العمدة

في الأحكام للزركشي الشافعي، وتيسير العلام لابن بسام الحنبلي، وبلوغ المرام لابن حجر وغيرها، وعليها شروح متنوعة كسبل السلام للصنعاني، وأصله البدر التمام للمغربي.

وبعدها كتب السنة وشروحها: وأعظمها التمهيد والاستيعاب لابن عبد البر، وفتح الباري لابن حجر، وعمدة القاري للعيني الحنفي، وشرح النووي لصحيح مسلم.

أصول الفقه: الورقات للجويني، والتوسع بعدها، وكتب الأصول في المذاهب متنوعة.

القواعد الفقهية: الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي، والقواعد للمقري المالكي، والأشباه والنظائر للسبكي وللزركشي، والقواعد لابن رجب الحنبلي. وهذا من العلوم التي ينبغي الاعتناء بها لأهميتها.

أصول الحديث: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر، ثم التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي وغيرها.

أصول التفسير: مقدمات كتب التفسير تعتني بذلك، كالقرطبي ونحوه، والفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي، ومقدمة أصول التفسير لابن تيمية.

علوم القرآن: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان للسيوطي.

اللغة العربية: الآجرُومّية لابن آجرّوم، وعليها عدة شروح، والنحو الواضح لعلي الجارم.

وأما الفقه: فتختلف البلدان حسب مذاهبهم الفقهية، فكل يختار ما جرى

عليه علماء بلده في ذلك، وعليه أن يكون عنده علم بمذهب بلاده الفقهي.

ففي مذهب الحنفية يبدأ بـ«مختصر القُدُوري» وفي مذهب المالكية «متن الأخضري» وفي مذهب الشافعية «متن أبي شجاع» وفي مذهب الحنابلة «عمدة الفقه». وتختلف البلدان والأزمان فيما يبتدئ به طالب العلم في الفقه.

وفي الفرائض: الرحبية في علم الفرائض.

التربية والسلوك: الأدب المفرد للإمام البخاري، والشمائل المحمدية للترمذي، وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، والأذكار للنووي، والآداب الشرعية لابن مفلح، ومفتاح دار السعادة لابن القيم.

وعلى طالب العلم أن يعتني بحفظ المتون، مع الفهم الصحيح، فمن حفظ المتون حاز الفنون، وأتقن العلوم.

والناس في المذهبية طرفان ووسطان ، دعوة للمذهبية علمًا وعملًا، وتعصبًا وعدم الخروج عنها، ودعوة لنبذها واطِّراحها! وهي دعوة باطلة، ورأي يقول: إن المذهبية في التعليم والبناء المذهبي لا الفتوى والعمل. وهذا أضعفها، وهو فتح باب من الشرور، واتهام للعلماء والطعن فيهم وفي تقريراتهم بأن تآليفهم ليس للعمل بها، والأقرب أن يقال: إن الأصل العمل بها دون تعصب، لأن عليها أدلة وقواعد، والترجيح بين الأقوال أمر نسبي، ومتى استبان الحق لا تجوز مخالفته لأجل المذهبية، والمتفق عليه بين المذاهب كثير، ولا ينفك عالم عن كتب المذاهب، وما كان العلم إلا للعمل به في العبادات والمعاملات والقضاء والفتوى، وكتبهم تنطق بهذا، وهذا ما عليه عمل المسلمين، ولا عبرة للشاذ من

القول مهما كان قائله. وسيأتي الحديث عنها بإذن الله.

وينبغي على طالب العلم أن يقرأ ولو يسيرًا عن القضايا الفكرية والعقدية والشبهات حول الإسلام كقضايا الإلحاد والاحتجاج بالقدر، والتشكيك في السنة النبوية وإنكارها، وما يسمى بالقرآنيين، والقراءة في فقه النوازل والأقليات المسلمة[١] التي تمس الحاجة إلى معرفتها، وأن يعرف مبادئ التقاضي والفصل في الخصومات بين الناس حتى يستطيع أن يفصل بين المتنازعين، والناس تقصد طلاب العلم في ذلك في حقوق زوجية ومالية ونحوها.

واعلم: أن طرائق العلم ومراتبه وتخصصاته تختلف باختلاف الأشخاص وطبيعتهم وقدراتهم وأعمارهم وتفرغهم وحاجاتهم وحاجة الزمان والمكان، والوسائل المتاحة للعلم، فلا تلزم نفسك بغيرك وطريقته في ذلك، وإنما راعي ما تقدم ذكره في نفسك، واستفد من طرائق ومناهج غيرك، ولا تكثر التنقل فيضيع عليك عمرك ووقتك، ولا تنشغل بكثرة السؤال عن أفضل الطرق فيضيع عليك نفيس زمانك، وأكثر من ضاع عليه وقته بسبب الاضطراب في الطلب والتحصيل.

والمقصود تحصيل العلم بأي وسيلة وطريقة نافعة على الجادة، وضبط القليل من العلم خير من كثرة التنقل بين الكتب والحواشي والشروح، وفي الجملة كثير من العلم مكرر، وعدم المبالغة في الالتزام بطرق المتقدمين في المختصرات مع ما فيها من العسر والصعوبة والإلغاز، كما يقول ابن الجوزي وابن خلدون وغيرهم، والوسط مطلب، لا إفراط ولا تفريط[٢].

---

(١) الموسوعة الميسرة في فقه القضايا المعاصرة موجودة على شبكة الإنترنت.

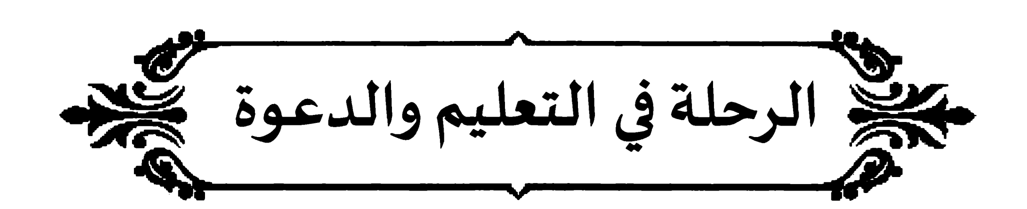
(٢) صيد الخاطر (٣٧٥) مقدمة ابن خلدون (٣/ ١٢٤٢) كشف الظنون (١/ ٤٤).

والعلم يحتاج إلى صبر ومصابرة في الحفظ والقراءة، وكد الذهن، والمراجعة، وحضور حلقات العلم، ولزوم العلماء، والانقطاع عن كثير من الناس واللقاءات واللهو وضياع الوقت، والغنم بالغرم، وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى، وابتناء المناقب باحتمال المتاعب، وإحراز الذكر الجميل بالسعي في الخطب الجليل، والصلاةُ خير من النوم، والتجلُّد خير من التبلُّد، والمنية خير من الدنية، ومن عَزَّ بَزَّ.

تَهـونُ عَلَينـا في المَعالي نُفوسُـنا ... وَمَن يخَطَبِ الحَسناءَ لَم يغلها المَهرُ

ومن يخطبِ الحسناءَ يَسخو بمهرها ... وطالبُ شـهدٍ لم تُخِفْه اللواسـعُ

*****



الرحلة في التعليم والدعوة

وصايا بعد العودة إلى البلدان

سفير العلم والدعوة:

أضع بين يديك هذه الوصايا والتوجيهات متفرقة ومتنوعة ومتناثرة، في الوعظ والتربية والتزكية، والعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والعمل الخيري، والإدارة والتخطيط، والتعامل مع الآخر حال الوفاق والخلاف، وفي الثبات على دين الله ووسائله، والتحذير من الآفات والعوائق والعقبات، ضمنتها شيئًا من النصوص والقواعد الشرعية وسيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسلف الأمة وجميل المنقول عنهم، وغير ذلك مما تجده بين يديك وناظريك.

وانظره بعين الرضا والعدل والإنصاف بعيدًا عن كل تصور يمنعك من ذلك، وما أعهدك إلا تقيًّا نقيًّا حكيمًا بصيرًا عدلًا منصفًا، وحاشاك من التبعية المذمومة وردود الأفعال التي تمنعك إعمال عقلك وبصرك وبصيرتك والعدل والإنصاف، وأحسب أني قد بذلت جهدي في جمع ما تراه، وأرجو أن يكون خاليًا مما فيه مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع الأمة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وما عداه فهو من مطارح الآراء وما تحتمله الأنظار، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد ولا تثريب، وندع احتكار الحق والحقيقة لأنفسنا، والله من وراء القصد.

على المرءِ أن يَسعى ويبذلَ جُهدَه ويقضي إلهُ الخلقِ ما كان قاضيا

وقبل أن أشرع في وصايا هذا القسم على كل واحد أن يضع هذا السؤال في

عقله ووجدانه وأمام ناظريه ويكتبه بل ينقشه على حائط مكتبته:

ما مشروعي إذا عدت إلى بلدي؟

كلما نظر إلى هذه الكلمة زادت همته في التحصيل العلمي بأنواعه، وارتقى في أفكاره في التطبيق العملي في مشاريعه وبرامجه، تحدّثه نفسه دومًا بالسمو والارتفاع والتحليق، تذكره هذه الكلمة بعظماء في التاريخ، ومن رحم الشعور بالمسؤولية تولد الهمم والعزائم والتضحيات.

*****

عظماء في التاريخ

وعلى رأسهم سيد الورى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد حمل مشروع الرسالة والنبوة، فكان مشروع عمره وحياته حتى لقي الله عَزَّوَجَلَّ هيأه الله بكل أنواع البناء قبل الرسالة أربعين عامًا، يتحنّث ويتعبّد بغار حراء والمسجد الحرام، ويبني نفسه بناء إيمانيًّا، ثم بعث بالرسالة والنبوة مدة ثلاثة وعشرين عامًا، يخطط وينظم، ويسهر ويجد، يهتم ويغتم، يذهب ويسافر، ويحزن ويبكي، تعرض لأنواع البلاء؛ فتنة المال والحصار والقتل والقتال والهجرة، كسرت رَباعيَتُه، ودَمِيَت قدماه حتى أغمي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يفق إلا بقرن الثعالب، تعرض للموت وأكل شاة مسمومة، وابتلي في عرضه من قبل المنافقين، جاهد وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ولسان حاله: **مشروع حياتي تبليغ دين الله حتى يبلغ مشرق الأرض ومغربها.**

وقد وعد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه وعودًا كثيرة، فمِنْ ذلك فتح اليمن والشام التي كان يسيطر عليها الروم، وفتح العراق التي كان يسيطر عليها الفرس، وهلاك كسرى وقيصر، وإنفاق كنوزهما في سبيل الله، وفتح مصر، ووعد بقتال خوز وكرمان، والترك، وفتح الهند والقسطنطينية، ووعد بركوب البحر وحثَّ عليه، وأنَّ الدين سيجاوز البحار، وسينتشر الرخاء ويفيض المال، ويعمُّ الأمن.

ومن بعد رسول الله صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم أئمة الإسلام.

- فهذا الإمام البخاري رحل في طلب وجمع الصحيح فكان مشروعًا من

مشاريع العمر، مكث في تأليفه ستة عشر عامًا.

● ومكث ابن حجر في شرح فتح الباري خمسة وعشرين عامًا، فكان مشروعًا عظيمًا أفنى عمره فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ولا هجرة بعد الفتح) ولم يكن مشروعًا لشرح صحيح البخاري بل مشروعًا لشرح السنة.

● وهذا ابن عبد البر المالكي المحقق الكبير مكث في تأليف التمهيد ثلاثين عامًا، وأنشد قائلًا:

سـميرُ فؤادي مُذْ ثلاثـين حَجّةً	وصيقـلُ ذهني والمفرّجُ عن همي
بسـطتُ لكـم فيـه كلامَ نبيّكم	بـما في معانيه من الفقـه والعلم
وفيـه مـن الآدابِ مـا يُهتدى به	إلى البرّ والتقوى ويَنْهَى عن الظلم[1]

● وهذا الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشاريعه عظيمة نافعة، صغيرها وكبيرها، من كتاب الأربعين النووية حتى كتاب المجموع شرح المهذب وكتاب شرح صحيح مسلم، وغيرهم كثير من العلماء.

● ومكث الزَّبيدي في تأليف تاج العروس أربع عشرة سنة.

● وكان الطبراني يقول عن المعجم الأوسط: (هذا الكتاب روحي)[2] لشدة تعبه فيه.

● وهذا الإمام السرخسي الحنفي صاحب «المبسوط» كان يلقيه على طلابه وهو محبوس في البئر، فكان مشروعًا كبيرًا بلغ ثلاثين مجلدًا، وقد قيل فيه: (أنه جمع فأوعى، وأحاط بالنوادر والأشباه والنظائر جنسًا ونوعًا).

---

(١) سير أعلام البلاء (١٣/ ٣٦٢).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٢٠٤).

● قال في كتابه: (هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات، مصليًا على سيد السادات محمد المبعوث بالرسالات وعلى أهله من المؤمنين والمؤمنات، تم كتاب المناسك، ولله المنة وله الحمد الدائم الذي لا يفنى أمده، ولا ينقضي عدده)(١).

● وقال اللكنوي علامة الهند: (وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأطلق، فخرج في آخر عمره إلى فرغانة، فأنزله الأمير حسن بمنزله، ووصل إليه الطلبة فأكمل الإملاء)(٢).

همم ما أسماها وأعظم شأنها، أخذت على نفسها حفظ الإسلام ونصرته، والثبات على دينه، ومقارعة الباطل وأهله في سبيل الله، لا سبيل نفسها والشيطان وحزبه.

● وهذا أحمد بن علي بن هبة الله الزوّال، جاء في ترجمته: (أنه قرأ اللغة والنحو على أبي منصور الجواليقي، وكتب الخط المليح، وولي القضاء، فلما تولى المستنجد حبس القضاة، وهو منهم؛ فأقام في الحبس إحدى عشرة سنة، فكتب فيه ثمانين مجلدًا، وشرح الفصيح، وجمع كتابًا سماه أسرار الحروف، ثم لما ولي المستضيء أفرج عن المحبوسين وأعاد عليهم مرتباتهم، والمتوفى سنة ست وثمانين وخمسمائة)(٣).

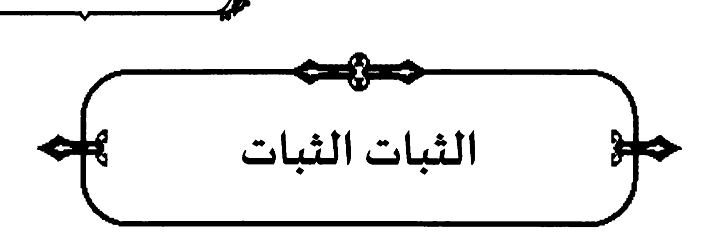
---

(١) المبسوط (٤ / ١٩٢).
(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (١٥٨).
(٣) بغية الوعاة (١/ ٣٤٩).

أَفْعَالُهم تُحيِي القلــوبَ وعندهُمْ هِمَـــمٌ قويَّـــاتٌ يُذِبْــنَ الجُلْمُــدَ
فهم الأُلى كَسَــوا العُلا أبهى الحُلا بِهِـــمْ تجلَّــتْ لؤلــؤًا وزَبَرْجَــدا

إن الصادق مع الله يبادر في عمل الخير ويبذل ما في وسعه ولا يعتذر ويتردد عند القدرة، قال الله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: ٤٤].

*****



الثبات الثبات

واعلموا: أن الثبات والاستمرارية والصبر سمة أهل الحق وبرهان على اليقين، والتقلب والاضطراب والإرجاف سمة أهل الباطل.

والثبات على دين الله ثبات لنفسك ولمن حولك ولمن يصله صوتك، ثباتك في كل موطن من مواطن الخير ثبات للآخرين.

ثباتك على منهج الله ومنهج رسول الله، والتمسك بشعائر الإسلام وسنة خير الأنام، من أقوى وسائل الدعوة إلى الله في زمن الفتن والغربة والفتور والضعف، وضغط الواقع والتنازل، والاحتجاج بالخلاف والتبرير، والتبديل لدين الله وشعائره.

ثباتك على نشر العلم والدعوة إلى الله في زمن العجز والانشغال بالملهيات، والركض وراء متع الدنيا وأوهام العوائق من أعظم التوفيق والتسديد.

ثباتك ثبات لغيرك وأنت لا تدري، تنزل الفتنة بأخيك فيرى ثباتك فيثبت لثباتك.

لعلّ عينًا ترمقك فترى مظاهر ثباتك وأنت لاتدري.

لعل قلبًا يتقوى بك وأنت لا تدري فثباتك ثبات لغيرك.

إن الفوز والمجد للقابض على دينه، والناهض بعد سقوطه، والمستبشر ساعة يأسه، والعامل بعلمه.

إن الفوز والمجد لمن كان التفاؤل ديدنه، والعلم والتعلم والدعوة والحكمة منهجه، والبركة حاضرة بأعماله.

إن من أعظم الخوف والحرمان والخذلان أن يحرم المرء من ثغور الإسلام والخير التي كان يومًا من أهلها، وأن يضعُفَ وهج سعيه ونوره في مراكب الإحسان التي كان يسارع ويسابق إليها، وأن يفقد صوت أثره في مكان قد كان يومًا من أركانه.

ولك في أنبياء الله ورسله العظام وصحبه الكرام وسلف الأمة وعلمائها خير مثال يحتذى ويقتدى، في الثبات على العبادة والأخلاق، والعلم والكتابة والتأليف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على الأذى فيه.

● فهذا بلال الحبشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المستضعف ثباته على الإيمان كان درسًا للأمة إلى يوم القيامة.

● وهذا أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثباته على كلمة الحق والوقوف أمام المرتدين والمبدلين لدين الله ثبات للعلماء إلى يوم الدين، رافعًا كلمة مازالت مدوية في أذن أهل العلم: (إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقص وأنا حي!)[1].

● ومثله الإمام أحمد إمام أهل السنة، قال علي بن المديني: (أيّد الله هذا الدين برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل في يوم المحنة)[2].

(١) جامع الأصول (٦٤٢٦) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١ / ١٠٥).
(٢) طبقات الحنابلة (١ / ١٣).

● يقول الرازي: (سمعت علي بن محمد المصري في جنازة ابن حبان - يثني عليه - وما هو بعجب، رجل منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة، لم ينحرف عن الطريق)[(١)].

إنها سير تزيد المؤمن ثباتًا، وتوقظ الغافل وتعيده لجادة الطريق وحسن المسير.

وإنَّ بيان العلم والدين عند الاشتباه والالتباس على الناس أفضل ما عُبد الله عَزَّوَجَلَّ به[(٢)]. ومن أفضل أنواع الجهاد تبليغ رسالة الله وإظهار حججه ودفع ما يعارضها.

والعلماء ورثة الأنبياء، وليس من نبي من الأنبياء إلا وله تاريخ من الشدائد والمحن، ومجاهدة في هداية الناس، ومراغمة للوجود الفاسد في العقيدة والأخلاق، ومكابدة التصحيح لحال الأمة؛ فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط.

انتكس أقوام تحت مطارق الشبهات، وافتُتن قوم تحت إغراء الشهوات، وتخصص آخرون في التسويغ لهؤلاء، فهلكوا وأهلكوا من حيث لايشعرون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ولا يزال المرء في فسحة من دينه، فإن أذنب تاب واستغفر، حتى يزين له الشيطان اقتراف الذنب بتسويغه وتبريره، وعلى فعل الحرام وتحليله، فيضل ويهلك والعياذ بالله.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٥).

(٢) الرد على السبكي في التعليق بالطلاق (٢ / ٦٧٨).

وأكثر الناس ثباتًا من جمع مع العلم العمل، وأسرعهم انتكاسة صاحب العلم بلا عمل، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

الثبات لا يكون بكثرة الاستماع إلى العلم والمواعظ وإنما يكون بالعمل بالعلم والمواعظ.

واحذر أن تنخدع بالمتكسين والمنقلبين وإن كثروا مهما، حاولوا تلميع وتبرير تغيرهم؛ من خلاف فقهي، ووسطية واعتدال، وانفتاح معتدل، وتغير الزمان، وحجج واهية، وجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم لتغيير من حولهم صراحة وتلميحًا، والقذف بالشبهات في القلوب، وتفكيك ذلك الصمود والثبات من القلوب، ودّ من تغير أن كل من حوله تغيروا وتنكبوا حتى لا ينفرد، ويكثر الأتباع فلا يبقى غريبًا في ذلك التغير والانفراد، ولا يزال بهم كإبليس حتى يخرجهم من الثبات والحق.

إن الباطل باطل ولو كثر أتباعه، والحق حق ولو قل أتباعه، وراية الحق قائمة وإن لم يرفعها أحد، وراية الباطل ساقطة وإن رفعها كل أحد، والحرام حرام وإن فعله كل الناس.

واعلم أن المخالف متى كان الهوى مركبه والعناد مطلبه فلن تفلح معه ولو خرجت اليد بيضاء والعصا حية، فدعه ولا تُضِع الحياة معه إلا من باب النصح وإقامة الحجة.

يا سالك طريق الحق: لا تستوحش من قلة السالكين، فما هو إلا التمحيص والاختبار، وسنة الله لا تتبدل، ليهلك من هلك ويسقط من سقط

وينجو من نجا ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وفي الفتن يستبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والمداري من المداهن، وصاحب الحق من الهوى، وصاحب السنة من البدعة.

أيها المسلم: إن أعطاك الله العلم فقرّبك وأدناك وأولاك من مولاك فهو نعمة، وإن أبعدك وأقصاك ونفاك فهو فتنة ونقمة ومحنة وأي فتنة، ونعوذ بالله من الحَور بعد الكَور، والعمى بعد الهدى.

أي شقاوة للنفس والوقت إن صُرفت لتزيين المعصية في عيون الخلق وتسهيل الذنوب على الناس.

يــاربّ ثبتّنــا عــلى الإيــمان   واهــدِ فــؤادَ التائــهِ الحــيران

انتكاسة الماضي بسبب ضعف الإيمان مع اعتراف بالذنب والخطأ والظلم والعصيان، وانتكاسة اليوم تحليل الحرام، والاعتداء على الحقوق والحكم بالباطل، وهوى النفس، والفجور في الخصومات، والتهاجر والقطيعة، والعبث بنصوص الشريعة باسم الخلاف، ومخادعة النفس بالتبرير دون تأنيب للضمير والوجدان، نعوذ بالله من الهوى والخذلان.

إن للهوى قوة في التأثير على النفس والآخر في مجانبة الحق والعدل وتركه والاستدلال والتبرير له والصراع عليه، حتى يظن الظان أنه الحق والعدل، لذا وردت النصوص في الكتاب والسنة في التحذير من اتباع الهوى، وورد التحذير لصفوة الخلق، وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من اتباع الهوى، قال الله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

ففروا إلى الله، ومن أقبل على الله أقبل الله عليه بهدايته، ومحبته، ورحمته، وتسديده، وتأييده، ففروا إلى الله، ليثبتكم، ويرزقكم، ويحفظكم، ويسعدكم، ويتوب عليكم، ويغفر لكم، وهو الغفور الرحيم، العليم بذات الصدور، ومن أعرض عن الله ودينه وسنة نبيه أعرض الله عنه، فكان في تيه، وضيق، وضنك، وحسرات، ومصائب، وويلات، قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

يقولـونَ لـيْ ما بـالُ قلبِـكَ واثقًا ... وحولكَ أمواجُ المصائبِ تعصِفُ؟
فقلتُ لهُم إنّيْ اعتصمْتُ بخالقي ... فمن أيّ شـيءٍ يا تُـرى أتخوَّفُ؟

إن الحق أبلج مشرق، يسطع بنوره، ثابت لا يتزعزع، لأن الحقيقة باقية خالدة، والباطل واضح مظلم، عاقبته الزوال والاضمحلال، قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

سفير العلم والدعوة: ليكن لسان حالك وفعالك كما يقول الإبراهيمي: (قبّح الله خبزة أبيع بها ديني، وأعقّ بها سلفي، وأهين بها نفسي، وأهدم بها شرفي، وأكون بها حجّة على قومي وتاريخي، ولكن أين من يعقل أو من يعي!)[1].

احذر أن تتعلق بالدنيا وأهلها وتمد عينيك إلى أهلها وزخرفها والإقبال عليهم، وقد قال الله لنبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) آثار الإبراهيمي (٣/ ١٥٦).

لا ترهق نفسك بالمقارنات مع الآخرين، فكلما اتسعت عيناك ضاق صدرك. إن ذلك النظر وتلك المخالطة لربما أحزنت القلب وعلقته بالدنيا، وأوجدت التنازل والضعف في دين الله، وهذا من المشاهد الذي لا تنكره الأعين، وقد قال الله لنبيه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

واحذر أن تشتري دنياك بدينك، وتكون محل تندر وسخرية وسقوط عند أهل الدنيا، فضلاً عن أهل العلم، فاحفظ هيبة العلم ومكانة العلماء.

● عن بشير بن صالح قال: (دخل ابن محيريز حانوتًا بدانق، وهو يريد أن يشتري ثوبًا، فقال رجل لصاحب الحانوت: هذا ابن محيريز، فأحسن بيعه. فغضب ابن محيريز وخرج وقال: إنا نشتري بأموالنا ولسنا نشتري بديننا)[1].

فطالب العلم صفاء ونقاء، وطهر وعفاف، ونزاهة وصدق، فلا يخدش ولا يدنس، كالثوب الأبيض، نقطة واحدة سوداء تزهد فيه وتقبح منظره.

*****

(١) شعب الإيمان (٤/ ٢٣٣).

الصراع بين الحق والباطل

إن هناك ساعة حرجة يبلغ الباطل فيها ذروة قوته ويبلغ الحق فيها أقصى محنته، والثبات في هذه الساعة الشديدة هو نقطة التحول، والباطل يكرر ادعاءاته بأشكال مختلفة، ولكن ليس فيه مضمون جديد، والحق مزعج للذين اعتادوا ترويج الباطل، حتى صدقوه، ونصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف، ومن طلب الحق قرب من الله، ومن طلب الباطل لم يصب.

الحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل.

الباطل ثعلب ماكر، ولولا نصرة الله للحق لما انتصر على الباطل، وإن من المُدهش أن مظاهر الباطل أقدر في الإقناعِ أحيانًا من مظاهر الحق، و الحق لا يشبه الباطل وإنما يموه بالباطل عند من لا فهم له.

إن المصيبة كل المصيبة ليست يوم أن يتغلب الباطل على الحق، فهذه سنة كونية، وإنما يوم أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلال.

واعلم أنه في المعركة بين الحق والباطل لن تحاسب على نتيجة من المنتصر، لكنك ستحاسب مع أي الفريقين كنت، ومن نصرت؟ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠] ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

هذا وعد الله، فلا تتداخل في قلبك أفكار وآراء غير هذا الوعد وهذه الحقيقة. العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين والغلبة لعباده الموحدين ورثة الأنبياء والمرسلين، وعد الله حقًّا.

الحذر كل الحذر من سماع شقشة أهل الباطل.

قال الذهبي في ترجمة ابن الراوندي: (وكان يلازم الرافضة والملاحدة، فإذا عوتب قال: إنما أريد أن أعرف أقوالهم! ثم إنه كاشف وناظر، وأبرز الشبه والشكوك. لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضي الله عن البلادة مع التقوى)[1].

*****

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٩، ٦٢).



دعوة للتأمل

وتأمل بقلبك وعقلك وسمعك وبصرك هذه الآية العظيمة التي تهز الوجدان وتدمع العينين وتخيف الجنان، قال الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

إن من أعظم ما تُواجِهُ به الأمةُ اليوم أسبابَ الانحراف والتيه الذي يعيشه بعض أفرادها:

الرجوعَ إلى الله والتمسكَ بالدين والاعتزاز به الذي لافلاح ولا عز ولانصر إلا به.

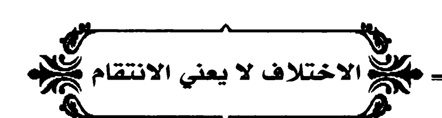
العيش مع القرآن قراءة وتفكرًا وتدبرًا وتفسيرًا، ونشر هذا الوعي في نفوسنا ونفوس الأمة والتواصي به.

الارتباط بأهداف سامية، والاستجابة للنصح والناصحين بدون مكابرة.

الالتفاف حول الأسرة رعاية وعناية بالعقيدة والتربية والفكر وما تقدم.

وسبب الانحراف والتيه الذي يخشى أن ينتشر في الأمة وأجيالها القادمة، وبضدها تتبين الأشياء، وأعظمها: الاستقلال الشخصي الموهوم، ومعارضة الشرع بالعقل، والحرية المزعومة التي أفسدت كثيرًا من العقول والقلوب والفطرة وغيرت الثوابت، فقلبت الحق باطلًا والباطل حقًّا.

*****



الاختلاف لا يعني الانتقام

والحذر الحذر من أن تخالف إخوانك، فتخذلهم وتفرق جمعهم وكلمتهم بأفعال وأقوال وفتاوى شاذة تخالف الكتاب والسنة وفهم السلف والمنهج الصحيح، وفي المخالفة مفسدة وتشويش وتشكيك في صفوف العامة وغيرهم، وطريق لأهل الأهواء لاستغلال تلك المخالفة لضلالهم وبدعتهم وانحرافهم، فلا تجعل من خلافك معهم في بعض المواقف سبيلًا إلى ذلك وعداء وشقاقًا وأحزابًا وأشتاتًا وشماتة من أهل السوء في أهل العلم والحق والدعوة.

ولا يضلنّك ولا يغرنّك الشيطان فيزين لك السوء خيرًا ويلبسه لبسة الحق، والسكوت خير وإن ظهر لك شيء من الحق، فالاجتماع مصلحته أعظم، والنصيحة بابها مفتوح بالحكمة لا التشهير، ولا يكن في سجل تاريخك يومًا أن كنت سببًا في تفرقة المسلمين، خاصة المسلمين وأهل الفضل من طلاب العلم والدعاة، وإذكاء التناحر بينهم وزرع الفتنة والشقاق وإضعاف العمل الخيري بكل أنواعه، وربما إيقافه، وإلحاق الأذى بإخوانك بالوشاية واللمز والتهم والتعريض ونحوها، فإن الإنسانية والأخلاق والمروءة والعلم تأبى ذلك، وأعيذك وحاشاك كل ذلك، والله حسيب على كل نفس.

لقد نجح الشيطان في تفريق قلوبنا وشق صفوفنا، ووصل إلى أعماقنا ودواخلنا وزرع فيها الضغائن والأحقاد والكراهية والحسد، فصرنا نختلف على أبسط الأشياء، ويهجر بعضنا بعضًا على مسائل الاجتهاد، فضلًا عن التناحر

والاقتتال، ولكنه رجس الشيطان وخبثه.

وصدق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(١).

لنجتمع على كلمة سواء ونشتغل بالأهم فالأهم، وإذا لم نستطع أن نوحد القلوب ونرصّ الصفوف فلا نكون على الأقل سببًا في شتاتها واختلافها وشق صفها.

الاختلاف لا يكون طريقًا للانتقام وتصفية الحسابات، والسعي في قطع الأرزاق، والإضرار بالآخرين وإسقاطهم وتشويه سمعتهم في المجالس ووسائل التواصل، واستعداء الآخر عليهم من عدو و ظالم ونحوه.

الاختلاف لا يكون طريقًا للتشفي والفرح بالابتلاء ونصرة الظالم على المظلوم.

الاختلاف لا يكون طريقًا للسكوت عن نصرة المظلوم والذب عن عرضه.

الاختلاف لا يعني عدم الدعاء للمظلوم، وعدم بذل واجب الأخوة الإيمانية والتعامل بالأخلاق الإسلامية.

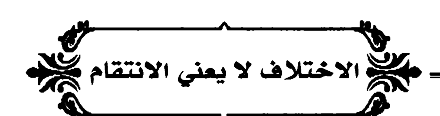
أُخرج صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بلده وأوذي واتهم بالسحر وكسرت رباعيته، ولما دخل مكة منتصرًا قال: (ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم ابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)(٢).

والخلاف في كفر وإسلام، وشرك وتوحيد، ليس خلافًا في واجب أو شرط أو سنة أو فكرة.

---

(١) رواه مسلم (١٢٢٨).

(٢) حكاها البيهقي في السنن الكبرى (١٨٢٧٦).



● قال ابن الأنباري: (كان الحسن البصري يدعو ذات ليلة: اللهم اعف عمن ظلمني. وأكثر في ذلك، فقال له رجل: يا أبا سعيد، لقد سمعتك الليلة تدعو لمن ظلمك، حتى تمنيت أن أكون أنا فيمن ظلمك، فما دعاك إلى ذلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾)[1][الشورى: ٤٠].

● وقال ابن المبارك عن إمام الفقهاء أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعته يغتاب عدوًّا له قط. قال: هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها)[2].

● وعن بكير بن معروف: (قلت لأبي حنيفة: الناس يتكلمون فيك ولا تتكلم أنت فيهم! فقال: هو فضل الله يؤتيه من يشاء)[3].

صافٍ كماءِ المزنِ مخبرُه زاكٍ كأنفاسِ الشّذى برّ

● وعن مطرف بن عبد الله: (قال لي مالك: ما يقول الناس فيّ؟ قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع. فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها)[4].

● وها هو إمام أهل السنة أحمد بن حنبل يقول: (وقد جعلت أبا إسحاق - يعني المعتصم، وقد سجنه وأمر بضربه حتى أغمي عليه وسال منه الدم - في حل، ورأيت الله يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢] وأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح. ثم

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٥ / ٥٨٧).
(٢) تاريخ بغداد (١٣ / ٣٦١).
(٣) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢ / ٥١٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٦١).

قال: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سبيلك!)[١].

يُنبيكَ عن قربِ النبوةِ هديهُ والمرءُ يُخبرُ فعلُه عن قولِهِ

● وهذا ابن تيمية الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (هذا وأنا في سعة صَدْرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدَّى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًّا بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس حاكمًا فيما اختلفوا فيه)[٢].

● وقال في رسالة كتبها وهو في السجن إلى تلاميذه ومحبيه، يتحدث عن خصومه الذين تسببوا في دخوله السجن، وكانوا سببًا في مصادرة كتبه، قال: (أنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته الجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات)[٣].

● وفي ذيل الطبقات: (ولما دخل السجن وكان معه أخوه الشيخ شرف الدين، ابتهل ودعا الله عليهم - على خصوم ابن تيمية - في حال خروجهم، فمنعه الشيخ وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نورًا يهتدون به إلى الحق)[٤].

● وكان ممن سعى في إيذائه القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية، فقال: (وأنا والله من أعظم الناس معاونةً على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيتي

(١) البداية والنهاية (١٠ / ٣٦٨) سير أعلام النبلاء (١١ / ٢٦١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٤٥).
(٣) السابق (٢٨ / ٤٢).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤ / ٥١٢).

وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنتُ خارجًا لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زورًا، والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[١].

صفوحٌ عن الإجرامِ حتى كأنّه	من العفوِ لم يعرفْ من الناسِ مُجرمًا
وليسَ يُبالي أن يكونَ به الأَذى	إذا ما الأذى لم يغشَ بالكرهِ مُسلمًا

ومن مواقفه لما مات أحد أعدائه:

● قال ابن القيم: وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئتُ يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزّاهم وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام، فسرّوا به ودعوا له وعظّموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه)[٢].

● قال القاضي ابن مخلوف، وقد كان خصمًا له: (ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا)[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧١).
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢٩).
(٣) البداية والنهاية (١٤ / ٦١).

● وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: (أن السلطان الملك الناصر لما رجع إلى الملك مرة ثانية، كان همُّه في طلب الشيخ ورؤيته، فلما تقابلا اعتنقا هنيهة، ثم أخذ معه ساعة يتحدثان، وكان من حديثهما أن طلب الملك الناصر من ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يفتي في قتل بعض القضاة بسبب ما تكلموا فيه، وحثه على ذلك، إلا أن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ في تعظيم هؤلاء القضاة والعلماء، وبيان مكانتهم، وينكر أن ينال أحدًا منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، ومن آذاني فهو في حلٍّ وأنا لا أنتصر لنفسي)[1].

ولسان حاله:

فما كانَ صـــدري للضغينةِ موطنًا وما كانَ رأسي مَعملًا للدسائس

● وروى الشعراني عن الشيخ عبد القادر الشاذلي: (أن السيوطي امتحن المحن الكثيرة، وما سمعته يومًا واحدًا يدعو على من آذاه من الحسدة ولا يقابله بسوء، وإنما يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! وصنّف في ذلك كتابًا سماه تأخير الظلامة إلى يوم القيامة)[2].

● قال الشوكاني: (وقد وقفت على رسالة لبعض أهل العلم، ممن جمعني وإياه طلب العلم، ونظمنا جميعًا عقد المودة وسابق الألفة، فرأيته يقول فيها مخاطبًا لإمام العصر: إن الذي ينبغي له ويجب عليه أن يأمر جماعة يكبسون منزلي ويهجمون مسكني، ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب، فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب، ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدي لما صدقت، وفيها من الزور والبهت

---

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٦١).

(٢) ذيل الطبقات للشعراني (٣٤).

والكلمات الفظيعة شيء كثير، وهي في نحو ثلاثة كراريس، وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه، فشرده إمام العصر إلى جزيرة من جزائر البحر مقرونًا في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة، وأهلكه الله في تلك الجزيرة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ومن جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير (الرافضي) رسالة لبعض مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية، وفيها من الزور ومحض الكذب ما لا يظن بمن هو دونه، وما حمله على ذلك إلا الطمع في الوزير، فعاقبه الله بقطع ما كان يُجرَى عليه من الخليفة، وأصيب بفقر مدقع وفاقة شديدة حتى صار عبرة من العبر، وكان يفد إلي يشكو حاله وما هو فيه من الجهد والبلاء، فأبلغ جهدي في منفعته وما يسد فاقته)[1].

مواقف سامية رباها العلم وزكاها الوحي، وترجمها العلماء في سيرهم، وهي ذكرى موقظة.

ولكــنْ أرى الذّكـرى تُنبّـه عاقلاً ... إذا هي جاءتْ من رجالِ الحقائقِ

الانتقام يعمي ويصم، فاحذر الانتقام.

● قال تقي الدين: (ومن طلب الانتقام لنفسه ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم من المصيبة التي نالته من جهتهم)[2].

الاختلاف يكشف لك أخلاق الرجال ومعادنها وصفاء النفوس وسموها

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (٥١).
(٢) جامع المسائل (١ / ١٧٠).

وإنصافها وعدلها.

يا أهل العلم والفضل: إيماننا أجل، وأخلاقنا أسمى، ومروءتنا أسنى من أن تدنسها حظوظ النفس وآفات القلوب.

الحذر الحذر من أن يكون البغي والانتقام باسم الدين و المصلحة والنصح والعدالة والحقوق ومن أجل الله والغيرة على دين الله.

وأهل السنة من سماتهم أنهم يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فإنهم أصحاب هدي واتباع، وأرباب عمل واقتداء، وكانوا أوسع الناس رحمةً وأعظمهم شفقة، وأصدقهم نصحًا.

وخذها قاعدة ذهبية في حياتك العلمية والدعوية:

(لا تخسر أحدًا في طريق الدعوة إلى الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، إن لم نتفق فلا نفترق، ولا يبغي بعضنا على بعض) وستجد حلاوتها وثمرتها ويقينها ولو بعد حين، جعلك الله من الهداة المهتدين.

إن من يتكلم في أئمة الدين وعلماء الإسلام ودعاته الذين لهم قدم صدق في الإسلام، صراحة أوتعريضًا، ويروم إسقاطهم، فإنما يسقط نفسه ويزري بها، فلا وزن له.

● قال الإمام مسلم في مقدمته: (عن ابن المبارك يقول على رؤوس الناس: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف)[1].

وليس للمتطاولين والمتعالمين والمتعالين سوى مثلك من هجر مجالسهم

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/ ١٦).

وحديثهم ردعًا وزجرًا.

وعلى علماء الأمة وعقلائها: أن ينادوا ويتنادوا لرأب الصدع والاجتماع على كلمة سواء، وزجر المتطاولين وتأديبهم، ومن يستغلون الخلاف في إيغال الصدور وتفريق العلماء، فإن كثيرًا من طلاب العلم والشباب حصل بينهم الصراعات، وانشغلوا بها وتفرقوا أحزابًا وجماعات، كل منهم يتبع فلانًا، ومن لم يتبع شيخه فإنه منحرف وضال، فحصل بهذا من المفاسد شيء كثير، ورجع أثرها سلبًا على العلم والدعوة والعامة من الناس! والله المستعان ولا حول ولاقوة إلا بالله! مضت السنون والسنون والأمة تعاني من مثل هذا، والصدع والشرخ يزداد يومًا بعد يوم، فهل من مدكر!

اجعلوا طلابكم يخرجون من مجالس العلم وهم في سعادة وفرح ونفع وفائدة، دون أن تمتلئ قلوبهم حقدًا وضغينة على أحد.

أيها العلماء والعقلاء: بادروا في جمع الفرقة والفرقاء، كونوا نماذج وقدوات للأجيال، لا تخلفوا تركة مليئة بالفرقة والخلاف للأمة والأجيال، والله سائلكم عن ذلك.

سفراء العلم والدعوة: خلِّفوا تركة مليئة بالمعاني والفضائل السامية والائتلاف لا الاختلاف والضغائن والتنافر، ورِّثوا ما ورَّثه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة، تراحموا ولينوا في أيدي إخوانكم، تعاونوا وتعاضدوا وتناصروا وتآزروا، وتناصحوا، وتصالحوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، واقبلوا النصح، ولا تأخذكم حظوظ النفس فتهلككم.

*****

حدد الهدف وانطلق، أبواب الخير مشرعة، كلانا على خير

يا سفير العلم والدعوة: ما هو مشروعك - مشروع العمر - إذا عدت إلى بلدك؟ وكيف تبني مشروعك؟

إن كل قرار دون هدف سفر إلى غير وجهة، وكل قرار دون معايير وضوابط يعني ضياعًا للأموال وهدرًا للأعمار والأفكار.

حدد هدفك ومشروعك في العمل الخيري، العلمي أو الدعوي أو التربوي أو الفكري أو الإغاثي، وفق قدراتك وتخصصك، واعرف حاجة الزمان والمكان، مع النظر إلى الأولويات التي يحتاجها مجتمعك، وابدأ بالأهم فالأهم.

وليكن من أهم مشاريعك التعريف بالإسلام: فالحديث عن أهمية التعريف بالإسلام مهم، خاصة في هذه الأزمنة التي شوهت فيها صورة الإسلام لأسباب لا يسع المقام لذكرها.

ولذلك تجدر الإشارة إلى أن الدعوة للإسلام واجب أمة، وليس مجرد مهمة، فلايزال بعض الناس ينظر إلى الدعوة للإسلام على أنها ليست من الواجب الكفائي، بل هي كذلك، وقد تكون واجبًا عينيًّا بشرطه، وقد قال الله تعالى مخاطبًا الأمة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وكيف نشهد على الناس ونحن لم نبلغهم، والنبي ﷺ في حجة الوداع قال: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ... اللهُمَّ اشْهَدْ**»[1].

(١) رواه البخاري (رقم ١٧٤١) ومسلم (رقم ١٦٧٩).

فعلى أهل العلم والدعاة أن يكون لذلك حظ من دعوتهم ومشاريعهم وبرامجهم، وأن يفقهوا دعوة غير المسلم للإسلام منهجًا وأساليب وطرائق، حتى لا تترتب على دعوتهم كثير من المفاسد .

وأضع بين يديك مفردات متناثرة تفتح لك آفاقًا في العمل الخيري بأنواعه:

(مسجد، معهد، مركز، علم، دعوة، إعلام، اقتصاد إسلامي، إصلاح بين الناس، فصل الخصومات، الفتوى، التدريس، الخطابة، تحفيظ القرآن، تعليم اللغة العربية، التصدي للشبهات، تدريب، تطوير، هدايا، السياحة والسياح، الإغاثة، الأيتام، القنوات بأنواعها الخاصة والعامة، المجلات العلمية، الترجمة، المعارض التعريفية والتوعوية[1] شبكات التواصل، الأوقاف الاستثمارية، بناء المساجد، حفر الآبار، المنصات الألكترونية، استراحات الانتظار داخل المؤسسات والجهات الحكومية والمطارات، الشباب، الفتيات، النساء، الأطفال، كبار السن، التجار، طلاب العلم، الدعاة، جماعة المسجد، الجيران، العمال، الموظفون، نزلاء الفنادق، الزوار، مطعم، مقهى، المدارس الدينية الخاصة، المدارس التعليمية الأهلية، دعوة غير المسلمين، العمل الإنساني في التخصصات الطبية ونحوها)[2].

تعلَّمِ العلمَ واعمل ما استطعتَ بهِ	لا يُلهينّــك عنه اللهــوُ والجدلُ
وعلِّم النــاسَ واقصد نفعهَم أبدًا	إيــاكَ إيــاكَ أن يعتــادك الملــلُ
وعــظْ أخــاكَ برفــقٍ عنــدَ زلّتِه	فالعلمُ يَعطفِ مــن يَعتادُه الزّللُ

---

(١) كإعداد معرض للتعريف بالإسلام، وبالصحابة وغيرها.

(٢) انظر: موقع صيد الفوائد.

واعلم: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اختلفت أعمالهم في ميادين الخير والنفع والبذل والعطاء، ولم يكونوا كلهم على عمل وثغر واحد، تخصصوا وانطلقوا في الأرض مبلغين دين الله.

● وقد كتب عبد الله العُمري العابد إلى الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يحضّه على الانفراد والعمل - يقصد التفرغ للعبادة - فكتب إليه مالك: (إن الله قسّم الأعمال كما قسّم الأرزاق، فربّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر)[١].

وعليه، فلا يثرّب أحدنا على الآخر في مشروعه، وما هداه الله إليه وفتح عليه به.

وقد قيل: الميدان يتسع للجميع، فلا تُلزِم الناس بفكرك أو فكرتك أو مشروعك أو شيخك أو حلقتك أو برنامجك، فالميدان للجميع، وطالما أن هدفنا وغايتنا محمودة فنحن في اختلاف تنوع لا تضاد، طريقتك يُحبها أناس وطريقتي يحبها أناس.

المهندس والطبيب والبنّاء والتاجر، كلٌّ يدعو إلى الله وينشر العلم من خلال عمله وتخصصه على علم وبصيرة وهدى، فتبليغ دين الله مسؤولية الجميع.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٢].

---

(١) التمهيد (٧ / ١٨٥).

(٢) رواه البخاري (رقم ١٤٦٨).

واعلم أنه من خلال تعليم اللغة العربية ووسائله المتعددة يتعلم الناس الإسلام وتدبر القرآن واتباع السنة، فلا ينازعك أحد في تعليم اللغة العربية، لأنه خير.

ماذا تريد أن تكون بعد عشر سنوات أو أقل أو أكثر؟

ما هو المجال الذي من خلاله ستخدم دينك وأمتك وبلدك؟

● عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسمت ألا أضع ردائي عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعته عن ظهري حتى جمعت القرآن)[1].

● وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا ابن خمس عشرة سنة)[2].

● وعنه قال: (وضعت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضوءًا فقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»)[3].

فقام ابن عباس جادًّا في العلم، صادقًا مع الله، مستعينًا بالله، فبلّغه الله دعوة نبيه ومناه، فملأ الدنيا علمًا وحكمة وهدى، هكذا وصلت به همته لتحقيق مشروعه العظيم، فحفظ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبثها في العالمين.

● وقد قال الإمام الشافعي:(من تعلم علمًا فليدقق فيه لئلا يضيع دقيق العلم)[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٦٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٧٥ رقم ٣٥٤٣).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (الإحسان رقم ٧٠٥٥).

(٤) مناقب الشافعي (٢/ ١٤٢).

• قال تقي الدين: (فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم، كلاهما ذنب عظيم؛ وليس هو مثل ترك ما تحتاج الأمة إليه مما هو مفوض إليهم؛ فإن ترك هذا أعظم من ترك أداء المال الواجب إلى مستحقه)[١].

سـأزرعُ الحَـبَّ في بيـداءَ قاحلةٍ … لرُبـما جادَ بالسّـقيا الـذي عبَرا

مُسـافرٌ أنـتَ والآثـارُ باقيـةٌ … فاتركْ لنفسـكَ ما تُحيي به الأَثرا

وصية ابن بطال المالكي:

إن المؤمن إذا لم يقدر على باب من أبواب الخير، ولا فتح له فعله، أن ينتقل إلى باب آخر يقدر عليه، فإن أبواب الخير كثيرة، والطريق إلى مرضاه الله تعالى غير معدومة، ألا ترى تفضل الله على عبده حين جعل له في حال عجزه عن الفعل عِوَضًا من القول، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم جعل عِوَضًا من ذلك لمن لم يقدر الإمساك عن الشر صدقة[٢].

فَاقْذِفْ بِنَفْسِكَ فِي أَقْصَى مَطَالِبِهَا … إِنَّ النَّجَـاحَ بِسَـعْيِ الْمَـرْءِ مُرْتَبِطُ

قَـدْ يَظْفَرُ الْفَاتِـكُ الأَلْوَى بِحَاجَتِهِ … وَلَيْـسَ يُدْرِكُهَـا الْهَيَّابَـةُ الخَلِـطُ

وَإِنْ شَـأَتْكَ الْمُنَـى فَاقْنَـعْ بِأَقْرَبِها … فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ يُدْرَكُ الْوَسَـطُ

• يقول ابن القيم: (فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به، قال الله تعالى إخبارًا عن المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] أي: معلمًا للخير، داعيًا إلى الله، مذكرًا به، مرغبًا في طاعته،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٨٨).

(٢) شرح صحيح البخاري (٩ / ٢٢٤).

فهذا من بركة الرجل، ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقائه والاجتماع به، بل تمحق بركة من لقيه واجتمع به، فإنه يضيع الوقت في الماجريات ويفسد القلب، وكل آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله ونقصان درجته ومنزلته عنده)[1].

*****

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (٥).

قواعد في الدعوة إلى الله

١ - اعلم أن أصول الدعوة إلى الله: الدعوة إلى التوحيد والعبادة والأخلاق.

٢- أن أصول الاستدلال في الدعوة إلى الله: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والأدلة الأخرى، كالمصلحة المرسلة بالضوابط الشرعية المعتبرة، وقاعدة سد الذريعة.

٣- ليكن طالب العلم والداعية فيها وسطًا بين الغالي والجافي، لا إفراط ولا تفريط، والنظر في مآلات الأفعال معتبر في الشرع، لا ينكره عالم وحكيم «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1] فكان الامتناع عن قتل المنافقين حماية وسدًّا للذريعة من النيل من الدعوة المحمدية وفتح باب سفك الدماء، وحفظًا للعرض من التكلم فيه.

٤- الدعوة إلى المحكمات وتعليمها من أركان الإسلام والإيمان، ووجوب دعوة الناس إلى تعظيم سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوقيرها والتحاكم إليها واتباعها وتبيين صحيحها من ضعيفها وموضوعها.

٥- التركيز على أسباب جمع كلمة المسلمين وترك ما يدعو إلى تفرقها وتمزقها.

٦- أنزل الناس منازلها في لغة الخطاب مكتوبًا ومسموعًا والتعامل والحوار، فعندنا المتخصص والمثقف والعامي، والصغار والكبار، والرجال

(١) رواه البخاري (رقم ٤٩٠٥) ومسلم (رقم ٢٥٨٤).

والنساء، وعندنا العلم الشرعي والفكر والتربية والوعظ، فكل واحد من هذه له ما يناسبه في الطريقة والمحتوى، فمن الخطأ أن نخاطب المثقف والعامي بلغة المتخصص، وكذلك العكس.

السيرة النبوية منهج حياة:

إن في دراسة السيرة النبوية منهجًا للأمة والعلماء والدعاة، في الدعوة العالمية، في الأشخاص والأزمان والأماكن والوسائل، فيها الدروس والعبر والأخلاق والتربية والسير، فيها استثمار الطاقات والمداراة مع رؤوس النفاق، فيها مكارم الأخلاق في التعامل مع الجميع، مع الأسرة والصديق، والجار والقريب، والمؤمن والكافر، والصغير والكبير، فيها التخطيط والتنظيم، والأخذ بالأسباب، وحسن الإدارة، مع التوكل على الله، فيها اليقين بالله وقت الفتن والشدائد، فيها الحكم والتجارب.

فحريٌّ بنا أن نقرأها قراءة التدبر والتفكر، دراسة ومدارسة وتدريسًا، ونتلمس فيها معالم النجاة والنجاح، والصبر والثبات والفأل، والتسلية لأهل الغربة والبلاء، وأسباب النصر والهزيمة. فهلموا إلى رياض السيرة النبوية للارتواء منها وبها.

*****

نشر العلم

من أنفع الصدقات تعليم الناس وغرس الإيمان في قلوبهم، كل معلومة ينتفع بها الناس ويتناقلونها ويعملون بمقتضاها فهي في ميزان ذلك المعلم.

● قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] قال: (إن من أعظم النفقة نفقة العلم)[١].

● وقال ابن المبارك: (ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم)[٢].

● وقال أسد بن الفرات موصيًا بعض إخوانه: (أوصيكما بتقوى الله والقرآن، ونشر هذا العلم)[٣].

إنه من أعظم الدعوة وأفضلها، وهو من الجهاد في سبيل الله حينما تعود الغربة في الدين، ويشكّك الناس في دينهم، وتثار الشبهات حول عقيدتهم، ويُطعَن في رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكذَّب وتحرَّف سُنته.

● قال يحيى بن معين: (الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله. فقلت ليحيى: الرجل ينفق ماله، ويتعب نفسه ويجاهد، فهذا أفضل منه؟ قال: نعم بكثير)[٤].

---

(١) الفتاوى (٤ / ٤١).
(٢) تاريخ بغداد (١١ / ٣٨٨).
(٣) ترتيب المدارك (٣ / ٢٩٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨ / ١٥٦).

فقم وابذل العلم ذابًّا عن شريعة رب العالمين وناصرًا سنة سيد المرسلين، مستعينًا بالله مكررًا «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإنها تُحمل بها الأثقال، وتُقتحم بها الأهوال، لا ناقدًا ومجرحًا ومنشغلًا بعيوب وأخطاء الآخرين، وطاعنًا في ظهور إخوانك ومحاربًا لهم في كل مجلس ومن خلال شبكات التواصل والقنوات.

اخرج مع إخوانك وطلابك إلى القرى والهجر لتعليم الناس التوحيد والعبادة الصحيحة؛ من أحكام الطهارة والصلاة والصيام وقراءة سورة الفاتحة وقصار السور، وغيرها مما يجب على المسلم معرفته بأسلوب سهل ومختصر.

كم فيهم من جاهل يعتريه الخلل في التوحيد والصلاة وقراءة القرآن وقد بلغ خمسين سنة ونحوها!

أتظنون أن الله لن يسألنا عنهم، وقد شغلنا عنهم بتوافه الجدل والنقد والخلافات!

● رؤي أبو منصور الخياط بعد موته فقيل له: (ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بتعليمي الصبيان فاتحة الكتاب)[1].

● وسئل سهل العجلي الشافعي بعد وفاته في المنام: (أيها الشيخ. فقال: دع الشيخ. فقلت: وتلك الأحوال التي شاهدتها! فقال: لم تغن عنّا. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجز)[2].

● ومثله التلمساني صاحب الأصول[3].

---

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (٢٥٦).

(٢) طبقات الشافعية (٤ / ٣٩٧).

(٣) مقدمة تحقيق كتاب مفتاح الوصول لمحمد فركوس (١٨٢).

● يقول الذهبي واصفًا حال شيخه تقي الدين: (كان إمامًا متبحرًا في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفًا بفرط الشجاعة والكرم، فارغًا عن الشهوات؛ المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه)[1].

فكن من الغرس الذين يستعملهم الله في غرس العلم في قلوب الناس، ودع عنك الحيل والأعذار الوهمية التي تمنعك من نشر العلم وبذله، وما هي إلا حيل شيطانية أو تواضع مذموم.

أسرِجْ خيولــك يــا أخ الإيــمانِ وانهض لبعثِ العلمِ في الأوطانِ

اجعل لك برنامجًا علميًّا منتظمًا، سواء كان حضوريًّا أو عبر برامج التواصل، والتزم به، ولا تنقطع عنه إلا لما لابد منه، وهذا ديدن العلماء، وفيه تربية للنفس وللطلبة، والاستمرار والالتزام طريقان للنجاح والإنتاج والإنجاز، أما التقطع وعدم الالتزام فهو طريق الفشل وعدم الإنجاز.

اجعل لك مشروعًا علميًّا متكاملًا بمشاركة بعض إخوانك من طلاب العلم.

إن نشر العلم في البلدان وتكوين حواضن علمية فيها لمن أقوى الأسباب لمواجهة الشبهات والشهوات، ورفع الجهل عن الناس في العقائد والفروع، واجتناب المحرمات وإنكارها، وثبات الناس على دين الله وقوة أهل العلم وتماسكهم وائتلافهم.

فمن واجب العصر في هذا الوقت الجلوس للناس للتعليم وعودة حلقات

---

(١) مختصر معجم المحدثين (٢٥).

العلم في بيوت الله والإجابة على فتاوى الناس وما يشكل عليهم من أمر دينهم، وحراسة هذا الثغر من عبث العابثين وتحريف الغالين[١] وانتحال المبطلين[٢] وتأويل الجاهلين[٣].

وبنشرِ العلمِ تبقى خالدًا   في أجورٍ وجهادٍ وعمل

ومما ينبغي على العالم تسهيل العلم على الناس وتبسيطه، وربطهم بالدليل النقلي والعقلي حتى تطمئن النفوس وتسلّم للشرع، وإذا أوردت الأحكام عليهم بدون أدلة ضعف التسليم لها والاطمئنان إليها، ولا يضجر من المناقشة لمن أراد الحق.

ليكن هم كل واحد منا تبليغ الدين ونشر العلم بالعقل والحكمة.

*****

(١) المبتدعة الذين يتجاوزون في الكتاب والسُّنة عن المعنى المراد، فيحرِّفونه عن جهته.

(٢) أي الواضعين أحاديثَ وأفعالاً وأقوالاً من تِلقاءِ أنفسِهِم.

(٣) معنى القرآن والحديث إلى ما ليس بصواب.

منبر الجمعة

مصدر من مصادر تبليغ الرسالة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدواوين السنة النبوية مليئة بخطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جمعة وعيد وكسوف واستسقاء ونحوها، فللإسلام عناية عظيمة بالخطبة، فهي منبر لنشر الإسلام وتعاليمه، فمن الواجب الأدبي والعلمي إعطاؤها حقها من الإعداد والتنظيم في اختيار الموضوع وجودة مبانيه ومعانيه وإلقائه، في طرح العقيدة ومواضيعها من التوحيد والتوكل على الله وأثر أسماء الله وصفاته على العبد، وفي المواعظ والسيرة النبوية، والقضايا الأخلاقية والأسرية والاجتماعية، والاعتزاز بالدين والثبات عليه في زمن الفتن والمتغيرات، حتى يكون مؤديًا لرسالة الخطبة ومؤثرًا في الناس.

ففي السنة قرابة ٥٢ أسبوعًا، وكل الحاضرين فيها ملزمون بالإصغاء، وأكثر الناس مدرك لها ومتهيئ لسماعها، وينتظر كلمة تزيد في إيمانه وتوقظ روحه وتزيد همته، ينتظر كلمة يترقى بها في معارج الخير والفضيلة، كلمة تزيد في ثباته على الإيمان وتسكب عليه الطمأنينة والسكينة، وهو خلال أيام الأسبوع يعيش في معترك الحياة بجميع جوارحه، ويتلبس بشيء من المكدرات والزلات، فينتظر الخطيب ليغسل ما أصابه ويجدد الإيمان في قلبه.

إن من الخطأ ما نشاهد من خطب تُلقى بدون روح وحيوية، موضوعًا وكلمات ومعنى، بدون إعداد واستثارة للحواس، لا تشنف الأذان ولا تحرك القلوب، لأنها كتبت أو أخذت صبيحة الجمعة، وربما ليلتها، أقصوصات من

هنا وهناك.

أيها الخطيب: هيأك الله وبوأك مكانًا عظيمًا، فأعط المنبر حقه، وإلا أعط القوس باريها.

ومن عرف قيمة منبره وعظيم أثره جعل للخطبة شأنًا في إعدادها.

إن سؤالًا يطرح نفسه ويدور في خلد بعض الناس:

إمام يخطب في الناس سنين عديدة، فلماذا لا يتأثر الناس وتتغير علاقتهم مع الله ومع بعضهم بعضًا، فأين الخلل؟ هل في الخطيب أو في الناس؟

حاول أن تطور نفسك مهاريًّا في إعداد الخطبة وإلقائها من خلال برامج تطوير الخطيب.

حاول أن تضع لك خطة بعد كل فترة من الزمن عن سلسلة في مواضيع متنوعة في السيرة النبوية والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في وقفات مع تفسير آيات من القرآن الكريم وغيرها مما تقدم ذكره، والمسئولية المجتمعية بين الشعوب.

واحذر أن تكون خطبك ومنبرك ومحرابك لتصفية خصومك وخصوم غيرك وذكر نجاحاتك، وتبيع أمانة الكلمة ومنبر الجمعة لأجل الآخرين.

● فعن الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما من خطيب يخطب إلا عرضت عليه خطبته يوم القيامة)[١].

ونصوص الشرع تؤيده، إلا ما لا مفر منه، وتراعى المصالح والمفاسد.

*****

---

(١) الصمت (٨٧).

المسجد

الانطلاقة الكبرى للعلم والتعليم ونشر الإسلام كانت من مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهكذا تتابع الصحابة وسلف الأمة وعلماؤها.

المسجد مدرسة للعلم والتعليم والدعوة وتعزيز أواصر المحبة بين المسلمين، والمسؤولية المجتمعية بين أفراده، وميادين الخير عبر التاريخ الإسلامي.

إن للإمام منزلة عظيمة ومكانة عالية ومهنة جليلة في رفع شأن الأمة وتأليف القلوب، ونشر الخير والمعروف والرحمة بين الناس كافة، وليس في تفريقها وبث الخلافات بأنواعها.

الإمام دوره عظيم في رسالة المسجد، مما سبق ذكره، ومن خلاله يستطيع أن يقوم بما يعجز عنه كثير من العاملين في العمل الخيري بأنواعه، لأسباب لا يسع المقام لذكرها.

الإمام معلّم وواعظ ومصلح يربي عقولًا، ويبني نفوسًا، ويغرس قيمًا وأخلاقًا حميدة، ولذا فإن عمله ليس محصورًا بإمامة الناس في الصلاة فقط، وإلا فليعط القوس باريها.

إن رُمْـتَ حقًّا لهذا الدِّين مصلحةً ... لا تَظلمِ القوسَ أَعطِ القوسَ بَاريها

بشروا ولا تنفروا، أقبلوا على الناس ولا تدبروا، افتحوا لهم قلوبكم وصدوركم.

ولا تنفّروا الناس من المساجد والصلاة وراءكم بسبب التمسك بسنة، سواء كانت متفقًا عليها أو مختلفًا فيها، فإن هذا ليس من العلم والحكمة في شيء.

● قال تقي الدين: (ولو كان الإمام يرى استحباب شيء، والمأمومون لا يستحبونه، فتَرَكه لأجل الاتفاق والائتلاف، كان قد أحسَنَ)[1].

على الإمام أن يتحلى بجميل الخصال، وأن يكون ودودًا قريبًا من القلوب قبل الأجساد، مواسيًا للجميع في أفراحهم وأتراحهم، وألا يميز أحدًا دون أحد باعتبارات طبقية أو مذهبية ونحوها.

ينبغي لطالب العلم أن يبادر في تولي إمامة المسجد، وألا يدع الفرصة للكسالى والمنحرفين.

وفي «الإيمان الأوسط»: (ومن أحب أن يلحق بدرجة الأبرار ويتشبه بالأخيار فلينوِ في كل يوم تطلع فيه الشمس نفع الخلق فيما يسّر الله من مصالحهم على يديه)[2].

فكيف بمن يقول ويفعل من الخير لنفع الناس والقيام على ثغور الإسلام والأوطان كل يوم!

إن المكارم أبواب مصنَّفة	فالعقل أولها والصمت ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والصدق ساديها
والصبر سابعها والشكر ثامنها	واللين تاسعها والصدق عاشيها

*****

(١) مجموع الفتاوى (٢٢ / ٢٦٨).
(٢) الإيمان الأوسط (٢٣٣).

الشورى من مفاتيح التوفيق والنجاح

شاور أهل العلم والخبرة والتجارب ومن سبقوك في العمل للمعرفة وكسب القلوب، ولا تزاحمهم ولا تتجاهلهم، فإن هذا سبب في تنافر القلوب وحظوظ النفس والشيطان، وتواضع لهم، ولا تحقرنّ أحدًا مهما كانت أخطاؤه وقلّ علمه، واستفد ممن هو أصغر منك سنًّا وأقل منك علمًا، ولو كانوا من طلابك، فقد يفوق الطالبُ شيخَه والتلميذُ أستاذَه، فاحذر حينها من حظوظ النفس والشيطان.

الشورى باختصار هي أنك تفكر وتعمل بعدة عقول لا بعقل واحد.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]: لأن في الشورى تطييبًا للقلوب وللنفوس[١].

قد لا تحتاج إلى شخص لكي تأخذ رأيه وتجربته، ولكن لأجل كسب قلبه واحترام وجوده وتطييب خاطره، وبذلك وغيره تغلق بابًا من أبواب حظوظ النفس وشياطين الإنس، وقطّاع الطريق عنك وعن مشاريعك، والرمي بالتهم العقدية والفكرية وإثارة الناس عليك.

وقاك ربي شر الأشرار، وكيد الفجار، وحسد الحساد، وشر طوارق الليل والنهار.

ومن القواعد المهمة في الاستشارة أن تستشير صاحب التخصص والخبرة

(١) تفسير الطبري (٦ / ١٨٨).

فيما تريد أن تستشير فيه لكي تقع على استشارة خبير صائبة.

إذا بلغَ الرأيُ المشــورةَ فاســتعنْ   بــرأيِ نصيحٍ أو نصيحــةِ حازمِ
ولا تجعلْ الشورى عليك غضاضةً   فــإن الخَــوافي قــوةٌ للقــوادمِ

واحذر الاستعجال في جميع أمورك، وكن متأنيًا متأملًا متدبرًا العواقب فيما تقول وتفعل وتتخذ من القرارات وتكتب، ولا يستعجلنك الناس وخاصة حماس الشباب فتخسر وتندم.

عليــمٌ بأعقــابِ الأمــورِ برأيهِ   كأنّ لــه في اليومِ عينًــا على الغد

أصحاب التجارب والخبرة هم الحكماء.

● قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من دهاة العرب: (وَلَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ)[١] وفي لفظ (لَا حِلمَ إِلَّا تَجْرِبَةٌ)[٢] أي لا يكون الإنسان حكيمًا وحليمًا إلا بالتجارب، لأنها تكشف الأمور، ويستفيد من العثرات ويستبين له الخطأ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[٣].

وقد قيل: إنّ العقل بالتجارب، والحكمة عند الكبار.

● ورأى أعرابي رجلًا ينال من السلطان فقال: (إنك غُفُل لم تسمك التجارب، وكأني بالضاحك إليك باك عليك).

والعقل عقلان: مخلوق ومكتسب، فالمخلوق ما يجعله الله لعبده ويكلفه من أجله، والمكتسب ما يناله العبد بالتجربة، وليس يفضّل رأي الشيخ على رأي

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٦٥).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٦٤).
(٣) رواه البخاري (رقم ٦١٣٣) ومسلم (رقم ٢٩٩٨).

الغلام إلا لتجربة الشيخ وغرارة الغلام، ويقال لمن لا تجربة له: غِرّ بيّن الغرارة، والتجارب لا تنفع إلا العقلاء، وقد ينفع المرء اللبيب تجاربه[1].

ولا خَـيرَ في أمـرٍ إذا لم يكـنْ له حَكيمٌ إذا مـا أوردَ الأمرَ أَصدرا

● قال النووي: (وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه؛ فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك)[2].

● قال أبوحيان: (وليس شيء أنفع للمنشئ من سوء الظنّ بنفسه، والرجوع إلى غيره، وإن كان دونه في الدرجة، وليس في الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعين أحزم من المستبدّ، ومن تفرّد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص)[3].

● وقد قيل: (الأحمق من قطعه العجب بنفسه عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا).

شاورْ صديقَك في الخفيِ المشكلِ واقبـلْ نصيحةَ ناصـحٍ متفضِّلِ

فـالله قـد أَوصى بـذاكَ نبيّـه في قوله: (شـاورهم) و(توكل)

وكن مع الأكابر مجالسة ومدارسة ومشاورة، فالبركة كل البركة مع الأكابر أهل العلم والعقل والحكمة والتجربة، والعلم ليس منتهى كل شيء، فتأمل وتدبر.

عـدوك ذو العقـل أبقـى عليـك مـن الجاهـل الوامـق الأحمـق

(١) جمهور الأمثال للعسكري (١/ ٤٨).

(٢) شرح مسلم (١٨ / ١١٧).

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان (٦٦).

وذو العقـل يـأتي جميـل الأمور ويقصـد للأرشـد الأرفـق

قليل من العلم مع الحكمة والعقل، خير وأنفع من كثير من العلم مع قلة في العقل والحكمة .

سفير العلم والدعوة: ليكن طلبك للعلم وتعليمه والدعوة إلى الله سبيلًا إلى مداواة جراح الأمة ولمّ شعثها، واحذر أن تكون سببًا في توسيع جراحها وتمزيق أواصرها وجمع كلمتها وتبديل تدينها .

*****

وعي الواقع

يذكر الفقهاء في كتبهم أن على المفتي والقاضي ونحوهم معرفة أعراف البلد وأحكام القضاة السابقين وما عليه جرى العمل ونحوه قضاء وفتوى، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ**»(١).

والقاعدة الشرعية: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)(٢).

وهذا كله دليل على أن طالب العلم والداعية يعرف واقع البلد ويفهمه فهمًا جيدًا، حتى يدرك من خلال ذلك كيف يدعو الناس ويعلمهم، وما هم عليه من الأمر، ولا يخالف عاداتهم فيجفلون منه، ويقع في بعض الأخطاء التي ربما كانت سببًا في الصد عنه وحدوث بعض المفاسد.

● قال ابن عقيل في واضحه: (فمتى لم يكن الفقيه ملاحظًا لأحوال الناس عارفًا لهم، وضع الفتيا في غير موضعها)(٣).

ومن وعي الواقع ما يشير إليه بعض المعاصرين: من معرفة أحوال المسلمين، وما يراد لهم من التحديات والعقبات والمستجدات، وما يسمى فقه المرحلة والنوازل المرتبطة بالأحكام الشرعية، وغير ذلك من الأمور، ولا

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩).

(٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (٢/ ١٣٤).

(٣) الواضح في أصول الفقه (٥ / ٤٦٣).

مشاحة في الاصطلاح، والشريعة شاملة لكل زمان ومكان.

ووعي الواقع ومعرفته: منه ما هو من صلب العلم، ومنه ما هو من مُلَحه، ومنه ما هو خارج عنهما.

وهذا الأمر الناس فيه طرفان ووسط، من يفرط ويوغل فيه ويفصله عن العلم الشرعي وقواعد الدين، ومن يفرّط فيه ويعرض عنه تمامًا، والوسط مطلب.

فطالب العلم والداعية إلى الله ينبغي أن يعرف ويدرك الواقع، وألا يكون في معزل عما يدور في محيطه المحلي أو العالمي حتى لا يقع في أخطاء جسيمة، سواء في جانب الفتوى أو الدعوة والتربية، كما هو مشاهد من بعضهم، وقد يلبّس عليه في ذلك فتزل به القدم.

وليس كل أحد يتكلم في الواقع، فلابد من معرفة شروطه وأهلية حامله لإدراكه وسبر أغواره، وكيفية حال من يريد تعلمها واستنباطها، وكيفية تحصيل تلك المعرفة وغيرها كسائر العلوم مع العلم الشرعي، فمريد معرفة الواقع لابد أن يكون عنده أصول وقواعد شرعية ينطلق من خلالها حتى لا يَهلك ولا يُهلِك، ولا يَضِل ولا يُضَل.

فلا تُوغِلَنّ إذا ما سَبَحتَ ... فإنّ السلامةَ في الساحل

● قال ابن الوزير: (وأكثر الناس لا يصبر عن الخوض فيما لا يعنيه ولا يتكلم بتحقيق ما يخوض فيه، وهذا هو الذي أفسد الدين والدنيا، فرحم الله من تكلم بعلم أو سكت بحلم)[1].

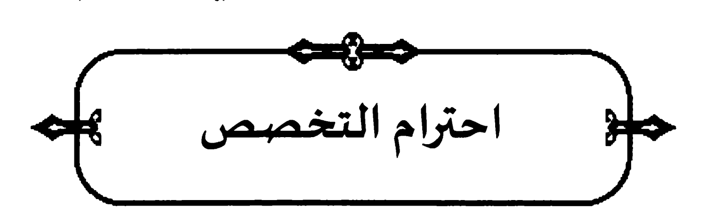
(١) العواصم والقواصم (٧/ ٥).

● وقال القرافي المالكي: (وكم يخفى على الفقهاء والحكام الحق في كثير من المسائل بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العلية ألا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم ذلك)[1].

أيها العقلاء: إن علينا جميعًا أن نعزز ونعظم مكانة الكلام في دين الله وأحكامه وشرائعه، وأن نرفع مستوى الوعي والإدراك لقيمة علماء الشريعة في النفوس، وألا نتقبل حالة الاسترخاص في الكلام في الدين، حتى لا يصبح حمى مستباحًا لكل أحد جهول عجول بليد متعالم مغرور، مما هو مشاهد في وسائل التواصل والقنوات والمجالس العامة والخاصة، مما لم يحدث في تاريخ الأمة المسلمة في سابقها، بحجة: (الدين للجميع، وكل يملك آلة القراءة والعقل والتفكير).

*****

(١) الذخيرة (٥/ ٥٠٢).



احترام التخصص

إن من الواجب شرعًا وعقلًا وعادة عدم الخوض في غير التخصص وما لا يحسنه الإنسان ويتقنه، وجاء الشارع مبينًا ذلك ومحذرًا ورادعًا ومعاقبًا من يتكلم ويتجرأ من غير علم وتخصص.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣] وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ»[1].

● وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، فَأَمَّا اللَّذَانِ فِي النَّارِ فَرَجُلٌ جَارَ مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ الْحَقَّ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لأَبِي الْعَالِيَةِ: مَا ذَنْبُ هَذَا الَّذِي اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ؟ قَالَ: ذَنْبُهُ أَلَّا يَكُونَ قَاضِيًا إِذْ لَمْ يَعْلَمْ)[2].

والمُفتون كالقضاة في ذلك، ومن المقرر شرعًا: (العادة محكمة) ومن العادة المعتبرة الأخذ بقول أهل العلم والخبرة في تخصصاتهم، وكل هذا احترام لمبدأ التخصص وعدم خوض الجاهل فيما لا علم به، فالعلوم محصنة ومحاطة فلا

---

(١) رواه أبوداود (رقم ٤٥٨٦) والنسائي (رقم ٤٨٣٠) وابن ماجه (رقم ٣٤٦٦) والحاكم (رقم ٧٦٩١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند ابن أبي شيبة (رقم ٢١٤١٧).

يتسلل إليها من ليس من أهلها من اللصوص.

لا يلزم من التميز في فن من العلوم استصحاب ذلك التميز إلى فن آخر، فكل فن يحتاج إلى تخصص وتعلم على أهله، وإلا فانتظر التناقض والغرائب والعجائب والأهواء والأدواء.

إن عصا التخصص تارة يضرب بها الآخر، وتارة يرمى بها عرض الحائط متى وجدت مصلحتهم والدفاع عن قضيتهم.

لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، وهم في الحقيقة يفسدون(١).

احترام التخصص هو احترام للنفس قبل كل شيء، واحترام للعلم وأهله، وعدمه سخرية واستهزاء وعدم مبالاة.

فليس من المنطق أن يأتي المهندس والقانوني فيتكلم في الطب لأجل أنه مطلع وقارئ.

وليس من المنطق أن يأتي الطبيب فيتكلم في الهندسة لأجل أنه مطلع وقارئ.

وليس من المنطق أن يأتي عالم الشريعة فيتكلم في الهندسة والطب لأجل أنه مطلع وقارئ، إلا ما كان يقتضي حكمًا شرعيًّا، لأن من القضايا ما يكون الاختصاص فيها مشتركًا.

وليس من المنطق أن يأتي غير المتخصص في الشريعة فيتكلم في أحكام الشريعة والحدود والدماء ولا يعرف تفسير آيات الأحكام وقواعده، وأحاديثها، ودلالات الألفاظ وأحكامها، من عام وخاص ومطلق ومقيد ومجمل ومبين،

---

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (٢٣).

والقياس وأنواعه وقوادحه، والإجماع وشروطه ومواطنه، والمصلحة وشروطها، ولا يعرف قواعد الحديث رواية ودراية، ومعاني اللغة، فيريد أن يعزل كل هذه العلوم ليتفرد عقله بالاستنباط والأحكام، فالدين ليس لعبًا وعبثًا يتعامل معه بأبجديات العلم والعقل المجرد، ورحم الله امرءًا عرف حده فوقف عنده.

وصدق من قال: العلم فضَّاح لغير أهله.

كُلُّ مـن يدَّعـي بمـا ليـسَ فيـهِ فَضَحتُـه شـواهدُ الامتحـان

هل سيتعامل كل صاحب تخصص مع قضاياه بالعقل المجرد دون الرجوع إلى أهله وأدواته ومهنيته! فلماذا إذن الدين والتعامل مع أحكامه لا يكون بمهنية التخصص.

إن المنطق يرفض مثل هذا، ولو كان المتجاوِزُ لغير تخصصه أبًا للعلم الذي بَرَز فيه ومرجعًا عملاقًا فيه، فقليل من العقل والإنصاف والحكمة يا أولي الألباب.

تَوقفْ ولا تُقدِم على العِلم حَادسًا فحدسُ الفَتى في العلم يُبدي المعَايبا

فليس طُلّابُ العلمِ بالحدسِ مُدركًا ولو كانَ فَهـمُ المرءِ كالنّجم ثَاقبا

أين بعض مدعي الثقافة في الصحافة ووسائل التواصل يصك أحدهم الآذان ويصدّع الرؤوس صباحًا ومساء بغثائيته وعبثيته دون احترام للتخصص، فيتبعه الإمعة ومحقّب دينه لكل شخص.

● قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الإمعة الذي يحقب دينه الرجال، وكانوا يسمونه الأعمى الذي لا بصيرة له، ويسمون المقلدين أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يركنوا إلى ركن وثيق)[1].

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٨٤).

● وعنه: (المحقب دينه الرجال الذي يمنح دينه غيره، فيما ينتفع به ذلك الغير في دنياه، ويبقى إثمه عليه)[١].

● وقال الحسن: (رأس مال المؤمن دينه، لا يخلّفه في الرحّال ولا يأتمن عليه الرجال)[٢].

فحُـقَّ لأهـل العِلـم أن يتمثَّلـوا ببيتٍ قديـم شـاعَ في كلِّ مجلس
لقـد هزُلتْ حتَّـى بدا مـن هُزالها كُلاهـا وحتَّـى سـامها كلُّ مفلس

ألهذا الحد وصل بعض المسلمين للاستخفاف بدينهم ومبادئهم!

اللهم لطفًا وعفوًا وثباتًا وهداية.

إن علينا أن نفرق بين الداعية والعالم وطالب العلم والراقي والقارئ والشاعر الإسلامي، فكل منهم له تخصصه ومنزلته.

إن علينا جميعًا أن يعرف كل منا تخصصه، ولا يفتات على الآخر إذا لم يكن له معرفة وقدرة وتأصيل وتجربة وقدم راسخة في العلم، ولا يجعل من نفسه قائدًا للأمة وهو ليس عنده الأدوات لقيادتها، فيُفسد أكثر مما يصلح، وليعط القوس باريها، ويشاور أهل العلم والتخصص، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

ورد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ**» قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ؟**» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا! قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[٣] وفي رواية: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ**

(١) شرح مشكل الآثار (١٥/ ٤٠٨).
(٢) الاستذكار (٣/ ١٩٢).
(٣) رواه مسلم (رقم ٢٣٦٣) والشيص: هو التمر الفاسد.

بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»[1].

إن على ذلك المتلقي ألا يجعل دينه عُرضة للصوص، من جاهل وصاحب هوى وغير متخصص، يسرقون منه أعز وأغلى ما يملك من غير أسوار وأقفال، وإنه والله وتالله لو وصف له مهندس علاجًا لما أخذه ولكان به مستهزئًا، خوفًا على نفسه، ولكن دينه يقبله من كل متكلم متفيهق مجهول الحال، مسترخصًا علاقته بربه، معرضًا دينه للخطر بلا مبالاة.

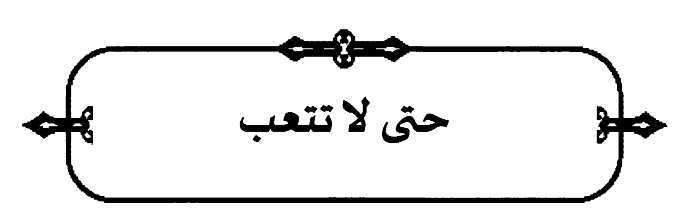
● أورد ابن عبد البر في جامعه ما نصه: (عن ابن عون قال: كنت عند القاسم بن محمد، إذ جاءه رجل فسأله عن شيء، فقال القاسم: لا أحسنه. فجعل الرجل يقول: إني رفعت إليك، لا أعرف غيرك. فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه. فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي، الزَمها، والله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحبّ إليّ من أن أتكلم بما لا علم لي به)[2].

● وقد قيل: (إنما يفسد الناس: نصف متكلم، ونصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان، لا سيما إذا خاض هذا في مسألة لم يسبقه إليها عالم، ولا معه فيها نقل عن أحد)[3].

*****

---

(١) مسلم (رقم ٢٣٦٢).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١١٦).
(٣) الفتاوى (٥/ ١١٨).



حتى لا تتعب

ابدأ من حيث انتهى أهل العمل الخيري في الأساليب والأفكار والبرامج، ولا تبدأ من حيث بدأوا لئلا تقع في الأخطاء والعقبات.

تعلّم أنظمة البلد التي تكون لك مفاتيح للعمل الخيري، وتتلافى بمعرفتها الأخطاء والعقبات، حتى لا تتعطل مشاريعك في أي لحظة من اللحظات إن كنت في بلد القانون والنظام.

لينفر بعض الأخيار في الدول غير المسلمة لدراسة ومعرفة الأنظمة والقوانين التي تكفل وتحفظ للأقليات المسلمة حقوقهم وحريتهم وإقامة شعائر دينهم ، فإن كثيرًا من المسلمين لا يعرفون حقوقهم القانونية في تلك البلدان.

تعلم كيف تضع الخطط ثم ضع خطة عملية متكاملة (الرؤية والرسالة والأهداف، والزمن، والأفكار، والمبادرات، والوسائل، والميزانية، وخطة الطوارئ، وفريق العمل المناسب، وفق معايير محددة ونقاط اتفاق مشتركة) والتزم بها قدر المستطاع، ولنكن وسطًا فيما يسمى بخطط العمل والتنفيذ والتخطيط الاستراتيجي، لا إفراط ولا تفريط ولا إيغال في ذلك ثم الفشل وعدم التطبيق، وابحث دائمًا عن النجاح بتفوق، وليس مجرد النجاح.

والخــيرُ كلُّ الخــيرِ في التّوســطِ ... لا مُفــرِط غــالٍ ولا مفــرّط

*****

ليكن لك شركاء في العمل

ابْنِ لك جسرًا من العلاقات مع الآخرين، على تواصل مع المشيخة ومسؤولي المساجد والشؤون الدينية والوجهاء والتجار والمؤسسات، في وسطية واتزان، حتى يعرفوك ويثقوا فيك ويطمئنوا إليك، لتكسب القلوب وتقطع الطريق على الوشاة والحاسدين وتلفيق التهم، من تكفير وتبديع وحزبية وتصنيف ونحوها.

وحاول أن تكسبهم بكل وسيلة مشروعة، ومن ذلك تقديم الهدية لهم، والهدايا مفاتيح القلوب، وقد وردت الأدلة بجواز إهداء المسلم الهدية إلى الكافر والمشرك، والعكس كذلك، فكيف بمن دون ذلك في خلاف منهجي أو فكري ونحوه للمصلحة! وفق الضوابط الشرعية، ولم تكن للمصادمة والصراع يومًا فائدة تعود على الإسلام والدعوة بخير وفوز.

حاول أن تجعلهم يشاركونك همّ العمل الخيري حسبما تراه مناسبًا، بشرط أن تتفطن ألا يترتب على ذلك مفاسد، ومن ذلك إرسال تقرير لمشاريعك، تدعوهم للمناسبات في العمل الخيري، تجعلهم أعضاء أو مستشارين وغير ذلك، كل بحسب المناسبة والمصلحة وعدم المفسدة، وبعض الناس إذا أدنيته من العمل الخيري أفسد عليك عملك لأسباب كثيرة ليس المقام لبسطها.

وصية مالكية ذهبية

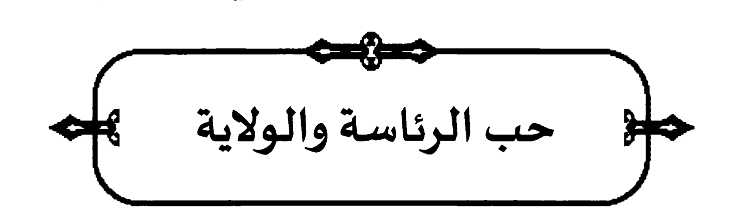
وخذها وصية مالكية عزيزة نفيسة من إمام دار الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

● (ومما نقل عن الإمام أنه أوصى الشافعي عند فراقه له فقال له: لا تسكن الريف فيذهب علمك، واكتسب الدرهم ولا تكن عالة على الناس، واتخذ لك ذا جاه ظهرًا لئلا تستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي سلطنة إلا وعنده من يعرفك، وإذا جلست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة، لئلا يأتي إليه من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك، فيحصل في نفسك شيء)[١].

● ونقل عن سُحْنُون: (وجدت كل شيء يحتاج للجاه بمصر، حتى العلم، أي فلا بد أن يكون العالم ذا جاه)[٢].

*****

(١) شرح مختصر خليل للخرشي (١ / ٣٥).
(٢) شرح مختصر خليل للخرشي (١ / ٣٥).



حب الرئاسة والولاية

احذر حب الرئاسة والولاية والنزاع والصراع عليها.

قال ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[١].

ولا تفسد الأعمال والمشاريع الخيرية إذا لم ترشح لرئاستها، ومن طلب الرئاسة لم يعنه الله عليها، ومن جاءته من غير طلب وعنده القدرة أعانه الله عليها، وزاحم أهل الباطل والكسالى والضعفاء ومن ليس أهلًا لذلك ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤].

● قال الطرطوشي المالكي: (وإذا رأى الأمر في يد الخونة واللصوص، ومن لا يؤدي الأمانة، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية، جاز له أن ينبه السلطان على أمانته وكفايته، ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي رضي الله عنه: من كملت فيه آلات الاجتهاد وشروط القضاء جاز له أن ينبه السلطان على مكانه ويخطب خطبة للقضاء. وقال بعضهم: بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يد من لا يقوم به)[٢].

وطلب الولاية يختلف حكمه بحسب الأحوال والحالات، وانظره مبسوطًا في كتب الفقهاء رحمهم الله.

---

(١) رواه الترمذي (رقم ٢٣٧٦) وقال: هذا حسن صحيح.

(٢) سراج الملوك (٤٤).

● قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما أحبّ أحد الرئاسة إلا حسَد، وبغَى، وتتبَّع عيوب الناس، وكره أن يُذكَر أحد بخير)[١].

● وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا، وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح)[٢].

حبُّ الرئاسةِ أَطغى مَنْ على الأرضِ ... حتى بَغى بَعضُهم فيها على بعضِ

والفرق بين حب الرئاسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله أن الأول يطلبها لتحقيق رغباته، والثاني يطلبها لتحقيق أمر الله وأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

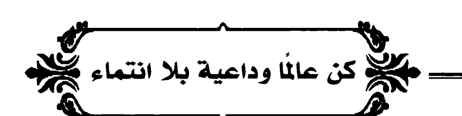
● وعن سفيان الثوري: (كنت أتمنى الرئاسة، وأنا شاب، وأرى الرجل عند السارية يفتي فأغبطه، فلما بلغتها عرفتها)[٤].

● وعنه: (ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى)[٥].

*****

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٥٦٩).
(٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (٨٥).
(٣) الروح (١ / ٣٤٥).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٥٧٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٦ / ٦٤١).



كن عالمًا وداعية بلا انتماء

لا تكن متعصبًا لفكر أو حزب أو مذهب أو شيخ أو طائفة أو بلد، واعمل مع الجميع، وانصح للجميع بحكمة ولطف، دون تشهير أو بغي (والسكوت لا يعني الرضا).

واحذر الميل مع أهل الباطل والظلم والفساد على أهل الحق مهما كان الخلاف مع إخوانك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: ١١٣].

ولا تدفع الأذى عن نفسك لتلحق الأذى بالآخرين ظلمًا وعدوانًا، فإن ذلك من المحرم شرعًا وعقلًا.

والحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، وكن متمسكًا بمنهج السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

وصاحب الحق يدور مع الحق حيثما كان الدليل الصحيح.

ووالله ما الأبصـارُ تنفـعُ أهلَها ... إذا لم يكـن للمبصريـن بصائرُ

والناس لا يفصل بينهم في النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل[١].

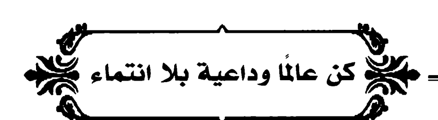
---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٣٣).

جميــعُ أئمــةِ الإســلامِ قالــوا مقــالًا صادقًــا قــد أعملــوه
فكــن ياصــاحِ مقتديًــا بقــومٍ إذا علِمــوا دليــلًا قدمــوه

واحذر أخرى من فجور في الخصومة، فإن هناك موقفًا عظيمًا بين يدي الله.

● قال ابن طاهر: (وسمعت أصحابنا بهراة يقولون: لما قدم السلطان «ألب أرسلان» هراة في بعض قدماته، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه، ودخلوا على الشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وسلموا عليه، وقالوا: قد ورد السلطان، ونحن على عزم أن نخرج ونسلم عليه، فأحببنا أن نبدأ بالسلام على الشيخ الإمام، ثم نخرج إلى هناك. وكانوا قد تواطأوا على أن حملوا معهم صنمًا من الصُّفْر صغيرًا، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا، وخرج الشيخ من ذلك الموضع إلى خَلوته، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري وقالوا له: إنه مجسّم. فإنه يترك في محرابه صنمًا ويقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ على صورته، وإن يبعث السلطان الآن يجد الصنم في قبلة مسجده. فعظم ذلك على السلطان، وبعث غلامًا ومعه جماعة، ودخلوا الدار، وقصدوا المحراب، وأخذوا الصنم من تحت السجادة، ورجع الغلام بالصنم، فوضعه بين يدي السلطان، فبعث السلطان بغلمان وأحضر الأَنصاري، فلما دخل رأى مشايخ البلد جلوسًا، ورأى ذلك الصنم بين يدي السلطان مطروحًا، والسلطان قد اشتد غضْبه، فقال له: ما هذا؟ قال: هذا صنم يعمل من الصُّفر شِبه اللُّعبة. فقال: لستُ عن هذا أسألك. فقال: فعن ماذا يسأل السلطان؟ قال: إنَّ هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا الصنم، وأنت تقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ على صورته! فقال الأنصاري: سبحانك هذا بهتان عظيم! بصوتٍ جَهوري وصولة، فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر



به فأخرج إلى داره مُكرمًا، وقال لهم: اصدقوني القصة أو أفعل بكم وأفعل. وذكر تهديدًا عظيمًا، فقالوا: نحن في يد هذا الرجل في بلية من استيلائه علينا بالعامة، وأردنا أن نقطع شرَّه عنا. فأمر بهم، ووكل بكل واحدٍ منهم، ولم يرجع إلى منزله حتى كتب خطه بمبلغ عظيم من المال يؤديه إلى خزانة السلطان جنَايَة، وسلموا بأرواحهم بعد الهوان العظيم)[١].

يقولون لي أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... ولو ظفروا بي ساعةً قتلوني

واحذر كل الحذر من أن ترد شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ لأجل هواك أو انتصارًا لمذهبك وتعصبًا لشيخك واتباعًا للشهوات[٢].

● قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)[٣].

وأئمة المذاهب الأربعة وغيرهم متفقون على قول: (إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط) ولم يقولوا أقوالًا ليتعصبوا لها أو يطلبوا من أتباعهم التعصب لها والعداوة لمن خالفهم، وحاشاهم ذلك، ولذا نجد عنهم في كثير من المسائل أقوالًا متعددة في المسألة الواحدة وفي المذهب الواحد، وما كان ذلك إلا اتباعًا للدليل، والحق متى لاح لهم تبعوه.

كلُّ الأئمةِ من معينٍ واحدِ ... أَخذوا وما أَخذوا عن الأهواءِ
يَنبوعُهم دينُ النبيِّ محمدِ ... لمّا أَتى بالسنةِ البيضاءِ

● ورد في السير للذهبي عن يحيى بن يحيى التميمي قال: (سمعت أبا

---

(١) ذيل الطبقات لابن رجب (١ / ١٢٧).
(٢) الفتاوى (١٦ / ٥٢٨).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ٦).

يوسف عند وفاته يقول: كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه، إلا ما وافق الكتاب والسنة)[١].

والانتماء للمذاهب الفقهية واتباعها والتمذهب أمر ليس محذورًا شرعًا، وعليه عمل المسلمين، وإنما المحذور التعصب ورفع راية الولاء والبراء والمنابذة للمخالف، وادعاء الحق المطلق فيها.

● قال العز بن عبدالسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعًا، ومع هذا يقلده فيه، ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جمودًا على تقليد إمامه، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالًا عن مقلده، وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس، فإذا ذكر لأحدهم في خلاف ما وطّن نفسه عليه، تعجب غاية التعجب من استرواحٍ إلى دليل، بل لما ألفه من تقليد إمامه، حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه، أولى من تعجبه من مذهب غيره، فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها، فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ولم أهتد إليه! ولم يعلم المسكين أن هذا مقابَل بمثله، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللائح، فسبحان الله! ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمله على مثل ما ذكر! وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان وعلى لسان من ظهر)[٢].

---

(١) (٨ / ٥٣٧).

(٢) قواعد الأحكام (٢/ ١٩٥) ولا شك أن هذا في حق المقلد الذي عنده شيء من المعرفة والنظر،

والحق ليس محصورًا في مذهب دون آخر، بل هو مشترك بين جميعها، فتارة مع هذا، وتارة مع ذاك، يدور حيث يدور الدليل الصحيح، رواية ودراية، مع خلوه عن المعارضة.

ولا يكون همه الحكم بمذهبه، ولا يعتقد أن مذهبه أحب المذاهب إلى الله، وأنه يملك الحق والحقيقة المطلقة، ولا يرجح مذهبًا على مذهب إلا بدليل، والأئمة كلهم على خير.

وقد خالف المتأخرون من كل مذهب أئمتَهم في مسائل لا تحصى، لما تبين لهم من السنة الصحيحة، رواية ودراية، ولا يقال (مذبذب) بل هو مهتد زاده الله، ويبقى الإجلال للأئمة، ومتى لم يظهر للإنسان دليل صحيح خال من الاعتراض الصحيح لمخالفتهم فالتمسك بأقوالهم أولى وأحرى، وهم أقوم في العلم والعمل[١].

واعلم أنه ما من مذهب منها إلا وفيه الحق والصحيح والضعيف، وربما الشاذ وغير المشروع المخالف للقرآن والسنة، ولا ينكر هذا عالم منصف، وكلما رسخت قدم المرء في العلم اتسع أفقه واستنارت بصيرته، وأيقن أن العصمة في الوحي، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد، ولا يمكن لأحد أن يمتلك الحقيقة والحق المطلق سوى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومبدأ (كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد) فيما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الاجتهاد ومطارح الآراء ممن يملكون أدوات العلم والاجتهاد، وليس ذلك لكل أحد.

● قال ابن عبد البر المالكي وغيره من العلماء: (أجمع الناس على أن المقلد

أما العوام فلا يسعهم إلا تقليد مذهبهم أو من يطمئنون إليه في علمه وديانته وأمانته.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٢٥٢-٢٥٣) الموافقات (١/ ٩٢).

ليس معدودًا من أهل العلم)[(١)].

الخلاف باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا ينبغي لنا أن نتأذى منه أو نعجز عن التكيف معه في حدود الخلاف المعتبر.

وصية تيمية:

● جاء بعض الفقهاء من الحنفية إلى ابن تيمية فقال: (أستشيرك في أمر. قال: وما هو؟ قال: أريد أن أنتقل عن مذهبي. قال له: ولم؟ قال: لأني أرى الأحاديث الصحيحة كثيرًا تخالفه، واستشرت في هذا بعض أئمة أصحاب الشافعي فقال لي: ولو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب، وقد تقررت المذاهب، ورجوعك غير مفيد. وأشار علي بعض مشايخ التصوف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه وسؤال الهداية لما يحبه ويرضاه، فماذا تشير به أنت علي؟ قال: فقال له: اجعل المذهب ثلاثة أقسام: قسم الحق فيه ظاهر بيّن موافق للكتاب والسنة، فاقض به وأنت طيب النفس منشرح الصدر، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل، فلا تفت به ولا تحكم به وادفعه عنك، وقسم من مسائل الاجتهاد التي الأدلة فيها متجاذبة، فإن شئت أن تفتي به، وإن شئت أن تدفعه عنك، فقال: جزاك الله خيرًا)[(٢)].

مسألة: هل يجوز للإنسان الانتقال من مذهبه إلى مذهب آخر؟

محل خلاف بين العلماء، والراجح يجوز بثلاثة شروط:

١- ألا يجمع بين المذهبين على صفة تخالف الإجماع وهو ما يسمى بالتلفيق.

٢- ألا يتتبّع الرخص.

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٦).

(٢) المصدر السابق (٦ / ١٦٥) وهل الالتزام بمذهب معين واجب؟ محل خلاف: قيل: يجب. وهو وجه عند الحنابلة، وقيل: لا يجب. وهو مذهب المالكية والشافعية والحنابلة.

٣-أن يعتقد رجحان مذهب الغير في هذه المسألة، فيجوز اتّباعًا للراجح في ظنّه[1].

وقد وجد هذا في العلماء على مر التاريخ، فالطحاوي كان شافعيًّا ثم تحول حنفيًّا، والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر كان حنبليًّا ثم تحول شافعيًّا، وسيف الدين الآمدي الأصولي المشهور اشتغل في مذهب الحنابلة ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وابن دقيق العيد كان مالكيًّا كأبيه ثم تحول إلى مذهب الشافعي، ومحمد بن أحمد بن نصر الترمذي كان حنفيًّا ثم صار شافعيًّا، وابن حزم كان شافعيًّا ثم صار ظاهريًّا، وأبوحيان كان ظاهريًّا ثم صار شافعيًّا، وابن الدهان النحوي كان حنبليًّا ثم حنفيًّا ثم شافعيًّا[2]. وغيرهم كثير، ولم ينكر عليهم في ذلك، وهناك أسباب لهذا التحول ليس المقام لبسطها وترجع إلى سببين رئيسين: ديني ودنيوي.

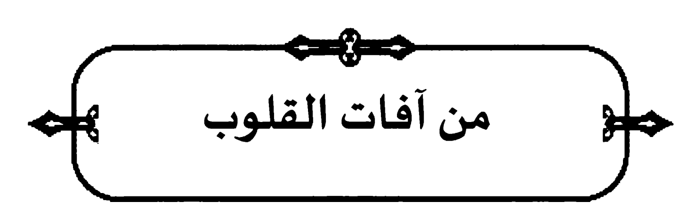
واعلم - رحمك الله - أنه متى وجدت قولًا ووجهًا في مذهبك موافقًا للدليل فتمسك به؛ لأنك لا تعد بذلك مخالفًا للمذهب ولا الدليل، فجمعت بين الأمرين، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذ بها، وطالب العلم أولى الناس بالعقل والحكمة.

*****

---

(١) فتح المعين(٤ / ٢١) الفواكه الدواني (١ / ١٦٤) الفتاوى الحديثية لابن حجر (٣٨) إرشاد الفحول (٢ / ٢٣٥).

(٢) جزيل المواهب في اختلاف المذاهب للسيوطي (١٢).



من آفات القلوب

واستعذ بالله أخرى من الحسد لكل ناجح في مشاريعه، ولكل من وضع القبول له في قلوب الناس والإقبال عليه، فهذه منن ونعم من الله يؤتيها من يشاء، واختبار وابتلاء له ولغيره.

ولا تلتفت لأولئك الحاسدين والواشين للناجحين في مشاريعهم فيما يقولون ويفترون، وأن تكون في معسكرهم بتبريرات وأهواء ظاهرها الرحمة والحق ونصرة الإسلام وباطنها الحسد والبغي، فأنت أرقى وأسمى من أن تدنس إيمانك وتقواك وضميرك ومبدأك وأخلاقك وإنسانيتك وتعطل مشاريعك، والموعد عند الله، وعند الله تجتمع الخصوم.

احذر من الانتصار للنفس تحت ستار الانتصار للحق.

لو تأملت في خصوماتك في الحياة لوجدت أن مكاسبك لا تستحق ذلك العناء والتعب والصراع والمناكفة.

والنفس المشغولة بتقييم الآخرين والحكم عليهم تؤذي نفسها قبل غيرها، فتثقل قلبها بالضغائن وتملأه بالأحقاد، وقلّ أن تسلم من الكبر، وأشد من ذلك غفلتها عن نفسها. والحقيقة متى كنت مشغولًا بهدم غيرك فلن تجد الوقت لبناء نفسك.

● يوصيك ابن حزم بقوله: (فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها وعن عيوب غيره التي لا تضره لا في الدنيا ولا في

الآخرة)[١].

ودونك هذا الخبر عظة وعبرة لمن تدبر وتفكر:

● ذكر ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الزبيدي القاضي الشافعي شرح «التنبيه» في نحو من عشرين مجلدًا، ودرس وأفتى، وكثر طلبته واشتهر ذكره وبعد صيته، شوهد عند وفاته وقد اندلع لسانه واسودّ، فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محيي الدين النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى)[٢].

● قال تقي الدين: (وليس لأحد أن يتكلم في أحد بلا علم ولا بهوى النفس، فإن الإنسان مسؤول عن ذنوب نفسه لا عن ذنوب غيره)[٣].

والواجب على طلاب العلم والدعاة مراقبة النفوس ومعالجتها بأكثر من معالجة الأبدان، فأمراض القلوب هي الفتاكة التي إذا وقعت أصابت بمقتل.

إن من المحزن أن ننصب أنفسنا جلادين لغيرنا، ومن المؤسف أن نُطلق الأحكام جزافًا لمجرد خبر سمعناه، ولم نتحر عن حقيقته، ومن الكارثيّ أن ننشر ما نظنه في الناس عيبًا، ففي الأمر غيبة محرّمة وفتنة ذائعة، وفيه فضح لمسلم أو مسلمة، فمن كانت نواياه الخير والإصلاح فبإمكانه أن ينصح في السّر.

دعونا نُحي النخوة فيما بيننا، ونتنشل المروءة المُغيّبة.

دعونا نغدُ أرقى مما تعودنا عليه.

دعونا نثبت أن في جيلنا خيرًا وأخلاقًا وفضائل وسموًّا.

---

(١) الأخلاق والسير (٦٧).

(٢) الدرر الكامنة (٥ / ٢٣٣).

(٣) جامع المسائل (١/ ٣٩٥).

لننفض الغبار عن الخير في مجتمعنا، وننزع عنه هذه الصفة المقيتة التي لازمته دهورًا.

قليل من العزيمة يكفي لهدم كثير من المستعمرات في قلوبنا وإزالة كثير من المشاريع التدميرية لأمتنا.

إن مهمة الأجيال الحاضرة الواعية تنقية الأمة من تلك الشوائب والرقي والسمو بها.

وذو العقل يأتي جميل الأمور ويقصد للأرشد الأرفق

● قال الذهبي في ميزان الاعتدال: (كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)[1].

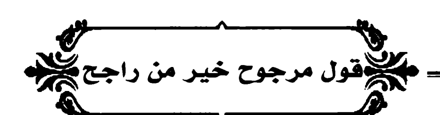
● وقال الغزالي في بداية الهداية: (يقطعون عليك بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويحصون عليك عثراتك في عشرتهم، حتى يجابهوك بها في حال غيظهم ومناظرتهم، لا يقيلون لك عثرة، ولا يغفرون لك زلة، ولا يسترون لك عورة، يحاسبونك على النقير والقطمير، ويحسدونك على القليل والكثير، ويحرضون عليك الإخوان بالنَّمِيمَة والبلاغات والبهتان)[2].

*****

---

(١) ميزان الاعتدال (١/ ١٣٦).

(٢) بداية الهداية (٦٨ - ٦٩).



قول مرجوح خير من راجح

حاول ألا تظهر المخالفة فيما عليه الفتوى السائدة في بلدك، إذا كان يترتب عليها تشنيع عليك ونفرة منك، وتصنيف لك، وتعطيل لمشاريعك، وعدم تمكينك من تولي الإمامة في المساجد وخطبة الجمعة، وإحداث فتنة وفوضى، خاصة في المسائل التي يسعها الخلاف والمسائل المشتهرة التي يعرفها العوام قبل طلاب العلم، كمسألة المسح على الخفين من القماش، والجهر بالتأمين، والقنوت في صلاة الفجر، وقبض اليدين في الرفع من الركوع، ورفع اليدين في غير تكبيرة الإحرام في الفريضة والجنازة، وجمع الصلاة حال المطر، وسدل اليدين في الصلاة، والتورك، والتسبيح بالمسبحة، وزكاة الفطر نقودًا، ورؤية الهلال في شهر رمضان والعيد وغيرها.

● قال ابن عابدين: (وكلام القرافي دالٌّ على أنّ المجتهد والمقلّد لا يحلّ لهما الحكم والإفتاء بغير الراجح، لأنّه اتّباع للهوى، وهو حرام إجماعًا. ويقول: وبه عُلِمَ أنّ المضطرّ له العمل بذلك لنفسه كما قلنا، وأنّ المفتي له الإفتاء به للمضطر)[١].

ولقد كان بعض أهل العلم من المتقدمين يفتي بخلاف ما عليه مذهب بلده كفتوى خاصة لمصلحة راجحة ودرء مفسدة متحققة، وبقول له دليله واعتباره وقوته، لا بقول شاذ ومستنكر[٢].

واعلم أن الأخذ بقول مرجوح في نظرك تنزلًا خير من قول راجح تترتب

---

(١) رسائل ابن عابدين (١ / ٥٠).

(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٦/ ٤٤٧) ويذكر هذا عن المجد في مسألة الطلاق بالثلاث.

عليه مفاسد ويعود على ضروريات الدين بالإخلال والضعف، وقد قيل: (لا يؤتى الدين من قِبلك) وليس من الحكمة القول بخلاف الحق، لكن من الحكمة السكوت عن بعض الحق، فتأمل.

● ورد في السير أن محمد بن رافع قال: (كنت مع أحمد وإسحاق عند عبد الرزاق، فجاءنا يوم الفطر، فخرجنا مع عبد الرزاق إلى المصلى لصلاة العيد، ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا دعانا عبد الرزاق إلى الغداء، ثم قال لأحمد وإسحاق: رأيت اليوم منكما عجبًا؛ لم تُكبِّرا! فقال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر، كنا ننتظر هل تكبر فنكبر، فلما رأيناك لم تكبر أمسكنا. قال: وأنا كنت أنظر إليكما هل تكبران فأكبر)[1].

ها هو الفقه السديد، ترك بعض السنن حفاظًا على الود ومنعًا للخلاف.

فما أعظمه من فقه وحكمة! ها هي عقول العلماء والكبار.

وهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك قتل المنافقين لمصلحة أعظم وهي الائتلاف، وقتلهم واجب لدفع شرهم وأذاهم وخيانتهم للمسلمين، ولكن ترك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الواجب لمصلحة أعظم.

ترك العمل بالقول الراجح لمصلحة التأليف أمر مشروع، وشواهد الشرع عليه تؤيده وتنصره.

الراسخون في العلم هم أهل الاعتدال، يعظمون السنة وينزلونها منزلتها في الحكم، من حيث الوجوب والاستحباب، ويفرقون بين السنن الظاهرة والخفية في ظهورها وإظهارها المترتب عليه مفسدة، وبين ما هو محل اتفاق

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٢٤).

وما هو محل خلاف معتبر، ويرشدون للسنة بدون الجزم بحرمة المخالفة حين الخلاف والإنكار، ويأخذون الناس بما يصلحهم ويؤلف بينهم لا بما يفرقهم .

والناس في الآداب في السنة ما بين غال وجاف ومعتدل ، والراسخون هم أهل الاعتدال.

● هذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلى بالصحابة في منى إتمامًا، وأتم ابن مسعود مثله وهو يرى القصر، فلما سأله الصحابة لماذا أتممت وقد عبت على عثمان؟ فقال: (الخلاف شر)[1].

درس عظيم للأمة، راعى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلاف واحتواه، واختصر الموضوع في هذه القاعدة العظيمة، ودرأ الفتنة، وانتهى الجميع.

فما أحوج الأمة لهذا الفقه، وهي تعيش أنواعًا من الصراع والخلاف، فما بال بعض طلاب العلم يفرقون الأمة لأجل بعض السنن والواجبات، وربما كانت من المختلف فيها، ويتجاهلون مقصد الاجتماع والائتلاف!

رويدًا رويدًا!

هل نحن أغير من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تطبيق السنن!

إن أعداء الدين يتحينون أي فرصة على داعية أو طالب علم ليجدوا غطاءً لذم الدين، فلا تكن أنت البوابة للمز الدين وأهله أو انتقاصهم أو تشويه سمعتهم، وذلك بسبب كلمة لا تحسب لها أو مقطعٍ لم تراع فيه مكانتك وعظيم رسالتك والمصالح العامة والحكمة.

---

(١) رواه أبوداود (رقم ١٩٦١).

إن علينا أن ننظر إلى الكليات في الدين وشعائره العظيمة والتركيز عليها تعليمًا وعملًا، والنظر إلى الجزئيات وتعليمها، دون الانشغال بها وعقد الإنكار والخلاف عليها وعدم التنازل عنها، وإن أدت إلى تعطيل الكليات وإنهاك القوة المسلمة شعوبًا ودعاة.

إن مشكلتنا في تضييع العمر في طلب الإجماع على مسائل لا تقبل بطبعها وحدة الرؤية.

فتأمل وتدبر رحمك الله.

إن علينا ألا نجعل الخلاف سببًا في كثير من تضخيم الأحداث والانتقام الشخصي، والحقيقة أحيانًا ليس الخلاف لذاته وإنما ما وراء الخلاف من حظوظ النفس من الحسد والضغينة، واستجلاب المنافع الخاصة والاستجابة للإملاءات.

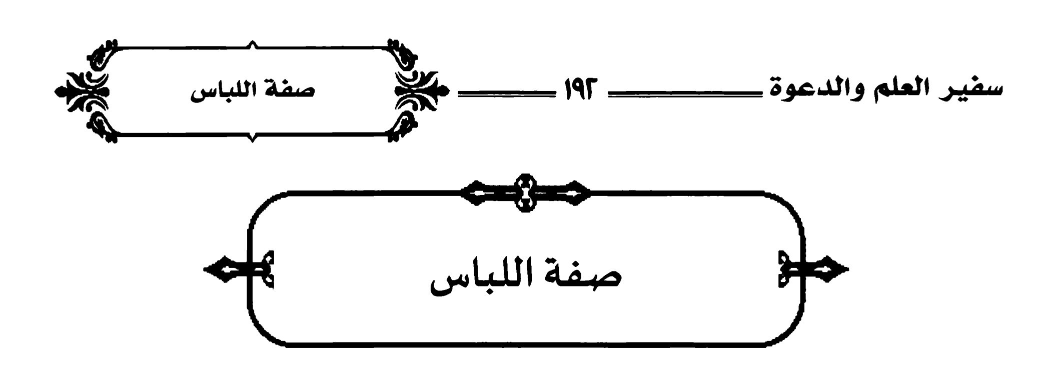
والله من وراء القصد، والعالم بالنوايا، ويوم القيامة يظهر المخفي في الضمائر، فليعد كل واحد للسؤال جوابًا يوم العرض على الله.

إن مشكلة بعض من هم في ميادين الخير، يدّعون المدافعة والمحاكمة على المبادئ، وهي في الحقيقة تدافع وتحاكم على المصالح والبقاء والقيادة والاستعلاء.

● قال تقي الدين: (وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله)[1].

*****

(١) الفتاوى (٢٨ / ٢٠٧).



صفة اللباس

واعلم: أن الالتزام باللبس المعتاد لأهل البلد مطلب مهم، لأن الالبسة من قبيل الأعراف والعادات، إلا ما كان منصوصًا عليه بالتحريم أو مرتبطًا باعتقاد غير المسلمين، فيحرم للتشبه بهم وقد نُهي عنه، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[1] والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخالف لباس قومه وبلده.

واحذر أن تتميز في لباسك مما يجعل الناس ينفرون منك ولا يقبلون عليك، فإن ذلك في بعض البلدان له اعتبار ومقياس.

● واسمع لابن حجر منبهًا بقوله: (إن الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة كان أدعى لانبساط النفس إليه، فيقبل قوله ويحمد رأيه، والعكس بالعكس)[2].

*****

(١) رواه أبو داود (رقم ٤٠٣١) وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٠/ ٢٧١).

(٢) فتح الباري (٢/ ٣١٦).

قيِّم وقوِّم

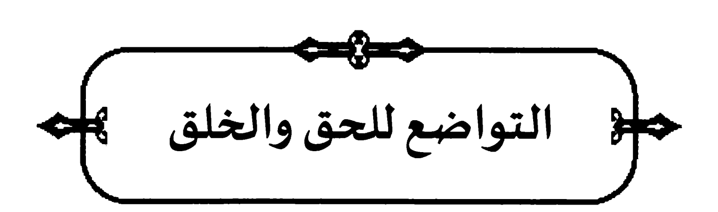
قيّم وقوّم نفسك وأعمالك دائمًا في مراجعات مستمرة، واقبل النقد البناء، فإن السكوت عن الأخطاء يشجّع على تكرارها، وترك الداء بلا دواء يؤدي إلى قتل الجسد، والنقد لا يعني انتقاصك، علينا أن ننظر إلى أنه نوع من التكامل والتواصي على الحق، والعلم رحم ورحمة بين أهله، عميق الجذور متين القواعد، وهذا يجعلنا نقبله ونتلقاه بكل طمأنينة ورضا، وقليل من الناس من يقبل نقد ومراجعة أفكاره ومشاريعه، فمن يملك الشجاعة في ذلك!

وبعض الناس يملك مناعة خاصة ضد آلام التجربة التي يمر بها، ولا يخضع لنصح الآخرين ونقدهم، ومن أعظم النجاح التفوق على الذات ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] إنه شعور يوحي بأن العلم لا نهاية له، والشعور بالنقص مهما بلغ الإنسان من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

سجل بعض خطبك ومحاضراتك وانقد نفسك وطورها، ولا تخف من النقد، ولا يمنعك من العمل، فلن تخطئ حتى تعمل، ولن تطور نفسك إلا بالعمل، وكل الكبار كانوا صغارًا، وكل العلماء كانوا طلابًا، فلا تضجر ولا تقلق ولا تقف عن العمل بسبب الأخطاء والنقد.

كن ذكيًا فطنًا، فإن ذلك من أهم عوامل النجاح في حياة طالب العلم والداعية إلى الله، ففي كثير من أموره يحتاج إلى الذكاء والفطنة وألا يكون مغفلًا، وإلا وقع في كثير من المشكلات والعقبات والمكائد والمصائد، وما أكثر المتربصين به.

*****



التواضع للحق والخلق

والتواضع طريق القبول في السماء وفي الأرض، لا تحقرنّ أحدًا، وتواضع للجاهل وللصغير والكبير، ولا ترى لنفسك علوًّا ورفعة وتميزًا على الآخرين، وأنزل الناس منازلها، وارفع من شأن إخوانك طلاب العلم والدعاة، وقدمهم في المحافل واللقاءات، والتعريف بهم عند من يجهلهم والثناء عليهم وعلى علمهم وأعمالهم، وهي صفة عظيمة ودليل على خلو القلب من حظوظ النفس، ومجاهدتها على ذلك وبرهان العقل والسمو، وتفخيم الأصحاب دليل على فخامة الذات وعظمتها.

● ورد عن عبيد بن جناد أنه قال: (ما رأيت أحدًا مثل ابن المبارك، إذا ذكر أصحابه فخّمهم يقول: وأين مثل فلان! ثم يقول: الرفيع من يرفعه الله بطاعته، والوضيع من وضعه)[١].

ويفخّم أصحابه؛ أي يثني عليهم، وينشر محاسنهم، ويذكر أعمالهم وأمجادهم وأفضالهم، ويعتزُّ بهم[٢].

وقد رأيت من أهل العلم من يثني على طلابه ويقدمهم في المجالس، ويزكي سمتهم وعلمهم، ويحيل عليهم في الفتوى والقراءة عليهم، ويناقشهم في مسائل العلم، ويناديهم بالألقاب العلمية الجميلة والراقية.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٦٩).

(٢) فائدة وورد في الأثر: (وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخماً مفخماً) رواه البيهقي في الدلائل، قال البغوي في شرح السنة: والمعنى: كان عظيم القدر معظمًا في الصدور والعيون.

● قال يحيى بن معين: (ما رأيتُ مثل أحمد، صحبناه خمسين سنة فما افتخر علينا بشيء ممَّا كان فيه من الخير)[١].

● وقال رجل للإمام أحمد: (جزاك الله عن الإسلام خيرًا! فقال الإمام أحمد: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا، مَنْ أنا! وما أنا!)[٢].

● وكان الإمام أحمد إذا جاءه الشيخ والحدث من قريش وغيرهم من الأشراف، لا يخرج من باب المسجد حتى يخرجهم، فيكونون هم يتقدمونه ثم يخرج بعدهم[٣].

● ومسح رجل يده على أحمد ثم مسح بها على بدنه، وهو ينظر، فغضب غضبًا شديدًا وجعل ينفض يده ويقول: عمن أخذتم هذا! وأنكره إنكارًا شديدًا[٤].

● وقال رجل: (لا يزال الناس بخير ما منّ الله عليهم ببقائك! فقال: لا تقل هذا، ومن أنا في الناس!)[٥].

● وكان إذا ذكر أحوال الورعين يقول: (أسأل الله ألا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء! وقيل له: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عينه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا، أسأل الله أن يجعلني خيرًا مما تظنون، وأن يغفر لي ما لا تعلمون. وقيل له: إنك لم تزهد في الدراهم وحدها، بل زهدت في الناس! فقال: ومن أنا

---

(١) سير سلف الصالحين للأصبهاني (١٠٥٩).
(٢) مناقب الأمام أحمد (٣٦٨).
(٣) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١ / ٨٠).
(٤) المصدر السابق.
(٥) مناقب الإمام أحمد (٣٦٩).

حتى أزهد في الناس! يريدون أن يزهدوا فيَّ)[١].

وإياك أن تسخر من شخص أخطأ في مسألة، أو خطيب أخطأ في أسلوب أو فكرة، أو مترجم ترجم كلمة أو مقالًا فأخطأ في ذلك، فلا يكن همك إلا النقد والهمز وتتبع أخطاء الناس، فإنك قد تبتلى في ذلك بفقد العلم الذي تعلمته، أو تصاب بفتنة القول والهوى والانحراف العقدي والفكري والأخلاقي وغير ذلك، فكن معلمًا وهاديًا، صاحب رحمة وشفقة بالنظر إلى من أخطأ، وهذا من أعظم ما يتحلى به سفير العلم والدعوة، والمؤمن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به[٢].

واحذر من عدم الانصياع للحق والإعراض عنه.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[٣] ومعنى الحديث: بطر الحق يعني رده، وغمط الناس يعني احتقارهم، فهو في نفسه عالٍ على الحق، وعالٍ على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق، والعياذ بالله.

● قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيرًا، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم)[٤].

● وقد روي عن الإمام أحمد أنه قيل له: (إن عبد الوهاب الوراق ينكر كذا وكذا! فقال: ما نزال بخير ما دام فينا من ينكر هذا. ومن هذا الباب قول عمر

(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (١ / ٨٠).
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٣٥).
(٣) رواه مسلم (رقم ١٤٧).
(٤) رسائل ابن رجب (٢ / ٤٠٤).

لمن قال له: اتق الله يا أمير المؤمنين! فقال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم)[١].

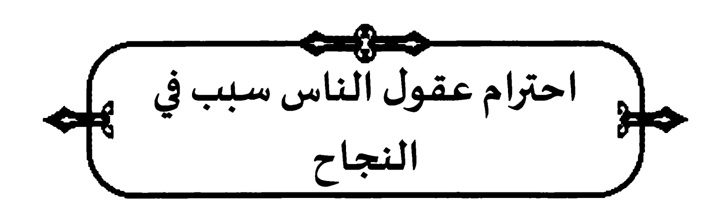
والحقُّ مثلُ الشمسِ يجملُ ضؤوهُ ... للمبصريـــنَ ولا يـــروقُ لأرمدِ

● قال الشوكاني: (إن الرجوع إلى الحق يوجب لصاحبه من الجلالة والنبالة وحسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والإزراء عليه والاستصغار لشأنه، فإن منهج الحق واضح المنار، يفهمه أهل العلم ويعرفون براهينه، ولا سيما عند المناظرة، فإذا زاغ عنه زائغ تعصبًا لقول قد قاله أو رأي رآه، فإنه لا محالة يكون عند من يطلع على ذلك من أهل العلم أحد رجلين: إما متعصب مجادل مكابر، إن كان له من الفهم والعلم ما يدرك به الحق ويتميز به الصواب، أو جاهل فاسد الفهم باطل التصور، إن لم يكن له من العلم ما يتوصل به إلى معرفة بطلان ما صمم عليه وجادل عنه، وكلا هذين المطعنين فيه غاية الشين. واعلم أنه كما يتسبب التعصب في محق بركة العلم وذهاب رونقه وزوال ما يترتب عليه من الثواب، كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وتمزيق الأعراض واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل، وقد لا يخلو عصر من العصور ولا قطر من الأقطار من وقوع ذلك)[٢].

*****

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أدب الطلب (٨٩).



احترام عقول الناس سبب في النجاح

اجتهد وجد في دروسك وخطبك وأعمالك وحضّر جيدًا، واحترم عقول الناس فيما تقول لتكن ناجحًا متميزًا، ولكي يحترم الناس قولك وفعلك.

واحذر أن تكون ضعيفًا في التحضير والإعداد فيزهد الناس فيك، وفيما تقول وتفعل، وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى، وابتناء المناقب باحتمال المتاعب.

إن مما أورث الناس السآمة أن أكثر ما يسمعونه أقل أهمية مما ينبغي أن يسمعوه، ولا يعني ذلك أن يتوقف الإنسان حتى يقوى ولكن يعمل، ويزداد كل يوم قوة ومعرفة وتطويرًا لنفسه ومشاريعه.

ولقد أدركت بعض العلماء إذا لم يحضّر للدرس في ذلك اليوم يجعل وقت الدرس الجديد كله مراجعة لما مضى احترامًا للطلبة، وقد قصدوه، وأدركت من يجتهد في إعداد الكتاب و المحاضرة أشهرًا، وربما سنة، فإذا خرجت أقبل الناس عليها إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم القائظ .

*****

حلاوة المعاناة

لا يفيد الإنسان ولا يبرع في فن من الفنون حتى يذوق المعاناة، يحترق بنار الجهد والدأب ليكون عطاؤه نابعًا من قلبه ووجدانه.

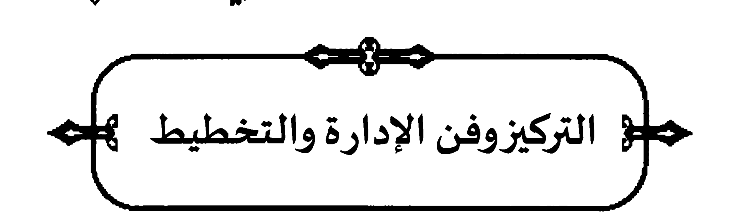
وربما تجد بعض الكلمات والخطب والدروس وغيرها جثثًا هامدة، لا روح فيها، لأنها قدمت بلا تعب و معاناة، فخسرت قيمتها وتأثيرها ووقعها.

إن الإكثار شيء والجودة شيء آخر، فعلى الباردين في عواطفهم وإعدادهم أن يعيشوا معاناة ما يحملون وهمَّ ما يريدون حتى يصلوا إلى ما يريدون، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملًا.

يذكر أن خطيبًا قام على المنبر يوم الجمعة فالتفت ووجد شخصًا نائمًا فقال لمن حوله: أيقظوه. فرد عليه أحدهم قائلًا: أنت الذي كنت سببًا في نومه، فأنت الذي توقظه. أي أن أسلوبك كان سببًا في غفلة الناس ونومهم.

ابدأ في المساجد والخطب والدروس بتفسير الآيات والسيرة النبوية وسيرة الصحابة والأخلاق والمظاهر الاجتماعية في الإسلام، مع مراعاة لحال بلدك، ومن ثم علّم الناس العقيدة من خلال الآيات القرآنية والسنة النبوية، وابتعد عن الكتب والأسماء التي تسبب لك مشكلات واتهامات وتصنيفات، وتعطل عملك ومشاريعك ورسالتك، والتلميح يغني عن التصريح.

*****



التركيزوفن الإدارة والتخطيط

التركيز: هو نقطة الانطلاق للعلياء وبناء المجد وبلوغ الأمل والإبداع والتميز.

التركيز والتخصص من أسباب النجاح والإتقان، ركز وتخصص في عمل من الأعمال الإسلامية الخيرية (علم وتعليم، دعوة وتربية، إغاثة وإعانة) وانطلق من خلاله، ولا تشتت نفسك، كل يوم في طريق وتخصص ومشروع وفكرة (لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع) ولا يمنع أن يكون للإنسان مساهمة في بعض المشاريع لكن بشرط ألا تعطل وتعارض مشروعك التخصصي.

إن المشاريع في الأمة منذ أول مشروع قام به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا وإلى يوم القيامة هي نتيجة لقضية التركيز وعدم الشتات.

كيف خرجت أمهات العلم (الكتب الستة والمسانيد وشروحها في السنة النبوية، والكتب الفقهية؛ المبسوط والبيان والتحصيل والمجموع والمغني)؟

نتيجة التركيز والتخطيط.

كيف قامت الدول ونهضة الأمة؟

نتيجة التركيز والتنظيم.

كيف قام العمل الدعوي بمؤسساته وأدواته؟

نتيجة التركيز والتنظيم.

كيف حفظ الناس القرآن وكتب السنة؟

نتيجة التركيز والتنظيم.

فما رقمك في مشاريع الأمة؟

وما اسمك في تاريخ الناجحين؟

كن صاحب مبادرات ومشاريع وأفكار وعمق في التفكير والتخطيط، واجعل أعمالك تقوم على بناء مؤسسي متكامل، وابتعد كثيرًا عن الفردية قدر المستطاع، فإن ذلك أدعى للاستمرار وقوة البناء وجودته، وانتشار النفع، وأقل في المخاطر.

اقرأ كتبًا في الإدارة والتخطيط، والتحق بدورات في فن الإدارة والتواصل وتنمية المهارات وإدارة الوقت، واستفد من القادة والمديرين الناجحين، فما زال العمل الدعوي والعاملين فيه ينقصهم كثير من ذلك، والوسط مطلب لا إفراط وإغراق،ولا تفريط في ذلك.

إنّ بـينَ التفريـطِ والإفـراطِ مَسْـلكًا منُجيًا مـن الإيراط[1]

إن معرفة وتعلم بعض المهارات تفتح لك آفاقًا في العمل المهني إذا عدت إلى بلدك من تعلم بعض اللغات الحية، والحاسب الآلي، وترجمة الكتب، والإدارة ونحوها لتكون رافدًا من روافد الاكتساب والرزق.

استفد من التقنية والوسائل الحديثة في نشر الخير، افتح لك قناة يوتيوب، فيس بوك، تويتر، وهكذا وكما يقال: (الدعوة الالكترونية) واحذر أن تنساق أو تجر من خلالها لما لا تحمد عقباه.

---

(١) الإيراط: الهلكة.

ووسائل التواصل اليوم لم يمر على البشرية مثلها في السرعة والانتشار، تقول كلمة من الخير، تبلغ الآفاق فتأتيك الأجور من أصقاع الأرض، وتقول الكلمة والفتوى الخاطئة جهلًا وهوى فتتابع عليك الآثام من المعمورة إلى يوم القيامة.

*****

التفكير وتحليل التاريخ
ضرورة ملحة

إن واقع الأمة اليوم وما يكتنفه من التعقيدات والتحديات يلزمنا إلى ضرورة التفكير الفعّال في حل كثير من التحديات، حتى لا نصل إلى طرق مسدودة، ولا نضع الفرص المتاحة.

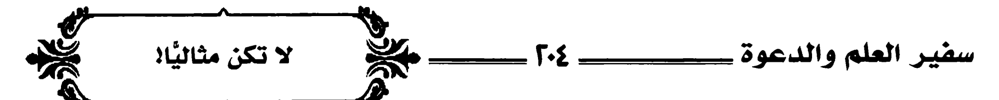
إن كثيرًا مما حل بالأمة كان سببه البعد عن التفكير والنقد الإيجابي مع التصلب العقلي في كثير من القضايا القابلة للاجتهاد، والتي يمكن أن يتنازل عنها تحت قاعدة المصالح والمفاسد دون الإخلال بقضايا الدين الكبرى وأركانه العظام والمبادئ الأساسية.

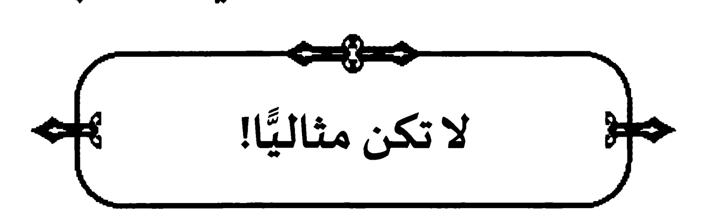
ولا تعارض بين التربية والتعليم والفكر.

إن واقع الأمة عبر التاريخ مليء بالدروس والعبر، ولم نستفد من ذلك التاريخ الحافل على جميع المستويات والأصعدة سوى الحفظ والتذكر لا التحليل والتفكر، وهو من أكبر الأخطاء التي تمر بها الأمة، والسكوت عن الأخطاء يشجع على تكرارها.

ألـــم تـر أن العقـــل زيـن لأهلـه	وأن كمـال العقل طول التجارب
وقد وعظ الماضي من الدهر ذا النُّهى	ويــزداد في أيامــه بالتجــارب

*****





لا تكن مثاليًّا!

لا تكن مثاليًّا في مشاريعك فتنصدم بالواقع فتخسر وتحبط نفسيًّا وتتعثر، ولكن ينبغي معايشة الواقع مع السعي لتحقيق التميز والمثالية في العمل.

وكم حجب طلب الكمال جليل الأعمال، ومنع الأحسن فعل الحسن، والإتقان لا حد له والأخطاء تصحح مع الزمن.

عليـــكَ بأوســـاطِ الأمـــورِ فإنّها ... طريـــقٌ إلى نهجِ الصّـــوابِ قويمُ

ولا تكُ فيهـــا مُفرِطًـــا أو مفرّطًا ... كِلا طـــرفي قصدِ الأمـــورِ ذميمُ

*****

الفأل الفأل

كن متفائلًا، والتفاؤل لا يأتي إلا بخير، واحذر اليأس مهما كانت العقبات والضغوطات، قال الله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠] والتفاؤل لابد أن يكون معه الجد والعمل، ولا يكفي وحده، كما أن التمعّر والتأثر لحال المسلمين لا يكفي وحده بل لابد من الجد والاجتهاد وبذل السبب.

وأكثر الناس تفاؤلًا بنصرة هذا الدين أكثر الناس جدًّا واجتهادًا وإنجازًا في نصرته، وأكثر الناس يأسًا وشكوى أكثرهم قعودًا وكسلًا.

تجاوزوا العقبات وعانقوا التحديات بالإيجابيات والتوكل على الله، وأن الأمر بيد الله، ولا يحصل شيء في الكون إلا بأمر الله، وهو اللطيف الخبير، فلا خوف ولا قلق.

عليكم بالهمة العالية والعزيمة الماضية والنفس الصادقة ، جددوا أهدافكم وأرواحكم وعزائمكم ونياتكم، أنتم البناة والحُدَاة والسُّرَاة والهداة والحماة، أوقدوا السُّرُج والمصابيح.

أيها القاعدون:

ما مشاريعكم وأهدافكم التي تريدون بذلها للإسلام ونصرته؟

إن الذي يبصر النور ليس كالذي يبصر الظلام.

والذي يرى بعين الفأل ليس كالذي يرى بعين اليأس. فاحذروا اليأس

وهُبّوا للجد والعمل.

كـنْ واثقًا كـنْ مؤمنًا كـنْ آمنًا	كـنْ ليّنًـا كـنْ دائمَ البَسـماتِ
كنْ كالشّـذا العِطـرِ المُعطّرِ غيرَه	كنْ شُـعلةَ الإيـمانِ في الظلمات

إن على العلماء دورًا مهمًّا في قيادة الأمة والأخذ بيد الناس، وشحذ هممهم، وبثّ الأمل والثبات في نفوسهم، وحسن الظن بالله في هذه الأوقات الصعبة التي تمر بها الأمة، وذلك على نهج القرآن وسيرة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [الشرح: ٥].

إن أحوج ما تكون الأمة للعلماء والدعاة حينما تصاب باليأس وتتكالب عليها الفتن، لأنه قد جاء دورهم الأعظم، فحال الرخاء ليست كحال الشدة، ولأنه ليس من حسن العهد التقاعس حين الفتن، ومن أغلق دونه باب فيفتح الله له ألف باب، والمباح من الأبواب كثير.

ولا تلج من الأبواب ما كان ممنوعًا ومغلقًا.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»** قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: **«يَتعَرَّضُ مِنَ البَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»**(١).

ولا تلتفت لليائسين والمحبطين والمتشائمين، والداعين للعزلة، وأبصر بعينك وقلبك إلى ذلك الثواب العظيم وليكن لك سلف في من سلف من السلف رَحِمَهُمُ اللهُ بلا ضرر ولا تهلكة وإنما بالحكمة والتؤدة. إن تقاعس أهل العلم والحق وانشغل بعضهم ببعض فسيتقدم أهل الباطل والخرافة وأهل الجهل وأنصاف العلم، ويبثون سمومهم في الأمة ويغشونها في أغلى ما تملك.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢٥٤) وقال: حسن غريب. وهو مختلف في صحته.

المال القوة الناعمة

لتكن النظرة إلى المال وجمعه نظرة وسطية، لا تنظر إلى الدنيا وحطامها فما عند الله خير وأبقى، ولا تُعجِز وتعتمد على كفالة أو منحة في أي يوم تنقطع لأي سبب من الأسباب وتكون رهينًا لها فيما تقول وتفعل، واليد العليا خير من اليد السفلى، والسعي في تحصيل الرزق يحفظ على الرجل دينه ومروءته وعرضه ويصون به نفسه ويستغني عن الخلق.

فإن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كانوا يعملون بقدر حاجتهم حتى لا ينشغلوا عن طلب العلم وتبليغ دين الله، وكان للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ دكان يبيع فيه، والإمام الآجُرّيّ نسبة إلى عمل الآجُرّ[1] وبيعه، والباقلاني نسبة إلى بيع الباقلاّء، والجصاص نسبة إلى بيع الجِصّ وتبييض الجدران.

وغيرهم كانوا يحترفون الصناعات، فذاك الخياط والحذّاء والنجّار والخطاط والكتبي والفراء والزيات والخراز والخواص والخباز والصبان والقطان والسمّان والصوّاف. وكان الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعمل في إصلاح الساعات، وليس ذلك بعيب.

وقبل ذلك كله كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنّاءً، وقيل إن إلياسَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان نسّاجًا، وكان داودُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حدادًا يصنع الدروع، وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ راعيًا للغنم، وكذا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) وهو الطين يشوى بالنار ويستخدم في البناء، ويعرف باللبن المشوي وبالقرميد.

ورد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ**»[1].

ومعنى هذا الحديث: حين خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاربًا من مكة ومعه بلال، و كان مع بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الطعام ما يحمله تحت إبطه.

إنه تسلية لطلاب العلم والدعاة أمام المغريات والابتلاءات.

قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦].

إن المال مصدر قوة في يد العالم وطالب العلم في استمرارية تعليمه ونشره للإسلام، وقد قيل إن المال (القوة الناعمة).

● ويروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مكسبة فيها بعض دناءة خير من مسألة الناس، ولولا هذه البيوع لصرتم عالة على الناس)[2].

المال عصب الدعوة إلى الله، ولذا فكر مع إخوانك في الاستثمار والوقف من أجل استمرارية وتطوير العمل في مجالات الخير، وكن في هذا الباب وفق أنظمة متقنة حتى لا تعرّض نفسك للمخاطر والمساءلة وتضيع الأموال، وهي أمانة في أعناقكم، وقد ائتمنتم عليها، وسيسألكم الله عنها، وابدأ بالمشاريع

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٢١٢) والترمذي (رقم ٢٤٧٢) وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه (رقم ١٥١).

(٢) التراتيب الإدارية (٢ / ٢٠).

الوقفية الصغيرة كالزراعة والدكاكين وغيرها، واستنهض الهمم معك في المشاريع الوقفية.

تنبيه مهم:

لابد من توثيق العقود في الأعمال ومع العاملين توثيقًا دقيقًا، ويرجع في ذلك إلى أصحاب الخبرة، قطعًا للنزاعات وحفظًا للأموال، لأن كثيرًا من الخلافات تكون ناشئة عن عدم التوثيق الصحيح والثقة، وحين الخلاف تتلاشى وتختفي تلك الثقة.

لابد من وضع اتفاقيات وأنظمة داخلية للأعمال حتى ينتظم العمل وينجح ويقطع باب الخلاف والنزاع.

الحذر كل الحذر من التقلب بين أقوال أهل العلم والمذاهب الفقهية للتخلص من الالتزام بالعقود، ومن المصيبة أن يقال: المتعلمون أكثر الناس عبثًا بالعقود، لأن عندهم القدرة على التبرير والتأويل في النصوص الشرعية والجَعلية[1] وإذا غلب الهوى على القلب وتغلغل فيه صار الحق باطلاً، والباطل حقًّا! اللهم إنا نعوذ بك من الهوى وفتنة القول وزوره.

يـا ويحهَـم إنّ الهـوى يَلهو بِهم   والمـوتُ في كنفِ الهـوى يتوعّد

وصية ابن الجوزي

● قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم، وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقًا من التأويل فإنهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا.

---

(١) الشروط نوعان: شروط من وضع الشرع، وشروط من وضع الناس، وتسمى جَعلية.

وقد رأينا جماعة من العلماء يَغْشَون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم، فمنهم من يداهن ويرائي، وسبب ذلك الفقر، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في البعد عن الظالمين.

ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين: إما من كان له مال، كسعيد ابن المسيب كان يتّجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري كانت له بضائع، وابن المبارك. وإما من كان شديد الصبر، قنوعًا بما رزق، وإن لم يكفه، كبشر الحافي وأحمد بن حنبل.

ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه.

فعليك - يا طالب العلم - بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس؛ فإنه يجمع لك دينك، فما رأينا في الأغلب منافقًا في التدين والتزهد والتخشع ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا)[1].

وعلى العالم وطالب العلم والداعية أن يرتفع وينزه نفسه مما يلحق بها العار والتنقص والسقوط، من أمر المال، والتعلق بالدنيا على غير هدى، والتوسع فيما لا تحمد عقباه. واحذر أن تنزع ثقة الناس فيك ببعض التصرفات في البيوعات والمعاملات. واحذر من فتنة النساء في دعوتك وتعليمك؛ فقد حذر منها صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

*****

---

(١) صيد الخاطر (١٧٦).



فريق العمل

اجعل معك فريق عمل تختاره بنفسك، يتصف بصفات النجاح في العاملين في العمل الخيري، ولا تكن (مركزيًّا) ووزع المهام والأعمال، وأحسن التفويض فيما يحسن فيه، واجعل الثقة فيهم حتى يكونوا قادرين على القيادة والريادة، ولا تستأثر بذلك دونهم.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوزع المهام بين الصحابة.

وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يَسْمُرُ مع أبي بكرٍ وعمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الأمر مِن أمور المسلمين[1].

وقد وزع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهام ونظّم المسير، وأعد الخطة في الهجرة إلى المدينة، وتلك من قواعد النجاح في الإدارة، وليس ذلك من البدعة في شيء.

ما المرءُ إلّا بإخوانِه	كما يَقْبِضُ الكَفُّ بالمِعْصَمِ
وَلا خَيْرَ في الكَفِّ مقطوعةً	ولا خَيرَ في السَّاعِدِ الأجذمِ

*****

(١) رواه ابن خزيمة (رقم ١٣٤١) وابن أبي شيبة (رقم ٦٦٨٩).

لا تكن رأسًا في كل شيء

الازدواجية والجماهيرية في العمل من أسباب الفشل مما يؤدي إلى عدم التوفيق بينها والاتقان فيها وتزاحمها وقلة الإنتاج، ولها صور، منها العمل في أكثر من مركز ومؤسسة دعوية أو علمية أو مجموعة، فيكون مشتت الذهن والأفكار، مع وجود كثير من الطاقات والعقليات المغمورة داخل المجتمع المسلم لم يُبحث عنها ولم تُوجه للعمل، وإنما التركيز على بعض الأفراد في كثير من الأعمال، وهذا فيه قتل للجميع بل يجب علينا جميعًا أن نتعاون على تجديد العاملين في جميع الميادين.

لا تكن رأسًا ومسؤولًا في كل عمل ومعهد وجمعية ومركز، وأطلق العنان للآخرين لكي يكونوا قيادات معك مع اختيار الثقات والأمناء والعقلاء والحكماء، وتوجيههم لكل خير، وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، اصعد بالآخرين لكي تصعد، ومكنهم لتتمكن، اصنع أقوياء معك وقربهم منك، ولا تبعدهم عنك بدوافع حظوظ الشيطان والنفس أو عدم الثقة والتخوف غير المبرر بأسباب صحيحة وواقعية.

فإذا وافتك المنية والموت من يقوم بعدك بإكمال المسيرة والعمل الخيري ويتصدى لنفع الناس وغرس الخير فيهم! هل يموت بموتك وينقطع ويتعثر ويحصل الخلاف والصراع بذهابك!

*****

التعليم والبناء الخاص

اجعل لك مجموعة تعلمهم وتربيهم، وتجعلهم قادة في الخير والعلم، فالعلم والتربية والبناء الإيماني والعلمي قرينان لا ينفكان، لابد من العناية بهما علمًا وعملًا، فالعناية بأحدهما دون الآخر تحدث خللًا ونقصًا وسلبًا، والواقع خير شاهد مما نشاهده من بعض الناس في الساحة العلمية والدعوية والمجتمعية.

هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اعتنى ببعض الصحابة عناية خاصة تفوق غيرهم، وله هدف خاص في تربيتهم وتهيئتهم للأمة، وهو ما يسمى بالدعوة الخاصة أو التربية الخاصة، بخلاف الدعوة العامة والتربية العامة، وليس في الإمكان إنكار لذلك الترتيب وتلك العناية المقصودة، وإنما هي ردود أفعال لبعض الأخطاء أو اتباعًا للأهواء وحظوظ النفس.

وقد قيل: (والعلم بلا تربية شر يستعاذ منه، وكل ما نحن فيه اليوم من شرور إنما هو بعض نتائج العلم المجرد من التربية).

خرّج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة أبابكر وعمر وعثمان وعليًّا قادة للأمة بعده، وقد نصر الله بهم الإسلام، وخرّج أبا هريرة وابن عباس وابن عمر وابن مسعود وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رواة الحديث، وقد حفظ الله بهم الإسلام وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم كثير، وقد خرّج ابن عباس للأمة عطاء فقيه التابعين، وخرّج الإمام أبو حنيفة أبا يوسف ومحمد بن الحسن، وخرّج الإمام مالك الإمام الشافعي وابن القاسم وابن الماجشون، وخرجّ الإمام الشافعي الإمام

أحمد والبويطي، وخرّج الإمام أحمد الأثرم والمرّوذي، فملأوا الدنيًا علمًا وهدى.

● قال أبو حنيفة يومًا: (أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلًا؛ منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، ومنهم ستة يصلحون للفتوى، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى)[1].

إنها التربية الخاصة والتركيز والعناية والاصطفاء من المعلم لبعض طلابه لمن يتوسم فيهم الذكاء والألمعية والجد والمثابرة والبيئة المناسبة لتهيئتهم ليكونوا في الأمة قادة في العلم والدعوة والقضاء وغيرها من مجالات الخير والنفع، وهذه القضية كانت حاضرة لدى رسول الله ﷺ وعلماء الأمة وليست بدعًا من القول، فهي ذات عمق وتأصيل وبناء وعناية .

ولا تتعب نفسك على غير الجادين والمقبلين على العلم لتعليمهم، فقد كان بعض أهل العلم يعطي بعض من يريد العلم مسألة ثم يسأله عنها لاحقًا، فإن كان حفظها زاده من العلم وإن كان ضيعها ونسيها تركه ولم يعلمه.

● عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأصحابه: (تمنوا. فقال بعضهم: أتمنى لو أنَّ هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق. وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال عمر: تمنوا. فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان)[2].

---

(١) تاريخ بغداد (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (رقم ٥٠٠٥).

فهذا عمر الفاروق، عمر الملهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمنى رجالًا، وفي لغة العصر ما يسمى بصناعة الرجال، وصناعة القادة، والأمة أحوج ما تكون لمثل هذا، رجال لديهم العزائم الجادة والمشاعر المتقدة والبصائر النافذة والنوايا الصادقة، والبذل والعطاء والمبادرة والشجاعة والإقدام، ولا يعني بذلك المجازفة والمخاطرة والرمي في التهلكة، إذْ يقوم على أكتاف هؤلاء الرجال القادمون صناعة مستقبل مشرق لهذا الدين في جميع نواحيه.

إن لم تقم بالعبءِ أنتَ فمن يقومُ به إذنْ

إن الرجال العظماء لن يخرجوا إلا من تحت العظماء، ومن خلال تربية جادة وبرامج متميزة وعقول نيرة تحمل هم أمتها، ولن تعوّل الأمة على الكسالى والمترفين والمتقلبين والمتذبذبين في أفكارهم ومن يعيشون لأجل دنياهم، وحيثما وجدت مصلحتهم وجدوا.

إن على أهل العلم بذل مزيد من العناية والاهتمام لكل مقبل على العلم متوسَّم فيه الخير والصلاح والنفع لنفسه وللمسلمين، فإن أنفع الناس من مكنك من نفسه لتزرع فيها علمًا وخيرًا.

● وكان ابن الصواف، وهو من طلاب سُحْنون المالكي، يقول لطلابه: (وكان يقول للمشتغلين: أنا حبس وكتبي حبس)[١].

● واسمع إلى ابن قدامة المقدسي العالم النحرير، يقول الضياء المقدسي عنه: (وكان يشغل إلى ارتفاع النهار ومن بعد الظهر إلى المغرب، ولا يضجر، ويسمعون عليه، وكان يقرئ في النحو، وكان لا يكاد يراه أحد إلا أحبه، وما

(١) الديباج المذهب (١/ ١٦٧).

علمت أنه أوجع قلب طالب)[١].

● ويقول السخاوي البار الوفي بشيخه ابن حجر: (ولطالما أوذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الله من أتباعه وبعض طلبته، فيحتسب ويصبر، وأما صبره على الطلبة فشيء لا يدرك وصفه، حتى إنه مكث في مرض موته مدة وهو لا يُعلِم بعض من يقرأ عليه ليلًا بذلك؛ مراعاة لخاطره، وهو يتحمل المشقة، إلى أن أعيى، فأعلَمه بلطف)[٢].

لقد امتلأت صفحات التاريخ برجال سطّروا أسماءهم في صفحات الزمان بماء الذهب لمواقفهم العظيمة، وبذلهم وتضحيتهم لدينهم وأمتهم.

صناعة الرجال تقوم على الإعداد الإيماني والعلمي والتربوي والأخلاقي والفكري.

إن صناعة القادة في الأمة تحتاج إلى تفتيش وتنقيب عن اختيارهم، لأن النفيس قليل الوجود.

ورد عن صانع القادة والرجال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[٣].

صنع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرواحًا وقلوبًا عظيمة، صاغها بالإسلام وهذبها بالقرآن، كل فرد يقوم مقام أمة في مجاله: أمة في العلم والتربية، وأمة في القيادة والريادة، وأمة في الصدق والأمانة والإمامة.

---

(١) طبقات علماء الحديث (٤/ ١٥٩).

(٢) الجواهر والدرر (٣/ ١٠١٨).

(٣) رواه البخاري (رقم ٦٤٩٨) ومسلم (رقم ٢٥٤٧).

هذا هو إسلامنا، وهذا هو رسولنا ﷺ صنع رجالًا يحملون النور والحق والعدل والأخلاق للعالم، فأين من يتنكرون للإسلام ومبادئه من أبنائه! أين من حاربوا الإسلام من أبنائه! أين من شوهوا صورة الإسلام من أبنائه!

فأســعدُ أَهلِ الأَرْضِ تَابِــعُ خَطْوِهِ ... ومن زاغَ عنــه هالكٌ في الهوالِكِ

وفي النساء صناعة وقيادة، والتاريخ خير شاهد، و«**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[1].

يبني الرجالَ وغــيرُه يبني القُرى ... شــتانَ بينَ قُــرى وبــينَ رجال

وينبغي للمعلم والمربي أن يحتسب الأجر ويصبر على هفوة التلميذ سواء في تقصيره في حق الله أو حقه، وخاصة في هذه الأزمان التي ربما أصاب بعض الطلبة شيء من التغير في المنهج والفكر والمواقف وارتكاب شيء من المخالفات الشرعية والتساهل، فلا تعرضوا عنهم فتتخطفهم الأهواء وأصحابها، واحتواؤهم مهم للغاية خشية أن ينحرفوا ويضلوا، ولا بد من التغاضي عن بعض ما يحتمله الخلاف، وإن كان مرجوحًا، مع بذل الدعاء والنصح والتواصي بالحق والصبر، والتلميح يغني عن التصريح أحيانًا، وقد تقدم تنزيل الطالب منزلة الابن في التعامل.

● قال أبوإسحاق الجبنياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٣٩٩): (وبلغنا عن معلم عفيف، رئي وهو يدعو حول الكعبة ويقول: اللهم أيما غلام علمته فاجعله في عبادك الصالحين. فبلغني أنه خرج على يديه نحوًا من تسعين عالمًا وصالحًا)[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٢٩٤٢) ومسلم (رقم ٢٤٠٦).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦ / ٢٤٥).

قم برعايتهم وتفقد حاجاتهم، وكن لهم أبًا رحيمًا وصديقًا معينًا ومعلمًا شفيقًا وطبيبًا معالجًا وحازمًا وقت ذلك.

أيها العلماء: إن الأمة المسلمة اليوم بحاجة إلى صناعة الرجال والعقول والقلوب، وتوظيف الطاقات، والعمل الجاد، إن الأمة اليوم بحاجة إلى تعليمها دينها والاعتزاز به.

أيها الشباب والفتيات: كونوا خير صناعة وعدة وعتاد للأمة، كونوا من خير العقول والقلوب.

أيها العلماء: مدوا جسور العلم والمحبة للجيل، محّضوا النصح والمشورة لهم، نزلوهم منزلة الأولاد لكم، خذوهم بالرفق واللين والحوار والموعظة الحسنة، مهما تكن الأخطاء والجفوة منهم، عاملوا المريض منهم معاملة الطبيب للمريض ولا تجفوهم، التواضع أقصر طريق لكسب القلوب، لا تكونوا في أبراج عالية، اكتبوا وحدثوا الجيل عن تجاربكم ومواقفكم وهممكم ومعاناتكم في طريق العلم والبناء، وانهضوا بالهمم والأهداف وعززوا الثقة في النفوس، فهم قادة المستقبل والعدة للأمة والأوطان، كونوا لهم خير ناصح وعضد ومعين، لا عقبةً ولا ندًّا ولا منافسًا.

قدموهم ولا تؤخروهم، قدموهم واغرسوا الثقة فيهم، وانتفعوا بعلومهم، وعاملوهم معاملة التلميذ والصاحب.

واسمع لجميل التواضع.

- يقول السبكي عن أبيه: (وأما شيخه ابن الرِّفْعة فكان يعامله معاملة

الأقران ويبالغ في تعظيمه، ويعرض عليه ما يصنفه في المطلب)[١].

وأطرب أذنك لتواضع آخر.

● قال الحميدي تلميذ الإمام الشافعي: (صحبت الشافعي إلى البصرة، فكان يستفيد مني الحديث، وأستفيد منه المسائل)[٢].

واحذروا من تحطيم المواهب بل تشجيعها وتقويمها.

● جاء في ترجمة سليم البخاري (ت ١٣٤٧): (وقد فترت همته بعدما ألف رسالة وهو في سن الطلب، فأطلع أحد مشايخه عليها، فهزئ به وبعمله، فغضب وأحرق ما كتب، ولم يعد إلى الكتابة إلا ما ندر)[٣].

مع تحذيرهم من الاستعجال وعواقبه.

● قال ابن سحنون: (دخل عليّ أبي وأنا أؤلف كتاب تحريم النبيذ، فقال: يا بني، إنك ترد على أهل العراق، ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد، فإياك أن يسبقك قلمك لما يعتذر منه)[٤].

● كان شيخنا محمد الصالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (اليوم أنتم صغار، وغدًا تكونون كبارًا، فيحتاج الناس إليكم، ويقصدونكم في العلم وغيره).

قولوا للمحسن: أحسنت.

---

(١) طبقات الشافعية (١٠/ ١٩٥).

(٢) حلية الأولياء (٩/ ٩٦).

(٣) تاريخ علماء دمشق (١/ ٤٣٤).

(٤) الديباج (٢/ ١٧٢).

قالها ﷺ لسعد رضي الله عنه حينما أذّن[١]. وقالها لابن مسعود رضي الله عنه حينما قرأ القرآن[٢]. وقالها لعائشة رضي الله عنها حينما فعلت العمرة على الوجه الصحيح[٣]. وقالها لأبي موسى رضي الله عنه حين أهلّ بالحج كما أهلّ رسول الله وأتم حجه[٤].

اصنعوا الرجال والقادة في الأمة كما صنع رسول الله ﷺ.

لا تعزلوا العلم عن التربية ، فهما متلازمان وقرينان ومتى انفك أحدهما عن الآخر كانت النتائج غير مرضية في المنهج والتعامل وآداب الطلب .

الجيل يعيش مرحلة من الصراع العقدي والفكري والأخلاقي، وقد قام وبلغ ووجد أمامه أمواجًا منها ، فحار منها من حار واضطرب ، وسلم ونجا منها من نجا، ومن ربه وسنة نبيه ﷺ اقترب، وعن الصراع هرب .

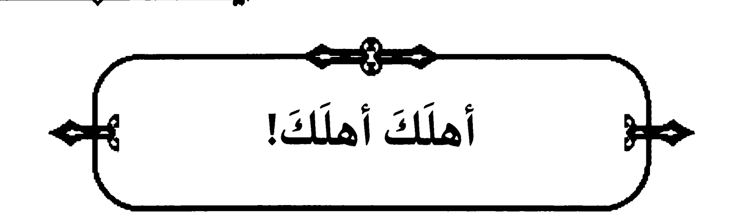
الجيل يبحث عن الحق والحقيقة، لكنه يحتاج إلى نوع من الحوار والهدوء وكشف الشبهات بأسلوب علمي رصين حكيم مع حسن المنطق والإقناع، بعض الناس يحتاج إلى الموعظة أكثر من العلم والإقناع، وبعضهم يحتاج إلى العتاب، وبعضهم يحتاج إلى بث روح العزة في نفسه، والموفق من وفقه الله لحسن التعامل مع كمائن النفوس.

افتحوا بيوتكم، أو اضربوا وقتًا في مساجدكم للناس وطلاب العلم لاستقبالهم وسماع مالديهم، فإن لذلك أثرًا كبيرًا ومنافع عظيمة.

(١) مصنف عبدالرزاق (١٨١١).
(٢) رواه البخاري (رقم ٥٠٠١).
(٣) رواه النسائي في الكبرى (رقم ٢١١٩).
(٤) رواه البخاري (رقم ١٧٩٥).

واحذروا الانكفاف عن الناس، ولكم في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته وسلف الأمة خير مثال يحتذى ويقتدى.

*****



أهلَكَ أهلَكَ!

أهلك أهلك، والأقربون أولى بالمعروف، قال الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ولا تكن كالنخلة العوجاء يسقط ثمرها على جيرانها وحياضهم، فكن معلمًا ورحمة وأُنسًا على أهل بيتك، وهم من الأمانة التي يسألك الله عنها يوم القيامة.

قال ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»(٢).

كتاركـةٍ بيضهَـا بالعـراءِ ... وملحفةٍ بيتَ أُخرى جناحا

للأسف بعض الناس مع الناس تجده في حسن خلق ومرح يأخذ بالقلوب والألباب ومع أهله عكس ذلك تمامًا، وقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»(٣).

كسـاعيةٍ إلى أَولادِ أُخـرى ... لتحضنَهـم وتَعجَـزُ عـن بنيِها

اجعل لك في بيتك درسًا وقراءة في كتاب، وعلّمهم القرآن تلاوة وحفظًا وتفسيرًا وتدبرًا، ووضع مسابقات مفيدة، واجعلهم شركاء لك في العمل

(١) رواه البخاري (رقم ٨٩٣) ومسلم (رقم ١٨٢٩).
(٢) رواه البخاري (رقم ٧١٥٠) ومسلم (رقم ١٤٢).
(٣) رواه الترمذي (رقم ٣٨٩٥) وصححه.

الخيري، واصطحبهم معك للمحاضرات وغيرها، لا يكن أحدكم بين أهله كالمفقود، لا يأمرهم بالخير والرشاد، ولا ينهاهم عن الشر والفساد.

● قال ابن الحطاب المالكي: (وكان مالك من أحسن الناس خلقًا مع أهله وولده، وكان يحدث يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم)[١].

اشحذوا الهمم والعزائم في نفوس الأسر والأقارب في حب الدين، والعمل لأجله، والعزة بالإسلام، واليقين بالله وبكتابه ودينه.

وابـــدأ بأهلكَ إن دعـــوتَ فإنهم	أَولى الورى بالنصحِ منكَ وأَقمنُ
والله يـأمـــرُ بـالعشيـــرة أولًا	والأمـرُ من بعـدِ العشيـرةِ هيـّنُ

*****

---

(١) مواهب الجليل (٤ / ١٢).

كن فقيهًا في الأولويات

كن فقيهًا في فقه الأولويات ومقاصد الشريعة والمصالح والمفاسد في مشاريعك وفي تعاملك مع الآخرين، سواء اتفقت معهم أو اختلفت في فكرة أو منهج أو خلاف فقهي، وكن ذكيًّا فطنًا.

وعلينا أن نفرق بين المداراة والمداهنة، فقد كان عمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته والسلف على المداراة لا المداهنة، وليس المقام لبسط ذلك.

ورد عن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته أنه استأذن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل فقال: **«ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ» أَوِ «ابْنُ العَشِيرَةِ» فَلَمَّا دَخَلَ أَلانَ لَهُ الكَلامَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الكَلامَ! قَالَ: «أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ» أَوْ «وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»**(١).

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أي لأجل قبح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فحشه، أي: مجاوزة الحدِّ الشرعي قولًا أو فعلًا، وهذا أصل في ندب المَداراة إذا ترتب عليها دفع ضرٍّ)(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: **«يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا**

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٠٥٤) ومسلم (رقم ٢٥٩١).

(٢) فيض القدير (٢ / ٥٧٦).

بَابَيْنِ» قال: فلما ملك ابن الزبير هدمها وجعل لها بابين[١].

● قال الحسن البصري: (كانوا يقولون: المدَاراة نصف العقل. وأنا أقول: هي العقل كلُّه)[٢].

وتجوز زيارة أهل البدع والمعاصي رجاء هدايتهم وتأليف قلوبهم واتقاء شرهم، فقد زار صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغلام اليهودي لما مرض[٣]. وجعل الشارع من أصناف أهل الزكاة المؤلفة قلوبهم، وهم من يرجى إسلامه أو كف شره من الكفار، أو من يرجى قوة إيمانه والدفاع عن المسلمين وكف شره[٤] فكيف بمن مثلهم ودونهم!

أعطهم الحق الذي فرضه الإسلام، من حق السلام والجوار وغيرها من الحقوق.

يا سفير العلم والدعوة: ركز على نقاط الاتفاق ولا تركز على نقاط الاختلاف.

كن مبادرًا وفاعلًا في كل ما يمس قضايا الأمن والأمان، وضد كل ما يخل بهما مهما اختلفت مع الآخرين.

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٢٥) ومسلم (رقم ١٣٣٣).

(٢) المدَاراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة. قال القرطبيرَحِمَهُٱللَّهُ في الفرق بينهما: (أنَّ المدَاراة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا). وقال الغزالي: (الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضَيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدارٍ، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن).

(٣) رواه البخاري (رقم ١٣٥٦).

(٤) حاشية الدسوقي (١ / ٤٩٥) الحاوي (٨ / ٥٠٠) كشاف القناع (٢ / ٢٩٧).

كن مبادرًا في القضايا المجتمعية والإغاثية والأمن والأمان للإنسانية عمومًا مهما اختلفت مع الآخرين، فهي الطريق إلى كسب القلوب والشعوب وفتح الطرق لمشاريعك، ودع أصحاب النظرة القاصرة والأفق الضيق، واللبيب بالإشارة يفهم.

● قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كانت قريش تألف منزل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخصلتين: للعلم والطعام، فلما أسلم أسلم عامة من كان مُجالسه)[1].

اجتهد في أن تكون سببًا في جمع النفوس والقلوب، وخذها وصية دعوية نبوية لك ولمعشر طلاب العلم والدعاة من إمام الدعاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»**[2].

أعرض عن كثير من القول والفعل والخلافات وتجاهلها في سبيل نجاح مشاريعك وكسب القلوب ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

(احرص على كسب القلوب لا المواقف) وفق ضوابط الشرع وقواعده، وقد قيل: (الخلافات الصغيرة عتبات الطريق).

إن أعظم ما تدحر به الشيطان في طريق الدعوة والعلم ألا تنتصر لنفسك وألا تأخذ فرعيات المسائل والخلاف من جهدك ووقتك ما ينبغي أن تصرفه في الأصل.

الفارغ هو الذي يكون في استعداد تام للدخول في كل خلاف، وقد وصل أناس القمة وهو مازال في الدنو وبين الصغار، لايزال متفرغًا للآخرين،

---

(١) البيان والتبين (٥٩٥).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٠٣٨) ومسلم (رقم ١٧٣٣).

فلم يعلّم جاهلًا ولم يزدد علمًا، ولم يغث ملهوفًا أو يطعم جائعًا، كل همه نقد الآخرين وعلى غير هدى وبصيرة وحكمة، وما هو إلا الحرمان وعين الخذلان.

● بعث هشام بن عبد الملك إلى الأعمش: (أن اكتب لي مناقب عثمان ومساوئ عليّ. فأخذ الأعمش القرطاس وأدخلها في فم شاة فلاكتها، وقال لرسوله: قل له: هذا جوابك. فقال له الرسول: إنه قد آلى أن يقتلني إن لم آته بجوابك. وتحمّل عليه بإخوانه، فقالوا له: يا أبا محمد، افتده من القتل. فلما ألحوا عليه كتب له: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مساوئ أهل الأرض ما ضرتك، فعليك بخويصة نفسك، والسلام)[1].

مُثُلٌ عُليا أَضاءت للورى ... سُبُلَ العلياءِ في الليلِ الغَدافي[2]

فقه الموازنات

كن فقيهًا في فقه الموازنات، وهو المفاضلة بين المصالح والمفاسد المتعارضة والمتزاحمة، لتقديم أو تأخير، والفقيه من يعرف خير الخيرين وشر الشرين، وتأمل تعامل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأعرابي فقد جعله يبول في المسجد حتى انتهى من بوله[3] وقد لوث المسجد، مقابل مصلحة أعظم ودفع ضرر أكبر، وهو ما يلحقه من الضرر من قطع بوله وزيادة النجاسة عليه وفي المسجد ومراعاة لجهله.

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٠٣).

(٢) الغدافي: شديد السواد.

(٣) رواه البخاري (رقم ٢٢٠).

فاذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاحمت فقدم أهمها وجلّها وإن فات أدناها، وتعطيل المفاسد الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاحمت عطل أعظمها فسادًا باحتمال أدناها[1].

وهذا باب عظيم لا يدخله إلا الراسخون في العلم العالمون بقواعد الشريعة.

واسـأل إله العرشِ هَديَ سبيلِه في الـسرّ والإخفـاءِ والإعلانِ

يا سفير العلم والدعوة: العقل العقل في كثير من أعمالنا وتصرفاتنا، وأعتذر إن قلت إن عددًا من الأخطاء والكوارث والمشكلات في العمل والتعامل، في المجالات العلمية والدعوية والعمل الخيري، نتيجة لعدم الحكمة وحسن التصرف وضعف البصيرة وعدم إعمال العقل والتأني والاستعجال.

السكينة السكينة! والحكمة الحكمة! السفينة مليئة، والبحر متلاطم، والشقي هو الذي يخرقها، فاتقوا الله والزموا الجماعة؛ فإن الله مع الجماعة، ولا يصدر منكم ما يثير العامة والبلابل.

والحذر الحذر من الخروج على ولاة الأمور، فما أريقت الدماء في كثير من التاريخ إلا بسبب ذلك، والدعاء والنصح للولاة مطلب شرعي، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة على طريقة الصحابة والسلف دون تشغيب وفتن.

وإن الإنسان ليأخذه العجب كل العجب؛ كيف تصدر بعض الأقوال والتصرفات من بعض طلاب العلم والعاملين في العمل الخيري! ولولا وقوف الإنسان عليها ونقل الثقات لها لما كدت أن تصدق صدورها من هؤلاء، وتكون

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩١٢).

موضع سخرية وتندر من أصحاب الرأي والسلطان.

قال العلماء: (ليست هيبة الشيخ لشيبته ولا لسنّه ولا لشخصه، ولكن لكمال عقله، والعقل هو المهيب؛ ولو رأيت شخصًا جمع جميع الخصال وعدم العقل لما هبته)[1].

العاقل بصير نفسه، ويزُمّ نفسه عن التصرفات العوجاء والرعناء وحظوظ النفس.

وأفضَـُـل قَسْـمِ الله للمـرءِ عَقْلُـهُ ... فليس من الخيرات شـيءٌ يُقارِبُه
إذا أكمَـل الرحمـنُ للمـرء عَقْلَـهُ ... فقـد كمَلَـت أخلاقُـه ومَآرِبُـه

● ورد عن سعد بن سعيد قال: (راقبت سفيان بن سعيد في الطواف، وما له قراءة القرآن ولا تسبيح، إلا هذه الكلمة: ارزقني عقلًا أنتفع به. قال سعد: لو علم الثوري شيئًا أفضل منه لكان يقوله في ذلك الموضع)[2].

إذا تَـمَّ عَقْـلُ المَـرْءِ تَمَّـتْ أُمُورُه ... وتَمَّـــتْ أَيَادِيــهِ وتَــمَّ بِنَــاؤُهُ
فــإنْ لَـم يَكُـنْ عَقْـلٌ تَبَيَّـنَ نَقْصُهُ ... ولَـو كان ذا عِلْـمٍ كثيـرًا عَطَـاؤُهُ

قليل من العلم مع الحكمة والعقلِ خيرٌ وأنفعُ من كثير من العلم مع قلة في العقل والحكمة.

واسمع أخرى إلى العلم والعقل والحكمة.

● يقول تقي الدين: (وأنا، والله، من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل، والله، ما

(١) بغية الوعاة (١/ ١٢٠).
(٢) تاريخ جرجان (٨٨).

أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذه نيتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجًا لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زورًا، والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

وهكذا يكون ديدن العالم وطالب العلم إذا تجرد لله في تعامله مع الخلق، وإذا اختلف مع إخوانه، فينظر إليهم نظر عدل وإنصاف وشفقة ورحمة، والله أمر بذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

وضابط القول: ألا يكون القول في الآخرين ناتجًا عن خصومات شخصية ومذهبية وعرقية، واختيارات علمية، ومنافسة دنيوية، وأن يفرق بين القول والقائل، والخطأ والمخطئ، ولزوم الوسط والاعتدال، وعدم التعنت مع المخالف والبغي، ولا يلزم الرد في مسألة أو فكرة أن يرد جميع أقوال المخالف وما عنده من الحق، وعرض القول على الكتاب والسنة وسلف الأمة وغيره مما ذكر في أطراف هذا الكتاب، وهذا مقرر في كتب أهل العلم، وقد قيل: (كلام الأقران يطوى ولا يروى) وما بال أقوام يقولون ويفعلون! والتلميح يغني عن التصريح!

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧١).

وكن ناقضًا للأفكار لا الأشخاص، إلا ما لا بد منه ممن كثر شره وبلاؤه وضلاله، وفتن الناس بفكره وزخرف قوله. فتأمل وتدبر، وفرّغ النفس من حظوظها مع العقل والحكمة.

يقول تقي الدين: (ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قوله ولا فساده، إلا إذا كان ذلك بهدى من الله، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه، ورد القول والفعل الذي يبغضه، بلا هدى من الله..)[١].

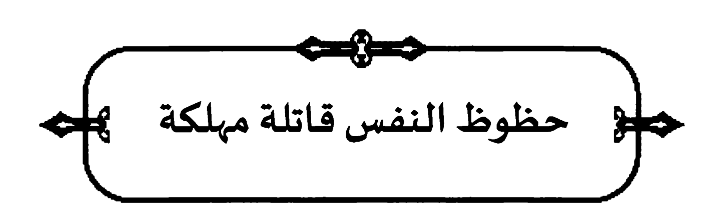
وكل أهل نِحلة ومقالة يكسُون نِحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ، فإذا أردت الاطلاع على كُنه المعنى؛ هل هو حق أو باطل؟ فجرّده من لباس العبارة، وجرّد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظرًا بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرًا تامًّا بكل قلبه، ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق[٢].

*****

---

(١) نقض المنطق (٢٦٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٩).



حظوظ النفس قاتلة مهلكة

جاهد النفس عند مصادمة حظوظها، إذ لا يجتمع ذلك مع العلم، وعالج قلبك باستمرار وإياك أن تسلمه لـ: الحسد، الانتصار للنفس، احتقار الآخرين، الظلم، إسقاط الآخرين، التنافس غير المحمود، الاعتداد بالرأي، الغرور والعجب، الكبر، حب الشهرة.

(والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبًا، وأشد الخلق تواضعًا، وأعظمهم نزاهة وتدينًا، وأقلهم طيشًا وغضبًا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها)[1].

والكبر بالعلم من أعظم الآفات، وعلاجه بأمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم.

ثانيهما: أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا، فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع.

وإذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه في عينه، وليلاحظ إبهام عاقبته وعاقبة الآخر، فلعله يختم

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١ / ٧٨).

له بالسوء ولذاك بالحسنى، حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه، ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه، ويغضب لفسقه، بل يبغضه ويغضب لربه إذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه[١].

واحذر أن تتسلط على نيات الخلق، فهذا عين الخذلان والعقوبة والحرمان، فتتيه وتنشغل بما لم يكلفك الله به، وإذا أراد الله بعبد هلكة وعدم توفيق سلطه على نوايا الخلق، فتأمل واحذر.

وقد قيل: والله إن العبد ليصعب عليه معرفة نيته في عمله، فكيف يتسلط على نيَّات الخلق!

واحذر أن تتسلط بحجج واهية باسم الدين والانتصار للحق، والحقيقة غير ذلك، والله مطلع على السرائر والضمائر.

وكان السلف يكرهون الشهرة ولا يقصدونها.

● كان الإمام أحمد حزينًا فدخل عليه عمه قائلًا: ماذا بك؟ فقال الإمام أحمد: طُوبى لِمَنْ أَخْمَلَ الله ذكره. يعني من لم يكن مشهورًا، ولا يعلم به إلاَّ الله[٢].

● وقال أيضًا: (أريد أن أكون في شِعْبِ مكة حتى لا أُعْـرَفْ، قد بليت بالشهرة)[٣].

● وكان إذا أراد أنْ يمشي يكره أن يتبعه أحدٌ من الناس[٤].

---

(١) الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية (٧٩).

(٢) مناقب الإمام أحمد (٣٧٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٦).

(٤) مناقب الإمام أحمد (٣٧٧).

لا تتهافت ولا تصارع ولا تبغي ليعلو اسمك في سماء الأندية ووسائل التواصل، يكفيك أن الله يعلم ما تصنع ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[النساء: ١٦٤] واعلم أن أعظم ما يهدد العمل الدعوي بالفشل ويفضي إلى النزاع حظوظُ النفس البشرية.

إننا بحاجة عظيمة إلى تربية النفس وتزكيتها دائمًا وأبدًا، ولا تقف الحاجة إليها عند منصب علمي أو حد عمري أو مجال من المجالات، فالإنسان بحاجة إلى ذلك حتى يلقى الله.

ومَن أمــنَ الآفاتِ عُجبًــا برأيه ... أحاطت به الآفاتُ من حيثُ يجهل

ومن أعظم الخصال خصلة من اتسم بها ساد مجده، وبها علا ذكره، وهي: أن يرى الناس كلهم خيرًا منه، وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى، فهو يتواضع للفرقتين جميعًا بقلبه، وإن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا! فلا تراه إلا خائفًا من العاقبة، ويقول: لعل بر هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقًا كريمًا بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه، ويختم له بأحسن الأعمال، وبرّي ظاهر فذلك شر لي، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها)(١).

● (لا تستصغر أحدًا فإن العاقبة منطوية، والعبد لا يدري بم يختم له، فإذا رأيت عاصيًا فلا تر نفسك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقامًا، وأنت من الفاسقين، ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيرًا فاحكم بأنه

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٦٦).

خير منك، باعتبار أنه أحقر منك ذنوبًا، وإذا رأيت من هو أكبر منك سنًّا فاحكم بأنه خير منك، باعتبار أنه أقدم منك هجرة في الإسلام، وإذا رأيت كافرًا فلا تقطع له بالنار، لاحتمال أنه يسلم ويموت مسلمًا)[١].

*****

(١) المختار من الأنوار في صحبة الأخيار للإمام الشعراني (ص٤٠ - ٤١).



إغلاق المواضيع

يدور في حياة الإنسان عدة مواضيع تأكل منه عقله وتفكيره وتشتت ذهنه، وتجعله يعيش شيئًا من الهم والكدر والانزعاج كلما تذكرها في مجال العمل والعلاقات ونحوها، فحري بك أن تحاول إيجاد الحلول المناسبة لإنهائها وإغلاقها، حتى لا تعطل مشاريعك وعلاقاتك وتفكيرك، واذهب بها كما يقال إلى سلة المحذوفات.

● يقول ابن العربي المفسر: (كان أبو الفضل المراغي يقرأ بمدينة السلام، فكانت الكتب تأتي إليه من بلده، فيضعها في صندوق، ولا يقرأ منها واحدًا مخافة أن يطلع فيها على ما يزعجه أو يقطع به عن طلبه، فلما كان بعد خمسة أعوام، وقضى غرضًا من الطلب، وعزم على الرحيل، شد رحله، وأبرز كتبه، وأخرج تلك الرسائل وقرأ منها ما لو أن واحدة منها قرأها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم، فحمد الله تعالى)[1].

وليكن لنا نصيب من تعامل ابن العربي مع وسائل التواصل اليوم، فلا بد من حزم وعزم وإلا ضاع عليك زمانك ونفيس عمرك، وتشتت عليك ذهنك، وتقدم الناس وأنت في مكانك، والوسط مطلب لا إفراط ولا تفريط، فيها الغث والسمين، والنفع والإفادة، ويختلف الأمر من شخص إلى آخر، وهي باب عظيم من أبواب الخير، فلنحسن التعامل معه.

*****

(١) أحكام القرآن (٢ / ١٤٥).

الجندي المجهول

من الحكمة والعقل أن تعمل أحيانًا بعيدًا عن الأضواء والإعلام ووسائل التواصل حتى لا تتعطل أعمالك ومشاريعك وتتزاحم، ويمكن أن يقوم بها غيرك، فكن الجندي المجهول.

ليس من شرط النجاح والإنجاز أن يكون اسمك مرقومًا في كل معهد ولجنة وهيئة وجمعية وفي القنوات والتاريخ، وإنما النجاح هو العمل، ويكفيك أن الله يعلم ما تصنع ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[النساء: ١٦٤].

كان في جيش هارون الرشيد عشرون ألف مجاهد لا يكتبون أسماءهم في ديوان الجند كي لا يعرفهم أحد إلا الله.

إن جهل الناس إفضالك وأعمالك فما ضرك ذلك، لأن الله يعلمها.

● ذكر الطبري في تاريخه قصة فتح نهاوند، والتي تسمى فتح الفتوح، بأن السائب بن الأقرع قدم إلى عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له: (أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله وأذل به الكفر وأهله. قال: فحمد الله عَزَّ وَجَلَّ ثم قال: النعمان بعثك؟ قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين. قال: فبكى عمر واسترجع. قال: ومن ويحك؟ قال: فلان وفلان. حتى عدّ له ناسًا كثيرًا ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم. فقال عمر وهو يبكي: لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم)[1].

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١٢٥).

إن على الذي يلتحق بركب الدعوة والعمل الخيري ألا يتوقع رئاسة أو منصبًا ما أو المدح والثناء، فضلًا عن أن يسعى إليه ويفرح به، إنما يجب أن يوطن نفسه من أول يوم يضع فيه قدمه على باب الدعوة والخير، بأن يكون جنديًّا لها، فإن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في المقدمة كان في المقدمة، ليس له هدف سوى مرضاة الله.

ولهذا السبب جعلها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضحة وضوح الشمس للذين بايعوا بيعة العقبة الأولى والعقبة الثانية بقوله: «**فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الْجَنَّةُ**»[1] فلم يعدهم بمنصب ولا بجاه ولا بمال، أو بأي لون من ألوان الدنيا، إنما علقهم بالآخرة، لترتفع نفوسهم وآمالهم وهممهم من وحل طين الدنيا إلى السموات العلا.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ**»[2].

● قال ابن الجوزي: (والمعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقة استمر فيها... وفيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع)[3].

إن أولئك الصنف من الدعاة والعاملين في سبيل الله هم الذين تنجح الدعوة بهم، أما المتطلعون للرئاسة والمناصب والشهرة وذكر أسمائهم في المحافل ونحوها فإنهم يكونون أحجار عثرة في طريق نجاح العمل الخيري

(١) رواه أحمد (٢٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (رقم ٢٨٨٧).

(٣) فتح الباري (٦ / ٨٣).

وجمع القلوب ونفع الأمة.

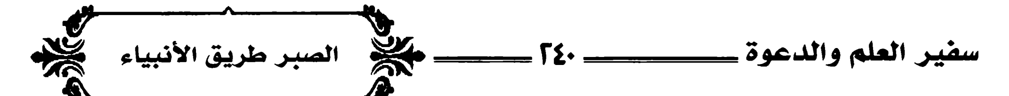
● قال الإمام الشافعي: (وددت أن كل علم أعلمه تعلّمه الناس، أوجر عليه ولا يحمدوني)[1].

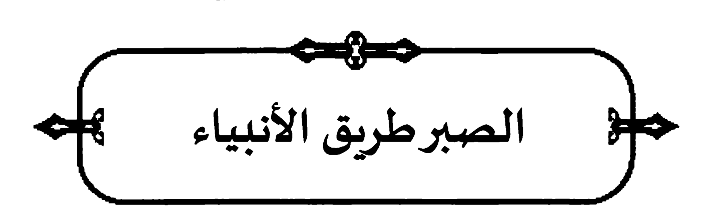
● وهذا الإمام البيقوني صاحب منظومة مصطلح الحديث نظمها في ورقة واحدة فقط، وقد أطبق شراحها - وقد تجاوزوا الثمانين - بأنه لا يعرف له ترجمة، بل اختلفوا في اسمه. ومثله صاحب نونية القحطاني لا يعرف له ترجمة. وهذا ابن جُرُوم صاحب «الآجُرُومِّية» كتبها وهو أمام الكعبة، ولا يعرف له كثير ترجمة.

وفي هذا درس عظيم، وهو ألا يحقر الإنسان عملاً ولو كان صغيرًا، فربما البركة والفلاح والنجاح فيه، وليس في كثير وكبير العمل، ومتى ما صدق العبد مع الله بورك له في جميع أمره وشأنه، فالمعول على القبول وليس الشهرة وكثرة الأتباع وطلب المحمدة، وكم من كتب كبار فقدت وبقيت مختصراتها، فلا تحقرن من المعروف شيئًا ولو فِرْسِنَ شاة، وهو العظم الصغير قليل اللحم، فجُدْ بالقليل فإنك تتعامل مع الكريم سبحانه، فرب قليل خير من كثير، وقليل خير من العدم. وفيه درس أنه لا يلزم أن يكون المجهول لا يؤخذ منه العلم دائمًا، وإنما يُعرَض كلامه على الكتاب والسنة وأهل العلم. وفيه درس في التواضع، وما نشاهده اليوم عبر المواقع الألكترونية ونحوها من نشر السير الذاتية من أصحابها لغير حاجة والتوسع فيها، مخالف للتواضع وإخفاء العمل واحتقاره، وما عليه السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

*****

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٥).





الصبر طريق الأنبياء

الصبر، الصبر من أعظم المرتكزات والقواعد في الثبات على الدين وفي الدعوة إلى الله، ولنا في أنبياء الله وصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم قدوة، قد تجد مكدرات؛ حاسد، معارض، مزعج، ابتلاء، فتنة.

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

وتأمل أوائل سورة المزمل والمدثر، فهي منهج حياة وخارطة طريق للعلماء والدعاة ورثة الأنبياء.

إن الأمورَ إذا اشتدّت مَسالكُها ... فالصبرُ يفتحُ منها كُلَّ مَا أُرتجا

فما تجرَّعَ كأسَ الصبرِ معتصمٌ ... بالله إلا أتاهُ اللهُ بالفرجِ

*****

مفاتيح الدعوة مفاتيح القلوب

أعظم مؤثر في الناس: الأخلاق، القدوة الحسنة، الابتسامة، الكلمة الطيبة، الرفق، النصح بالحكمة لإخوانك، قضاء حوائجهم، الشفاعة لهم، فاعرف مفاتيح القلوب، وكن طيب المعشر مع الناس لطيفًا ودودًا رحيمًا قريبًا من القلوب، ليرى الناس فيك الإسلام واقعًا عمليًّا في حياتك، لا يرون فيك عكس ما تقول، فيجدونك في الصلاة في آخر الصفوف، يجدونك كذابًا، مغتابًا، غاشًّا في التعامل، ويجدونك مخلفًا للمواعيد، متعاليًا غير متواضع للحق والخلق - وحاشاك كل ذلك - فتنعدم البركة والتأثير في دعوتك.

● قال رجاء بن حيوة: (ما أحسن الإسلام ويزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان ويزينه الرفق، وما أحسن التقوى ويزينها العلم، وما أحسن العلم ويزينه الحلم، وما أحسن الحلم ويزينه الرفق)[١].

● قال ابن بطال: (لقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر وجالب للمودة)[٢].

● قال تقي الدين: (فمن أعظم العبادات: سد الفاقات، وقضاء الحاجات، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف)[٣].

---

(١) جامع بيان العلم (١ / ٢٤٨).
(٢) شرح البخاري (٥ / ١٩٣).
(٣) الفتاوى (٢٨/ ٢٤٣).

وهو طريق الفلاح، وعد من الله ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وحينما تقرأ في سير وتراجم العلماء على مر التاريخ حتى يومنا هذا، تجدهم يقومون بذلك كله وهم قبلة الناس ومقصدهم في ذلك، وإمامهم في ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والشيخان أبوبكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهم.

فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عنده تسع زوجات، إمام وخطيب ومعلم في مسجده، وهو القائد والوالي في أمته، يواجه العدو الخارجي (الكافر) والعدو الداخلي (المنافق) يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، ويمشي في حاجة صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومع هذا كله كان كثير التبسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتخلّقــوا لطفًــا بأخــلاقِ الذي أثنــى عــلى أخلاقــهِ الخــلّاقُ

واحذر كل الحذر من أن تكون عابس الوجه مقطب الجبين، وما هكذا أخلاق النبي الأمين.

يقول جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ولا رآني صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا تبسم في وجهي)(١).

وينبغي لمن كان عبوسًا منقبضًا أن يتبسم، ويحسن خلقه ويمقت نفسه على رداءة خلقه(٢).

واحذر كل الحذر من أن تأخذ الناس حين السؤال للحاجة والفتوى بالتعنيف والصدود، فما هكذا أخلاق النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولربما كان

---

(١) رواه البخاري (١٨١٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٠٣).

ذلك سببًا في صدود الناس عن الدين وكره شريعة رب العالمين وأهل العلم والصالحين.

جبرُ الخواطرِ ذاكَ دأبُ أُولي النّهى وتَــرى الجهولَ بكسرهــا يَتمتعُ
فاجعل لســانك بَلسـمًا فيه الشّفا لا مِشرَطًا يُدمي القلوبَ ويُوجِع

فكن رفيقًا حليمًا، وإلا فقعودك عن العمل ربما يكون خيرًا لك إذا كان يترتب على ذلك كثير من المفسدة.

فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف، فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته، وإما عدو ومبغض فتطفئ بلطفك جمرته، وتستكفي شره، ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به[1].

ولتكون مؤثرًا في الناس، فلابد من خلق تتحلى به، ورسالة تسعى إليها، ومهارات تمتلكها، وعقل يحكم ذلك كله ويهديه.

وقد قيل: العلم إن لم يصحبه وعي قلّ تأثيره، وإن لم تصحبه حكمة ضعف قبوله، وإن لم يقترن به خلق انطفأ وهجه، وإن غاب عنه العمل ضاعت ثمرته، وإن غاب عنه الإخلاص صار بلاء على صاحبه.

ومن تصدر لخدمة الناس فلابد من أن يتصدق ببعض من عرضه على الناس، لأنه لا محالة مشتوم حتى وإن وصل الليل بالنهار، ولابد أن يناله ما يناله من الناس في عرضه وبدنه ونحوه.

فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح يصلي قاعدًا بعدما حطمه الناس، لما

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٧٨).

حمله من أمورهم وأثقالهم والاعتناء بمصالحهم صيروه شيخًا محطومًا[1] وكأن عائشة تقول: قد جعلوه شيخًا قبل أوانه.

عوائــدُه ألا يُخيّــب ســائلًا فياحبّذا في النــاسِ هذي العوائدُ

وفي الحديث: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات)[2] وإذا أراد الله بعبد خيرًا صيّر حوائج الناس إليه، وطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه.

وفي بلاد الحرمين والشام والمغرب، ومصر واليمن وتركيا، وما وراء النهر، والجمهوريات الإسلامية، والقارة الهندية، وبلاد الملايو، وإفريقيا، وغيرها من بلاد الإسلام والأقليات المسلمة، علماء أجلاء ودعاة فضلاء بذلوا نفيس أوقاتهم للعلم وطلابه، زهدوا في الدنيا، وقدموا العلم والباقية على الدنيا الفانية، ولولا خشية الإطالة لذكرت أسماءهم ومشاريعهم.

مجالسُــهم مثــلُ الريــاضِ أنيقةٌ لقد طابَ منها اللونُ والريحُ والطعمُ

يجودون بعلمهم ومالهم ووقتهم وراحتهم، لايردون سائلًا في علم أو فتوى أو مال أو شفاعة.

تلذذهــم بالعلمِ والجــودِ والتّقى وبــذلِ العطايا لا بطيــبِ المآكل

الواحد منهم حاله:

غــمامٌ بــماءِ المــزنِ ينهــلُّ مزنُــه جوادٌ لأصدافِ الســماحةِ يقذفُ

أيها الدعاة وطلاب العلم: تلكم الأخلاق والشمائل، من جاد ساد، والله

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦ / ١٣).

(٢) رواه الحاكم (٤٢٩) ومختلف في صحته.

جواد يحب الجود. دعوة ونداء من الله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[محمد: ٣٨] وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٣-٤]

والصدقة برهان على صدق الإيمان وبغض الشيطان والتوكل على الرحمن والعوض منه سبحانه، دليل على طيب النفس وسموها، دليل له يوم القيامة يفزع إليه (وكل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها)[١] فجودوا بعلمكم ووقتكم وأخلاقكم ومالكم وراحتكم وأهل بيتكم خدمة لهذا الدين ونصرة لسنة سيد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هــذا هو الربــحُ العظيمُ فأيــنَ منْ ... يُعطــي لوجــهِ الواحــدِ الديّانِ

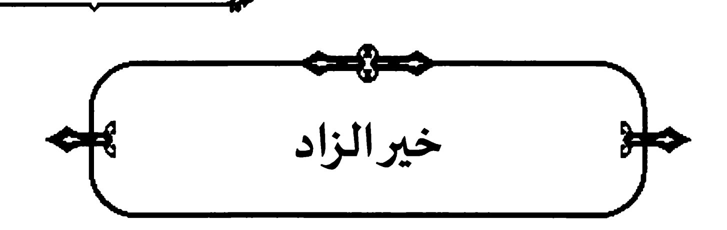
وابسطْ يديكَ فإنّ العمرَ منتقصٌ ... يَبقى الجميــلُ وتفنى دونَه الأممُ

والله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه، فمن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاق شاق الله تعالى به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة[٢].

*****

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) الوابل الصيب (٣٥).



خير الزاد

في وسط العمل وزحمته ليكن زادك: (القران وركعات في جوف الليل) وهو من أعظم الزاد والتربية الإيمانية وتربية القلوب وتزكيتها، فإن وقودك وقوتك في الدعوة إلى الله على قدر ارتباطك بالقرآن وقيام الليل، وهما من أعظم وسائل الثبات على دين الله عبادة ودعوة وأخلاقًا ومنهجًا، وبركة القرآن تسري في حياة الإنسان في عمره وأعماله وأوقاته وعقله وجسده، وهذا مشاهد في حياة أهل القرآن، وكلما ازداد المؤمن من قراءة القرآن نال من البركة بقدر ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

● ورد عن وهب بن منبه قال: (من يتعبد يزدد قوة، ومن يكسل يزدد فترة)[1].

● قال ابن كثير: (هذا أمر مجرب؛ أن العبادة تنشط البدن وتلينه، وأن النوم يكسل البدن فيقسيه، وقد قال بعض السلف لما تبع صلة بن أشيم حين دخل تلك الغيضة، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح، قال: فأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت ولي من الكسل والفتور ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ)[2].

● قال ابن المبارك: (ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٢١٩١).

(٢) البداية والنهاية (٩ / ٣٢٢).

ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة)[١].

● يقول الكناني: (وأوصاني العماد المقدسي وقت سفري فقال: أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. قال: فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي)[٢].

وقف متأملًا أوائل سورة المزمل والنداء الرباني والتوجيه الإلهي للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمل: ٢] التربية للنفس والتزكية للقلوب بالقيام والانتصاب بين يدي الله في جوف الليل، عبادة الخلوات في الليل من أعظم المعينات والمثبتات للعبد، وما من نبي من الأنبياء إلا أمره الله بالعبادة قبل الرسالة؛ تصفية وتنقية وتخلية، لأن الإصلاح يتبعه شدة، والشدة تحتاج إلى ثبات، ولا يعين على الثبات شيء أعظم من قوة الصلة بالله بالعبادة، والطريق الطويل يحتاج إلى زاد كثير وإلا انقطع المسير وتعثر السائر وتاه وحار.

● وقد ذكر الغزالي: (بأنه دخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في السحر وبين يديه مصحف، فقال له الشافعي: شغلكم الفقه عن القرآن! إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي، فما أطبقه حتى أصبح)[٣].

إن من الخلل الكبير في صفوف بعض الطلبة والدعاة والقدوات عدم التوازن بين العلم والتزكية الإيمانية ووسائلها، ولذا نجد من الآثار السلبية الكبيرة بسبب هذا الخلل في التوازن بين العلم والعبادة والمعرفة والتزكية في

(١) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٧٩).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠٥).
(٣) الإحياء (١ / ٢٧٩).

التعامل والسلوك، والموفق من وفقه الله وفتح عليه في الأمرين، ومن وجد متصفًا بهما فليَحرِص على العلم بين يديه وليظفر به فيكسب منه العلم المعرفي وعلم التزكية علمًا وعملًا.

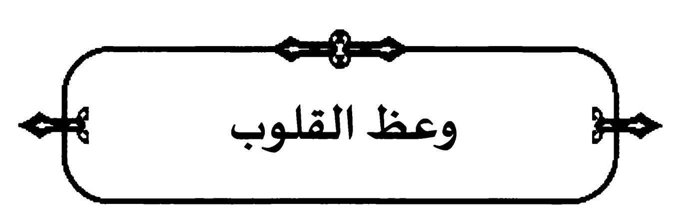
وليعلم من وفقه الله للتعليم والتدريس أنه لابد أن يكون للتربية والتزكية حظ من تعليمه وتوجيهه، وهذا منهج قرآني ونبوي، وعليه صار جمع من أهل العلم، لأنه كما تقدم العلم بلا تربية وتزكية يصبح وبالًا على صاحبه، ونعوذ بالله من الشقاء بالعلم.

• قال تقي الدين: (ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: اللهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحدًا أسعد بما علمتني مني. وفي دعاء القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ٨٥] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[الممتحنة: ٥] كما فيه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤] أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى)[1].

وطالب العلم عليه أن يكون متوازنًا وسطًا في جميع أمره وشأنه ، في حياته العلمية والعملية والاجتماعية والنفسية؛ لأنه جمع بين العلم والعقل، ومن جمع الله له بين العلم والعقل فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وجُنِّب الفتن، ورُزق البصيرة والنظر الثاقب.

*****

(١) الفتاوى (١٤ / ٣٠٧).



وعظ القلوب

إن مما ينبغي أن يعتني به طالب العلم في نفسه وغيره الوعظ، مستمعًا وواعظًا.

إن القلوب والنفوس تصدأ وتصاب بأدواء مما تسمع وتشاهد وتخالط وتقترف، ومن صخب الحياة، فتحتاج إلى تصفية وتنقية وعناية بصفة دائمة.

إن من أعظم ما يصفيها وينقيها ويزكيها الوعظ.

الوعظ دواء القلوب وشفاؤها وزادها، هو حادي القلوب في سيرها إلى علام الغيوب.

الوعظ كاسر النفوس وكبريائها، وسياط النفوس والأرواح ومهذب الأخلاق.

الوعظ يسح العبرات ويرجف القلوب، ولجام كابح للشهوات وحظوظ النفس وغرورها، وردع الظلم والبغي، وتأدية الحقوق والواجبات، وحفظ اللسان من الغيبة والوشاية ونحوها، والإقلاع عن القطيعة والتهاجر بين الإخوة والأقارب.

الوعظ هو المذكر والداعي للتوبة، ومحاسبة النفس ومكاشفتها دون تزييف وتبرير وتحايل بحجج واهية، واحتجاج بالخلاف والمصلحة، وضغط الواقع والمجتمع والمنصب وحب الشهرة والمال وإرضاء الآخرين، لأنه يوقظ الضمير في التعامل مع الله.

زهدت كثير من النفوس في الوعظ، فكان ما كان، قست القلوب وجفت العيون، وتغيرت النفوس والعقول والحكم على الأشياء إلا من رحم الله.

أصبح الوعظ عند البعض طريقة قديمة انتهى زمنها ورجالها.

إن مما يلاحظ إهمالًا شديدًا لركيزة الوعظ والتذكير كركيزة تربوية مؤثرة، وتجد من يقلل من أهميتها بقوله: كتاب وعظي، ومحاضرة وعظية، ومقال عاطفي!

إن صحّ أنّ الوعــظَ أصبحَ فضلةً ... فالمــوتُ أرحمُ للنفــوسِ وأنفعُ
فلولا رياحُ الوعظِ ما خاضَ زورقٌ ... ولا عــبرتْ بالمبحريــنِ البواخرُ

أساء بعض الناس فهم الدين الذي هو سر تميُّزنا وبقائنا، فشُغلنا بالشكل عن الجوهر، وبالقالب عن القلب، وبالمبنى عن المعنى، والحقيقة متى صلح الجوهر صلح الشكل، ومتى صلح القلب صلح القالب.

الوعظ هو من فقه الدعوة إلى الله: زمانًا ومكانًا وحدثًا دون جدال وحوار.

الوعظ منهج رباني نبوي تربوي إصلاحي، حاجة وضرورة في صلاح نفوسنا وأسرنا ومجتمعاتنا ومحاضن العلم والتربية وحين الإصلاح والفصل في الخصومات.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخول ويتحيّن أصحابه بالموعظة، وكذا صحابته من بعده وسلف الأمة.

حاجة القلوب للوعظ ليس لها حد عمري ولا منصب ولا شهادة علمية.

الشرع والحياة منهج تكامل وتوازن.

أعظم الوعظ وعظ القرآن والسنة، وتذكر الموت وزيارة القبور فإنها تذكر بالآخرة.

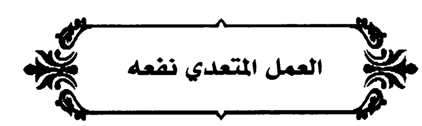
الحذر من نشر أحاديث الوعظ وقصصه الموضوعة والمكذوبة التي يكذبها العقل والحس.

ومن أعظم ما يعظ القلوب الوقوف على سير الصالحين والعباد والزاهدين والعلماء الربانيين ، فلا بد من المزج بين العلم ووعظ القلوب .

● يقول ابن الجوزي واعظ العلماء في صيده النفيس: (رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين، فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء ..)[1].

*****

(١) صيد الخاطر (٢٢٨).



العمل المتعدي نفعه أفضل من العمل القاصر

حصل خلاف بين العلماء في هذه القاعدة، والموفق من وفقه الله لفهمها والعمل بها، وهي من القواعد التي يحتاجها العالم، وطالب العلم، والداعية إلى الله وغيرهم.

وأما ما يفهم بعض الناس أن العمل المتعدي على إطلاقه أفضل من العبادة فلا يصح هذا، وواقع عمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسلف الأمة على خلاف ذلك، فكانوا يتعبدون الله بالسنن الرواتب والوتر وقيام الليل، والورد اليومي للأذكار، وقراءة القرآن، والصيام، وغيرها من النوافل، ولم يقصروا فيها ويتركوها لأجل العلم والتعليم والدعوة.

والراجح: أن النفع المتعدي نفعه أفضل في حال التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما، وأن يستوي العملان في الرتبة، وأن يتعين العمل على الفاعل، وهو المناسب شرعًا والملائم عقلًا. وتحمل النصوص الشرعية في أفضلية العمل القاصر مطلقًا على التفضيل المطلق حين عدم المزاحمة وإمكانية الجمع، ويختلف ذلك حسب الأحوال والأشخاص، وبهذا تجتمع النصوص التي تتضمن: أي العمل أفضل؟ ودلني على عمل يقربني إلى الجنة ونحوها.

● ورد عن الحسن قال: (اطلب العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، واطلب العبادة طلبًا لا يضر بالعلم، فإن من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)[1].

---

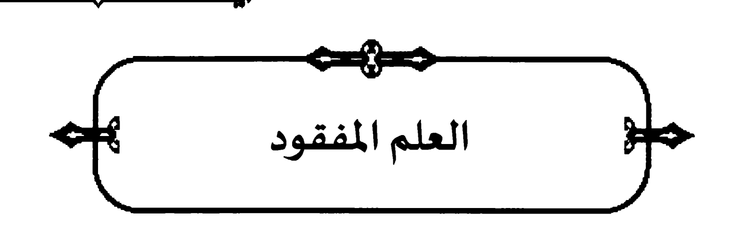
(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٩٢).

إن الانشغال بنشر العلم والدعوة إلى الله أفضل من نوافل العبادات حين التعارض وعدم إمكانية الجمع والمزاحمة.

إنقاذ الغريق وما في حكمه أفضل، بل أوجب من واجب العبادة حتى لو خرج وقتها، لأن في ذلك إنقاذًا لحياة المسلم.

إن الانشغال بإعداد الدرس والخطبة ونحوها حين المزاحمة وضيق الوقت مقدم على النوافل أو إطالتها.

*****



العلم المفقود

العناية بالقلوب وتزكيتها وتربيتها من العلم المفقود، وهو من أجل الأعمال عند الله، قال الله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[الشمس: ٩] وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»(١).

العناية بأعمال القلوب والبناء الإيماني أصل أصيل وركيزة من الركائز في عوامل بناء النفس في طريق العلم والدعوة إلى الله، اللذان هما من أعظم الطرق إلى رضوان الله والجنة، قال الله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[هود: ١١٢].

وإذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها، ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالي وتنقيص المعادي، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله.

إن ما نشاهده اليوم من الخلل في حياة كثير من الناس هو بسبب عدم العناية بأعمال القلوب، والاهتمام بأعمال الجوارح أكثر من القلوب، وإذا صلح القلب صلح سائر الجسد.

وأعمال القلوب من العلم المفقود القليل الذي زهد فيه كثير من الناس تعلمًا وتعليمًا، وهو أولى ما يُعتنى به، وأول ما يَعتني به طالب العلم والداعية إلى الله، فهو من أعظم من وسائل الثبات على دين الله، ومن أعظم العوامل في

(١) رواه مسلم (رقم ٢٥٦٤).

مواجهة الابتلاء والديمومة في الدعوة إلى الله.

والعلم وحده لا يكفي بمعنى المعرفة، بل لابد من تربية النفس وتربية الطلبة على ما يزكي القلوب ويطهر النفوس، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[البقرة: ١٥١] فليست مهمة الأنبياء مقتصرة على التعليم المعرفي فقط بل التزكية، والمراد بها في أحد معانيها: تطهير القلوب، وتنميتها بطاعة الله، يدعوهم إلى ما يصيرون به أزكياء، بالتربية على الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة التي لا تزكّى النفوس معها[١].

كم شقي بعض أصحاب العلم المجرد وأشقوا أممهم ومجتمعاتهم بسبب عدم التوازن.

والسعادة في النفس وإسعاد الآخرين غاية لا يسلك إليها بالعلم وحده من غير أن تصاحبه التربية والتزكية، والعلم الخالي من التزكية والتربية والخوف من الله ضرره أكبر، والتاريخ والواقع خير شاهد، والجمع بينهما وظيفة الأنبياء.

● قال يوسف بن الحسين: (في الدنيا طغيانان: طغيان العلم وطغيان المال، والذي ينجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه)[٢].

الناهلون من وعاء العلم كثير، والصاعدون في معراج العبودية قليل.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٨٨) زاد المسير (١/ ١١٣) تفسير ابن سعدي (٦٦).

(٢) اقتضاء العلم العمل (٨٠).



واحذر فضول النوم والطعام والخلطة وكثرة الاجتماعات، فهي مفسدة لشخصية طالب العلم، فاحرص على استثمار وقتك ووفرة النشاط والخفة والحركة ما دمت معافى، فهي مفاتيحك للنجاح، وكن وسطًا في تعاملك مع الجميع لتكون ناجحًا مع الجميع، وداعيًا ومؤثرًا في الجميع، وعامل كل إنسان بما يناسبه، القريب والبعيد، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والمثقف والعامي.

لا تَغْلُ في التواضع فيسخر منك ويذل العلم وأهله، ولا تغل في الجفوة والبعد فيزهد الناس في علمك وينفروا منك وتوصف بالكبر، وخير الأمور الوسط، فلا تكن لينًا فتعصر، ولا يابسًا فتكسر، والحكمة ضالة المؤمن.

● قال السبكي: (كنت أنا كثير الملازمة للذهبي، أمضي إليه في كل يوم مرتين بكرة والعصر، وأما المزي فما كنت أمضي إليه غير مرتين في الأسبوع، وكان سبب ذلك أن الذهبي كان كثير الملاطفة لي والمحبة فيّ، بحيث يعرف من عرف حالي معه أنه لم يكن يحب أحدًا كمحبته فيّ، وكنت أنا شابًّا، فيقع ذلك مني موقعًا عظيمًا، وأما المزي فكان رجلًا عبوسًا مهيبًا)(١).

● وقال السبكي في طبقاته في ترجمة سهل العجلي الشافعي: (شيخ البيهقي ومفتي بلده وقاضيها، الأستاذ الكبير، والبحر الواسع، ما أمّه الطالب إلا وجده سهلًا ، ولا أمّله الراغب إلا وتلقاه بالبشر وقال له: أهلًا)(٢).

واعلم أنه قد زهد كثير من الناس في علم بعض العلماء بسبب شدتهم وقسوتهم وربما نفروا منهم، وما هكذا خلق النبي الأمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

*****

(١) طبقات الشافعية (١٠/ ٣٩٨).
(٢) (٤ / ٣٩٣).

القدوة! القدوة!

بعث الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحاكي الناس ويجالسهم ويعاشرهم، فيدعوهم ويعلمهم، فيتأثروا ويقتدوا به، وهو من أعظم المقاصد في إرسال الأنبياء والرسل للأمم، والقدوة العملية أعظم مؤثر في الناس ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١].

وقد قيل: فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل، والمعنى: أن الأفعال أقوى تأثيرًا من الكلام، العالم والداعية قدوة في عبادته وأخلاقه وسلوكه وليس في علمه فحسب.

● قال ابن الجوزي في صيده العظيم: (ولقيت مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه، ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه، وإن وقع خطأ، ولقيت عبد الوهاب الأنماطيَّ، فكان على قانون السلف، لم تسمع في مجلسه غيبةٌ، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكان - وأنا صغير السن حينئذ - يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيت الشيخ أبا منصور الجَوَالِيقِيّ، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما



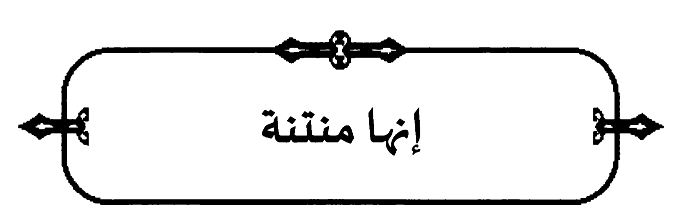
يقول، متقنًا محققًا، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه، فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثير الصوم والصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم، فقلّ الانتفاع بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد يلتفت إلى مصنفاتهم، فالله الله في العلم بالعمل، فإنه الأصل الأكبر، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدم مفلسًا على قوة الحجة عليه)[1].

● قال الإبراهيمي: (رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم من التلقين فهو ربح وفائدة)[2].

*****

(١) (١٥٩).

(٢) عيون البصائر (٢٩١).



إنها منتنة

إن طالب العلم والداعية إلى الله من أبعد ما يكون عن الطبقية والعنصرية بجميع أنواعها في البلدان والأنساب واللون والعرق واللغة وغيرها، فهو أسمى وأعلى من أن تكون عنده حاضرة في مشهده العلمي والأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وإن كانت فتلك الفاقرة والمصيبة التي لا تقبل منه، ويجب عليه أن يراجع إيمانه ونفسه في ذلك.

وكيف يكون ذلك منه وهو يقرأ في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التحذير والتنفير منها!

كيف وهو النموذج المحتذى!

كيف وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذامًا لها «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[1]!

كيف وهي ضد بناء المجتمع المسلم بل تقوضه وتقطعه!

كيف يليق بطالب علم أن تكون في قلبه فضلًا أن تكون ظاهرة في تعامله وسلوكه وعلى لسانه!

كيف تكون معلمًا وهاديًا وفيك من أمر الجاهلية!

أنتم القدوةُ والناسُ بكم تقتدي فَخرًا وتَزْهُو مَفخَرَا

إن علينا أن نحارب العنصرية والطبقية ونحذر منها قولًا وفعلًا في حياتنا

(١) رواه البخاري (٢٢٣٤).

وسلوكنا، ونربي الأجيال على عدم الاعتراف بها.

كيف نريد أن ننهض بالأمة الإسلامية ومشروع الإسلام وهي حاضرة في حياة القدوات وشعاع العلم والمعرفة!

إن العنصرية تعتبر من أكبر عوائق قيام المشروع الإسلامي على الوجه الأكمل وتحدياته.

إنها من القضايا الكبيرة التي حاربها الإسلام، لأنها تكون أكبر عائق لوحدة الإسلام والمسلمين وقوته وقوتهم.

واأسفاه! كيف يكون طالب العلم وهذا النتن في حياته، ويجعل ذلك مقياسًا له في التعامل! وأعظم مصيبة أن يكون مقياسًا لقبول العلم والحق من غير طبقته وجنسه وبلده.

واأسفاه أن تكون ميزانًا لرفع الناس واحتقارهم، والإقبال عليهم والإعراض عنهم! واخزياه ممن حاله هذه! وإلى الله المشتكى.

«دعوها فإنها مُنْتِنة»[(١)] أيّ قبح وصفت به، تنفيرًا للنفوس وإماتة لدعوى الجاهلية وتقديسًا لإخوة الإسلام، وكلكم لآدم وآدم من تراب.

إنها شين يُشان بها الرجال وعيب ينتقص بها القدر، فكيف بأهل العلم والفضل!

ما ميز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر القرشي على بلال الحبشي في نسب ولا لون ولا عرق.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٧).

ما ميز نساء الأنصار على أم أيمن الحبشية في نسب ولا لون ولا عرق.

ما ميز أحدًا على أسامة بن زيد لأن أمه غير عربية، حاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهؤلاء الأئمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العرب والعجم، وما أحد منهم رد علم أحد لنسبه وعرقه وبلده، وما كانت حاضرة في نفوسهم ولا مجالسهم، وما افتخر أحد على أحد بعربيته ولا أعجميته، لأن العلم يهذب النفوس ويدفن مآثر الجاهلية.

وما ميزوا بين طلابهم والناس في مجالسهم لتلك الاعتبارات، وحاشاهم.

«**دعوها فإنها مُنْتِنة**» شعار المسلم الحق.

الولاء والبراء لله ودينه ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا للون ولا جنس ولا قبيلة ولا بلد.

دعونا من اللمز من طرف خفي، والتمتمات بإشارة العيي، والأحرف بين السطور، والله يتولى السرائر.

إن علينا جميعًا أن نحاربها وننبذها بالقول ونمتثلها في الأفعال في حياتنا وسلوكنا، لا نجعلها مجرد تنظير وشعارات، فإذا جاءت المواقف تغيرت المواعظ والمبادئ، وقام الصنم الجاهلي في نفوسنا.

ليس من يجعلُ العقيدةَ نهجًا ... كالذي يَنتمي إليها شِعارًا

*****



مَصْدَرَا النجاح

الدعاء والإخلاص هما الأول والآخر، جاهد نفسك عليهما، فالنية تتقلب على المرء، وتوكل على الله، ومن كان الله معه لم يخف ولم يفقد شيئًا، واشكر الله دائمًا على تفضله ونعمته وما وهبك من سلوك طريق الحق والهداية والعلم والدعوة إلى الله، فبالشكر تزداد النعم.

قيل لأحد العلماء: لماذا نرى بعض الفضلاء والأخيار يتغير وينتكس؟ فقال: هو أحد أمرين: إما أنه لم يشكر الله، وإما أنه سخر من أحد، والعياذ بالله.

اطلب العون والتوفيق والسداد من الله دائمًا، فلولاه لضاعت بنا السبل وضللنا الطريق.

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى ... فأَوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

وإن كان عونُ الله للعبدِ واصلًا ... تأَتَّى له من كُلِّ شيءٍ مِدادُهُ

● قال هرم بن حيان لأويس القرني: (أوصني. قال: توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئًا أشد عليك منهما)[١].

وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو ألا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه[٢].

(١) صفوة الصفوة (٢ / ٣١).

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤١٥).

ابتهل وتبتل إلى ربك في طلب الإعانة والسداد والقبول والنفع حين إعداد مشاريعك العلمية والعملية، من دروس ومحاضرات وخطب وكتابة كتب وبحوث ونحوها، وفي خوف ووجل من الله بعدم القبول، لتكن نيتنا حاضرة في كل عمل، وأن ما تلقيه عبادة من العبادات تتقرب بها إلى الله ترجو ثوابها وقبولها وتخشى رفضها.

● قال القصري: (كان ابن طالب القاضي المالكي يذكر تنازع أصحابنا في المسائل، فربما ذكر في المسألة خمسة أقوال أو ستة، ثم تسيل دموعه، ويضع خده على الأرض ويقول: يا فتى: أردت أن يقال: فقيه! فهل معك عمل صالح تنجو به من عذاب الله! وإلا فما يغني هذا عنك! وما رأيت أكثر دموعًا عند ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه، وكان مع ذلك يقول: أعجبتني نفسي فأقول: يا ابن طالب، هبك أعظم الناس قدرًا، وأكثرهم علمًا، أليس يشفع وراء ذلك كله الموت!)[1].

اسأل الله الرشاد في القول والعمل، وتأمل سورة الكهف وما فيها من طلب الرشد: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: ١٠] وقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [الكهف: ١٧] وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكهف: ٢٤].

الرشد: هو السداد وإصابة وجه الحقيقة، والسير في الاتجاه الصحيح. فإذا أرشدك الله فقد نلت شرفًا عظيمًا وأوتيت خيرًا كثيرًا، وبوركت أعمالك وأقوالك وخطواتك.

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٣٠٨).



يـا ربّ هـيءْ لنـا من أَمرنا رشَـدا ... وانثرْ علينا من السَّترِ الجميلِ رِدَا
وافتحْ لنـا منك فتحًا غيـرَ منقطعٍ ... واجعل لنـا فرجًا وابعث لنا مَددا
وسهّل الصعبَ من خيرِ الأمورِ وكن ... لنا مُعينًـا على الطاعاتِ مُسـتنَدا
ولا تكلنـا إلـى تدبيـرِ أَنفسـنا ... فالنفسُ تعجزُ عن إصلاحِ ما فسدا
علمـتُ أنـك ذو جـود وذو كـرم ... هـيء لنـا ربّنـا مـن أَمرنا رَشـدا

هذا نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وابنه يدعوان بالقبول، وهما نبي وابن نبي ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ [البقرة: ١٢٧].

وكان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ على هذا من الاستغفار، والخوف والوجل، وتقديم الطاعة بين يدي الطاعة، والاستخارة فيما ترددوا فيه من الصواب في مسائل العلم وطلب الحق فيه.

● كان إبراهيم التيمي يقول: (اللهم اعصمني بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ والخصومات)[1].

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ [المؤمنون: ٦٠].

● ولقد استخار عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسألة الجد والكلالة في المواريث[2].

● وذكر الشافعي في كتابه «الأم» نحو أربع عشرة مسألة أنه قد استخار الله

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٣٥٩).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٢٧٠).

تعالى فيها بقوله: (وهذا مما أستخير الله فيه)[١].

●وكان الإمام البخاري يستخير الله في كل حديث يضعه في كتابه الصحيح، وقال مقالته المشهورة : (ما أدخلت في الصحيح حديثًا إلا بعد أن استخرت الله وصليت ركعتين وتيقنت صحته)[٢].

●وقال الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كنت إذا أردت أن أصنف الشيء دخلت في الصلاة مستخيرًا حتى يُفتح لي فيها ثم أبتدئ التصنيف)[٣].

● قال أبو قلابة: (إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث له عبادة، ولا يكن إنما همك أن تحدث به الناس)[٤].

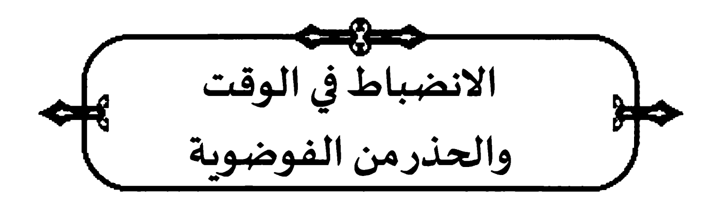
ومتى علم الله من قلب العبد إرادة النفع نفع به، فالإخلاص سر النجاح، مع بذل أسباب النجاح وعوامل القوة.

واسأل الله دومًا البركة في جميع أمرك وشأنك، في دروسك وخطبك وكتبك وأولادك وزوجك، فإن بركة الله إذا حلّت بساحة الإنسان تجلّت عظمة آثارها التي لا حدود لها، وورد في الأثر القدسي، يقول وهب بن منبه: (إن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال في بعض ما يعتب به بني إسرائيل: إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية)[٥].

*****

(١) الأم (١/ ٦٠، ٢/ ٤٤، ١٧٢).
(٢) هدي الساري (٣٤٧).
(٣) تذكرة لحفاظ (٢/ ٢٠٨).
(٤) اقتضاء العلم العمل (٣٤).
(٥) حلية الأولياء (١/ ٤٠) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٧١).





الانضباط في الوقت والحذر من الفوضوية

من أعظم ما يميز أهل العلم والدعاة والناجحين دقتهم في مواعيدهم وأوقاتهم، وهذا هو سبيل المؤمنين، وبخلافه سبيل المنافقين، ولا تكن ممن: «إذا وعَد أخلَفَ»[1] فاحذر الفوضوية في أوقاتك ومواعيدك، ولن تكون مثالاً ناجحًا ومتميزًا ومنجزًا ومنتظمًا إلا بذلك.

كيف قامت المشاريع العلمية والدعوية ونهضت المؤسسات والأفراد والأذكياء في العالم؟

الجواب: بالانضباط في أوقاتهم وعدم ضياعها والتخلص من الفوضى بكل معانيها، فوضى في الأفكار والأعمال والوقت، واستخدام وسائل التواصل التي سرقت كثيرًا من الأوقات وعطلت وأخرت كثيرًا من الأعمال.

وإليك صورة مشرقة وهمة عالية:

• قال ابن الجوزي: (وأفتى ابن عقيل، ودرّس وناظر الفحول، واستفتي في الديوان في زمن القائم، في زمرة الكبار، وجمع علم الفروع والأصول وصنف فيها الكتب الكبار، وكان دائم التشاغل بالعلم، حتى أني رأيت بخطه: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عَشر الثمانين

---

(١) رواه البخاري (٢٤).

أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة)[1].

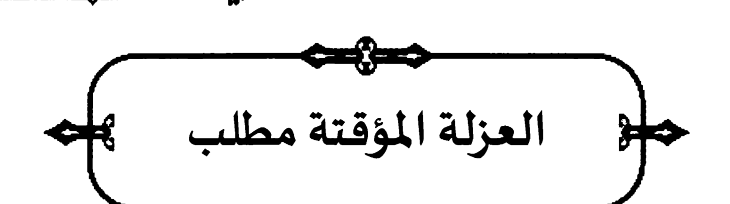
احذر الفوضوية وعدم التنظيم في مشاريعك وبرامجك، واحذر الازدواجية في أعمالك، ولذا يلاحظ على الكثير في أعمالهم فوضوية وازدواجية وفشل وضعف وقصور، ويجلس أحدهم سنوات على هذه الحال، وفي النهاية ضياع أعمال وأوقات وجهود وأموال، والنتيجة ضعيفة، وإذا ناقشته قال: اجتهدنا والتوفيق بيد الله. وفي الحقيقة هو إهمال وتفريط وتقصير، وعليه أن يتحمل تبعات تلك الأخطاء وذلك الفشل، وليقف أهل العمل الخيري مع أنفسهم وقفة محاسبة، كمحاسبة الشريك في المال لشريكه بدون أي مجاملات وتأويلات، وللأسف لا تحدث المحاسبة إلا إذا حصل خلاف شخصي ونحوه، وحينئذ يدب الخلاف، وتبدأ المحاسبة بل الصراع والمعارك، والله المستعان.

وعلى أهل العلم والدعوة أن يجدوا ويجتهدوا في المواظبة والانضباط فيما هم عليه من الدروس والمحاضرات ونحوها، لأن ذلك سبب رئيس في النجاح والنفع والانتفاع، وكم قرأنا وشاهدنا من أهل العلم من لا يتخلف عن درسه طيلة ثلاثين وأربعين عامًا إلا لأمر لابد منه، وتجده أحرص على الدرس من الطلبة، وإذا غاب اعتذر، ولا يتركهم بلا اعتذار، وفي كل هذا درس وتربية للطلبة ونحوهم على الصبر والمواظبة وألا يتخلفوا إلا لأمر ضروري.

*****

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٣٢٤).



العزلة المؤقتة مطلب

كثرة الخلطة مفسدة للقلوب ومضيعة للأوقات والأعمار، وما قام سوق الجد والاجتهاد والبذل والعطاء والنتاج العلمي بأنواعه إلا بشيء من ذلك.

العباقرة والجهابذة وأساطين الزمن، وروَّاد التاريخِ، وشُدَاةُ الفضائلِ، وكواكب المحافلِ، كلُّهم سَقَوْا غَرْسَ نُبْلهم من ماء العزلة حتى استوى على سُوقِهِ، فنبتتْ شجرةُ عظمتِهم، فآتتْ أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها.

إن إعطاء الوقت الكافي لإنجاز الأعمال أمر مطلوب، وهو مما لا يختلف فيه، فإن أولئك الذين يتنقلون جل أيامهم وأوقاتهم بين المناسبات واللقاءات والاجتماعات أناس لا يمكن أن تقوم لهم قائمة في سجل التميز والإنتاج والإبداع وفي تاريخ الأمة ماداموا كذلك، ومن لوازم الإبداع طول الانقطاع.

● قال سبط ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سمعت جدّي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفًا ، وكان يختم في الأسبوع، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس)[1].

● وبلغ عدد مؤلفات السيوطي ألفي كتاب، وجاء في شذرات الذهب: (ولما بلغ أربعين سنة من عمره أخذ في التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والاشتغال به صرفًا، والإعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحدًا منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٧٠).

ألفه في ذلك وسماه «بالتنفيس» وأقام في روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات، لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه، وقد توفي وعمره إحدى وستون سنة وعشرة أشهر)[١].

● قال الذهبي عن البيهقي: (وانقطع بقريته مقبلًا على الجمع والتأليف، فعمل السنن الكبير في عشر مجلدات، ليس لأحد مثله) وذكر جملة من كتبه[٢].

فماذا قدم كل واحد منا لأمته ودينه ووطنه!

فبادر وثابر وسارع وسابق، ودع عنك كثرة الخلطة والشواغل فهي المفسدة والمقتلة لدينك ودنياك وأخراك وقلبك.

واعلم: أن إضاعة الوقت يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترقٍّ على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى الأمام وإما إلى الوراء، ليس هناك وقوف البتة إلا مراحل تطوى إما إلى نار وإما إلى جنة ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: ٣٧][٣].

وليكن دعاؤك: اللهم إني أسألك الهمة العالية والعزيمة الماضية، والنفس الصادقة والنية الخالصة، واغتنام الأوقات والثبات حتى الممات ودخول الجنات.

فما العمرُ إلا صفحةٌ سوفَ تَنطوي ... وما المرءُ إلا زهرةٌ سوفَ تذبُــل

---

(١) (٨ / ٥٢).
(٢) (١٣ / ٣٦٤).
(٣) مدارج السالكين (١ / ٢٧٨).

واعلم: أن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا، فأما الكبير الذي يحمل هم العلم والعمل والدعوة وهمّ رضا الله والجنة فما له وللنوم! وما له وللراحة والكسل! وما له وللفراش الدافئ والعيش الهادئ والمتاع المريح! ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وصية من ابن القيم

● قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن بركة الرجل أن يكون معلمًا للخير، ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة ومحقت بركة لقائه والاجتماع به، بل تمحق بركة من لقيه واجتمع به، فإنه يضيع الوقت في الماجَرَيَات[1] ويفسد القلب، وكل آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله ونقصان درجته ومنزلته عنده، ولهذا وصى بعض الشيوخ فقال: احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت وتفسد القلب، فإنه متى ضاع الوقت وفسد القلب انفرطت على العبد أموره كلها)[2].

وليكن من دعائك: اللهم اجعلني ممن اصطفيته لغرس الخير في قلوب عبادك ابتغاء مرضاتك، مفاتيح للخير مغاليق للشر.

*****

---

(١) ومعنى الماجريات هنا الأحداث التي تجري من حول المرء، فينشغل ذهنه وعقله بها.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (٦).

صيانة العالِم للعلم

وينبغي للعالم والداعية وطالب العلم أن يعز العلم ونفسه، فلا يضعه في غير موضعه، ويرتفع بنفسه عن مجالس اللهو والعبث واللغط ومن لا يعظم حرمات الله، فإن ذلك أعظم وأبقى لدينه وعلمه وقلبه، وإن خلاف ذلك موجب لإهانة العلم وأهله وإسقاط للعلم وأهله من النفوس، ويتركوا التواضع المذموم، لأنه في غير موضعه مذموم بحجج واهية ساقطة.

يَقولــونَ لي فيكَ انْقبــاضٌ وإنما ... رأوْا رجُلًا عن مَوقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرى النَّاسَ منْ دَانَاهُمْ هانَ عنْدَهُمْ ... ومنْ لَزِمتْــهُ عِزَّةُ النَّفْــسِ أُكْرِمَا

ولو أنَّ أَهْلَ العلمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... ولــو عَظَّمُوهُ في النُّفُــوسِ لَعُظِّمَا

وَلكــنْ أَذَلُّــوهُ فَهَــانَ وَدَنَّسُــوا ... مُحيّــاهُ بالأَطــمَاعِ حتَّــى تَجهَّــمَا

● قال السبكي بعد أن ساق هذه الأبيات كاملة: (لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه! وما أعلى على هام الجوزاء موضعه! وما أنفعه لو سمعه من سمعه!)[1].

ولقد حصل ما حصل عبر التاريخ من مواقف وسير كانت سببًا في الاستخفاف بالعلم وأهله، وعدم الاكتراث بهم في المجالس العامة والخاصة في أفعالهم وفتاويهم.

إن على أهل العلم تعظيم قدسية العلم والتي وضع من بعضهم تحت وطأة المطامع والزلفى لأهل الدنيا والعابثين بالدين والمستخفين، استهدفوا به

---

(١) طبقات الشافعية (٣/ ٤٦١).

ما رخص من الأغراض، وما قرب من الغايات، وسخّروه من أجل الدنيا، فهان في نظر الناس، ممن لا يعرف للعلم حقيقة ؛ فأهانوا حَمَلَتَهُ، وعدّوهم من سَقَطِ المتاع، وقد يستثنى بعض الأمر مراعاة للمصالح والمفاسد على حقيقتها لا توهمها.

● قال الإمام أحمد: (عزيز علي أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن)[1].

عظيم أن تذيب الدنيا والشهوات قلوب أهل القرآن، وأهل العلم هم أهل القرآن.

من أعظم المصائب أن توغلَ القلوب في الدنيا وشهواتها وهي حاملة للقرآن.

كلمة عظيمة في مبناها ومعناها ومغزاها من الإمام أحمد.

فهل نعيها حقًّا في مثل هذه الأزمان!

إن بعد العالم عن بعض المواضع ليس تكبرًا ولا انقباضًا، وإنما هو بعد عن مواقف الذل ومواطن الهوان.

والعـــزُّ في كنـــفِ العزيـــزِ ومـــنْ   عبـــدَ العبيـــدَ أذلّـــه الله

إن قائل الأبيات السابقة هو الإمام القاضي الجرجاني الشافعي، قالها يصف حالة يجسد فيها قضية من القضايا المهمة المصيرية التي ربما يغفل عنها بعض أهل العلم، أبيات تبقى شامخة متجددة أصيلة، تبعث في النفس صيانة العلم وعزته عن كل ما يدنسه ويدنس أهله، وتوقظ بعض النفوس الغافلة الطامعة .

*****

---

(١) مناقب الإمام أحمد (٢٧٤).

ليس كل ما يُعلَم يُقال ويُعمَل

ليس كل ما تتعلمه من الناحية العلمية والدعوية وغيرها يكون مناسبًا لأن تعلّمه وتنشره وتنفذه في بلدك، فلكل بلد ما يناسبه، وضابط ذلك في الأمور الاجتهادية والوسائل والفروع، وليس في الأصول والقضايا الكبيرة، وأحيانًا يكون من المناسب ذكر الخلاف في بعض المسائل وتبيين أدلة القولين وبدون ترجيح وتبنٍّ للقول، وخاصة في المسائل التي ترى أن الراجح دليلًا خلاف ما عليه الفتوى، وهذا يكون طريقًا لقبول القول الآخر في الجملة، والتقليل من حدة الخلاف.

إن من القواعد المقررة في الشريعة ولدى فقهائها ما يسمى بالسياسة الشرعية، والسياسة تكون في الأقوال والأفعال، العلمية وغيرها، فيحرص طالب العلم ألا يتكلم ويخوض في شيء إلا منضبطًا مراعيًا ما تقدم، وألا يطلق الكلام بدون وزن ومعرفة عواقبه وما آلاته.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ**»[1].

وروى الإمام البخاري في كتاب العلم (باب ترك بعض الأخبار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس).

● قال ابن حجر في الفتح: (ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأنّ الإمام يسوس

(١) رواه البخاري (رقم ١٢٥) ومسلم (رقم ١٣٣٣).

رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولًا ما لم يكن محرّمًا)[١].

●وقال الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب العلم (باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألاَّ يفهموا): وقال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله!).

● وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة). أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع[٢].

● قال ابن حجر: (ممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي في ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم)[٣].

●واسمع لفقه المحدث الكبير أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (حفظت من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)[٤] والبلعوم: مجرى الطعام.

وكتم الحق أحيانًا من المصلحة لما يترتب عليه أحيانًا من مفسدة أعظم، ولن يقف تبيين الحق على أحد، وخاصة في هذه الأزمان، فالعلم مبذول ومنشور،

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٥).
(٢) مقدمة مسلم (١/ ١١).
(٣) الفتح (١ / ٢٢٥).
(٤) رواه البخاري (١٢٠).

ومن يتحرى الحق فلن يضل طريقه، ومن كابر الحق فلن يراه ولو كان أمامه كالشمس، فتأمل وتدبر وكن حكيمًا.

ومن علامات وخصائص الرسوخ في العلم النظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات[١].

حكمة شاطبية:

● قال الإمام الشاطبي: (ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره إن كان من علم الشريعة ومما يفيد علمًا بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أولا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص)[٢].

● ودونك هذه القاعدة الرائعة التي ذكرها الشاطبي وأرشد إليها مخاطبًا كل عالم وداعية حيث أوصاه أن يعرض مسألته على الشريعة فقال: (فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمن وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تتقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على المصلحة الشرعية والعقلية)[٣].

وما يزال بعض الناس اليوم يؤجج الصراع العلمي في النفوس ويعيده مرة أخرى من غير حكمة وهدى بحجج واهية ساقطة، وربما كان استفزازًا ومناكفة، وربما قصد الحق، وخاصة مع الانفتاح العالمي اليوم، والحكمة ضالة المؤمن، والعقل

---

(١) الموافقات (٥/ ٢٣٣).

(٢) الموافقات (٤ / ١٨٩).

(٣) نفس المصدر (٤ / ١٩١).

العقل، أين رحم العلم ووشائجه! وكم من مبتغ للخير لا يصيبه.

واعلم - رحمك الله - أنه ليس بالضرورة أن يكون لك رأي في كل نازلة، أو مسألة، أو مشكلة.

وإذا كان لك رأي في شيء من ذلك فليس بالضرورة أن تبديه، وإذا أردت إبداءه فليس بالضرورة أن تبديه لكل أحد أو في كل مناسبة.

وإذا أبديته فليس بالضرورة أن تتشنج في إبدائه، أو تتعصب له، أو تظن أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا خالفك الرأي أحد من الناس فليس بالضرورة أن يكون ذلك المخالف عدوًّا، أو متربصًا، أو حاسدًا.

وليس بالضرورة إذا انتقدت أحدًا من الناس أن تسعى إلى تجريحه، وإسقاطه، والإساءة إليه، وتجريده من كل حسنة.

وليس بالضرورة إذا اختلفت مع أحد أن تعاديه، وتدعو إلى عداوته، وتشهر به قدر ما تستطيع[1].

واعلم - رحمك الله - أن بعض هذا القول وتقريراته يختلف الحال فيها من بلد إلى بلد، فبلد تغلب فيه شعائر الإسلام والسنة ليس كبلد تضعف فيه شعائر الإسلام وتغلب فيه مخالفة السنة وما عليه سلف الأمة، والحكمة ضالة المؤمن.

واحذر من قوم سوء يطلبون زلتك في نقد أو فتوى، ومن قوم أهل غيرة وحماس، فيحدث ما لا يحمد عقباه وتتعطل مشاريعك وأعمالك، وتجلب لك البلابل والقلاقل، واللبيب بالإشارة يفهم، ولا تكن خِبًّا ولا الخِبّ يخدعك.

*****

---

(١) مقالة للدكتور محمد الحمد.

كن وفيًّا

الوفاء من الأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، وهو صفة من صفات النفوس الشريفة، يعظم في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون، كلمة جميلة في معناها ومبناها، الوفاء مركب من العدل والجود.

كن وفيًّا لأهل العلم الذي تتلمذت عليهم في بلد الهجرة لطلب العلم، وللبلد الذي كنت فيه، وإن اختلفت معهم في بعض الأشياء في مرحلة من المراحل.

● ونقل عن الإمام الشافعي قوله: (الحر من حفظ وداد لحظة وتعليم لفظة).

وقد قيل:(أبو الإفادة أقوى من أبي الولادة).

كن وفيًّا لمن كنت حسنة من حسناتهم، وثمرة من غرسهم، والفرع للأصل ينسب.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»**[1].

ولقد رأيت بعض طلبة العلم إذا أثنى شيخه على كلامه وكتابه قال: (ما أنا إلا حسنة من حسناتكم، والفرع للأصل ينسب، ولك الأجر موفور بإذن الله).

من المشـــاعرِ مـــا يعيا البيـــانُ به   من ذا يترجمُ عـــن قلبِ بها نبَضا

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

● قال ابن تيمية: (كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها؛ وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة، فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرنًا بعد قرن)[١].

واختلف أهل العلم في الصلاة بعد التشهد؛ أيبدأ بالدعاء للوالدين أو المعلم؟ على قولين، وكل ذلك تعظيمًا لحق المعلم[٢].

ومن بذل بعض عنايته لك فاجعل جميع شكرك له.

الوفاء للأستاذ والشيخ: في الزيارة والوصال، في الدعاء له ونشر علمه، في الذب عن عرضه، الوفاء في محبته ومواساته.

لا خَيْرَ فِي من ليسَ يَعرفُ فضلهُمْ ... مــنْ كانَ يجهلُهُ فلسْــنَا نجهلُهُ

فهذا رسول الله وخير خلق الله يكون وفيًا لزوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فكان يكثر من ذكرها فتغار عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بها صديقات خديجة فيهديها لهن[٣] حبًّا ووفاء لها، ببذلها ووقوفها ومساندتها ومؤازرتها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين كذبه قومه، وحينما نزل عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الوحي في الغار بتلك العبارات الجميلة التي سجلها التاريخ لها.

ويكون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيًّا لكافر حتى بعد وفاته.

فعن جبير بن مطعم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في أسارى بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له**»[٤] لأن مطعماً كان له

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٢).
(٢) حاشية العدوي (١/ ٢٧٧) المجموع (٢/ ٢٤٣).
(٣) رواه الترمذي (٢٠١٧).
(٤) رواه البخاري (٣١٣٩).

يد عند رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذ أجاره حين رجع من الطائف وذب المشركين عنه، فأمر أولاده الأربعة فلبسوا السلاح وقام كل واحد منهم عند الركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشًا فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تُخفَر ذمتك. فأحب صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه إن كان حيًّا فكافأه عليها بذلك.

- قال الصنعاني في سبل السلام: (وفيه أنه يكافأ المحسن وإن كان كافرًا).

وهكذا بقيت سيرته منارة للوفاء، وقدوة للأوفياء، ولم تدنس بجحود.

فما أحرى أمتنا أن تقتفي آثار سيد الأنبياء وأن ترفع في العالمين لواء الوفاء.

زيارة العلماء وطلاب العلم تزيد في نفسك شحنة إيمانية وقوة علمية وهمة عالية، وأدبًا وسلوكًا وتواضعًا، تقف على برامجهم وهمتهم، وتنظر إلى سمتهم ومواقفهم، فاحذر التعالي وكن وفيًّا لأهل العلم والمعالي.

إن الوفاءَ على الكريمِ فريضةٌ ... واللؤمُ مقرونٌ بذي الإخلافِ
وترى الكريمَ لمن يعاشرُ منصفًا ... وترى اللئيمَ مجانبَ الإنصافِ

ولقد أدركت بعض طلبة العلم لما تقدم السنّ بشيخهم أصبحوا يذهبون به إلى النزهة ويخرجون به إلى مدينة رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعلمهم بحبه المدينة والاستجمام بها، وآخرون يذهبون بشيخهم إلى مكة للحج والعمرة.

ولقد أدركت بعض طلبة العلم حين رجوعهم من أسفارهم يبدأون بالسلام على والديهم ثم يذهبون للسلام على شيخهم.

ولقد أدركت بعض طلبة العلم يتفقدون حاجات شيخهم ولوازم الحياة، ويذهبون به إلى المستشفى.

ولقد زرت أحد العلماء في المستشفى، وكان أحد طلابه مرافقًا له وقائمًا عليه، وتعجبت من معرفة دقائق حياة شيخه، فيعرف ماذا يشتهي من المأكول والمشروب، وما يمتنع منه، وأمراضه وعلاجه، وماذا يحب وماذا يكره من أمر دنياه، وكيف برنامج حياته، وكيف يدخل السرور عليه! فما أجمل البر والصحبة والتلمذة! فهنيئًا لها من نفوس عظيمة وفيّة بارة! والتوفيق والرزق من الله.

أفضِّل أستاذي على فضـلِ والدي ... وإنْ نالني من والدي المجـدُ والشرفُ

فهذا مـــربّي الروحِ والـــروحُ جوهرٌ ... وذاك مربّي الجسمِ والجسمُ كالصدف

ولقد أدركت بعض مشايخنا يتفقدون طلابهم إذا سافروا أو غابوا عنهم، وأدركتهم وهم يزورون طلابهم إذا مرضوا ويقومون على حاجاتهم.

إنها حُلل إبريزية وصور ذهبية من الصور المشرقة والمضيئة للبر والوفاء من الطلاب لشيخهم ومن الشيخ لطلابه.

فَبِـــذاكَ تَعلـــو في أشَـــمٍّ شـــامِخٍ ... وتَحطُّ رحلكَ فوقَ هَـــامِ الخُنَّسِ

ما أحوجَنا اليوم إلى تلقِّي هذه الدروس العظيمة في الحفاظ على الودِّ وحسن العهد والبر والوفاء والمشاعر اللطيفة الطيبة، قلوب ونفوس هذبها وزكاها العلم، أعظم رحم ووصال، والطلاب كالأولاد، درجات في البر والوفاء والعقوق والصلة والدعاء.

حفْـظُ المَـوَدَّةِ طَبْعٌ لَيْسَ يُحْسِـنُهُ ... إِلَّا كَرِيمٌ عَلَى الإِحْسَـانِ مَجْبُولُ

*****



المؤازرة

كن مواسيًا لإخوانك متفقدًا لحاجاتهم من العلماء وطلاب العلم والدعاة، ولو بالزيارة والكلمة الطيبة.

كن مواسيًا لإخوانك في فرحهم وترحهم وحزنهم وضيقهم وهمهم وغمهم، رحيمًا بهم شفيقًا عليهم، كن لهم دفئًا وأمانًا وعضدًا ونصيرًا.

● قال ابن مناذر[١]: (كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شسع نعلي، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع؟ فقال: أواسيك في الحفاء)[٢].

ما أعظم المواساة وأعظم الأجر!

نفوس كبيرة وصنائع عظيمة.

إنه المعنى الصادق والشامل للأخوة والمحبة، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء.

مــؤازرةُ الإخوانِ ذخرٌ من الذخرِ   وللحُرِّ أن يشــكو هواه إلى الحرِّ

جعلنا الله وإياكم ممن صلحت سريرته وصفت نيته، وسمت رغبته وحسنت صحبته، وازدادت محبته، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

---

(١) كان من العلماء بالأدب واللغة، تفقه وروى الحديث. وتزندق، فغلب عليه اللهو والمجون وذكرت هذا للتنبيه والاعتبار. الأعلام (٧ / ١١١).

(٢) البصائر والذخائر (٥ / ٣١).

إننا حينما نسمع عن بعض المواقع والمجتمعات، ومع تغير الزمان والأحوال، تجد أنها كفيلة بتغيير أي قلب مهما كان ثبات صاحبه إن لم يدركه الله برحمته، والأخذ بالأسباب من الشرع والفطرة والعقل.

اطمئنوا على إخوانكم وتفقدوهم، فمن وجدتموه على الجادة فثبتوه، ومن وجدتموه قد تغير أو يوشك أن يسقط فأسندوه، ولا تنشغلوا عن بعضكم فتتخطفهم شياطين الإنس والجن.

فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم رسل الله مع كثرة أشغاله وهمومه وقيادته لأمته،جهادًا وتعليمًا وتخطيطًا وتنظيمًا وإدارة للبلاد، إلا أنه يتفقد أصحابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فما شغله كل ذلك عن أصحابه محبة ووفاء، بأبي وأمي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

مــاذا أقــولُ إذا وصفــتُ محمدًا ... عجَــز البيــانُ وبــرّه لا يُفقــد

كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتفقدون إخوانهم، فيسألون عن آخرتهم خوفًا على إيمانهم، ويسألون عن دنياهم خوفًا عليهم من الفقر والعوز والآفات.

ورد عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لقيني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالًا ودينًا. قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا»)[1].

ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من

---

(١) رواه الترمذي (رقم ٣٠١٠) وقال: حسن غريب. وصححه الحاكم، وحسنه المنذري (الترغيب ٢ / ٣١٤).

الأنصار، يقال له «أبو أمامة» فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟» قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله)[١].

ودخلت امرأة من الأنصار على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة الإفك وهي حزينة تبكي، فبكت معها[٢] فقالت عائشة: لا أنساها لها [٣].

وعندما تاب الله على كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تخلفه عن غزوة تبوك دخل المسجد مستبشرًا، فقام إليه طلحة يهرول فاحتضنه وقال: لا أنساها لطلحة أبدًا [٤].

إنها مواقف الجبر والمؤازرة فلا تنسى، وكم لها في النفوس من أثر عميق في الهداية والتثبيت.

وتـــراهُ في جـــبر الخواطرِ ســـاعيًا ... وفـــؤادهُ متصـــدعٌ مكســـورُ

فمن سار بين الناس جابرًا للخواطر أدركه الله في جوف المخاطر، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾[الرحمن: ٦٠] ومن أعظم الاصطفاء أن تكون ممن يستخدمه الله لجبر القلوب المنكسرة ومؤازرة الأرواح المنفطرة.

خفّف عن الناسِ ما يَلقونَ من ألمِ ... فإن عجزتَ فأخرجْ طيّبَ الكَلِمِ

وانسُج من الفأل أثوابًا لتفرحَهم ... وكن كنورٍ لهـــم في أَحلكِ الظُّلَمِ

لا يُسعِدُ النّاسَ في قولٍ وفي عملٍ ... إلا امرؤٌ طيّبُ الأخلاقِ والشّيمِ

وخطب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: (إنا والله قد صحبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا

---

(١) رواه أبوداود (١٥٥٥) قال الحافظ: هذا حديث غريب «نتائج الأفكار» (٢/ ٣٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٠).

(٣) هذه اللفظة لم أجدها، وسمعتها من بعض الفضلاء والوعاظ.

(٤) رواه البخاري (٤٤١٨).

بالقليل والكثير)[١].

● وشنف سمعك بسيرة عطرة ندية لإبراهيم المقدسي الفقيه العماد الحنبلي المتوفى سنة ٦١٤هـ (كان كثير التعبد والتلاوة للقرآن والجلوس في المسجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان إذا غاب أحد من إخوانه أرسل إلى بيته النفقة وغيرها، وربما جاء بنفسه إليهم، وكان من إكرامه لأصحابه ومعارفه يظن كل أحد أن ما عنده مثله، من كثرة ما يأخذ بقلبه ويكرمه، وذكر الضياء من كرمه وحسن عشرته أن بعض أصحابه كانت تكون له الحاجة إليه، فيمضي إلى بيته، فيقيم عنده اليوم واليومين. قال: وما رأيته يشكو من ذلك شيئًا. قال: وما أظن أني دخلت عليه قط إلا عرض علي الطعام. قال: ولم يزل هذا دأبه من وقت ما عقلنا، وكان يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم كثيرًا، وربما بعث إلى الناس نفقة سرًّا، وكان بعض الناس يرسل إليه يشتري له حاجة، فربما زاد على ثمنها من عنده ولا يعلمه بذلك، وسمعت من بعض أهله أنهم قالوا: ربما كنا نؤذيه، فما يغضب علينا، ويقول: الذنب لي. وأنه كان يدعو لمن ظلمه ويحسن إليه)[٢].

لــه هـمـمٌ لا مُنتهـى لكبارِهـا وهمتُه الصّغـرى أجلُّ من الدهرِ

● كان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم، مائة بعد مائة، لفقره وحاجته، وقد صحب أباحنيفة سبع عشرة سنة، وذكر الذهبي في السير عن أبي يوسف قال: (كنت أطلب العلم وأنا مقل، فجاء أبي، فقال: يا بني، لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فأنت محتاج. فآثرت طاعة أبي، فأعطاني أبو حنيفة مائة

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (رقم ٥٠٤) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح، غير عباد بن زاهر، وهو ثقة (مجمع الزوائد ٧/ ٤٦٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠٤).

درهم وقال: الزم الحلقة، فإذا نفذت هذه فأعلمني. ثم بعد أيام أعطاني مائة)[١].

● وفي السير: (أن يحيى بن خالد وزير هارون الرشيد يجري على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول: اللهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته. فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان)[٢].

● واسمع إلى هذه المؤازرة والمناصرة والإنقاذ من القتل من الشيخ لتلميذه، فقد ذكر ابن عبدالبر ما نصه: (فلما بلغ محمدَ بن الحسن أن الشافعي في القوم الذين أُخذوا من قريش بالحجاز واتُّهموا بالطعن على الرشيد والسعي عليه، اغتم لذلك غمًّا شديدًا، وراعى وقت دخولهم على الرشيد. قال: فلما أُدخلوا على الرشيد سألهم، وأمر بضرب أعناقهم، فضربت أعناقهم، إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة وأنا - أي الشافعي - فقال للعلويّ: أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة؟ فقال العلويّ: أعوذ بالله أن أَدّعي ذلك أو أقوله. قال: فأمر بضرب عنقه، فقال له العلوي: إن كان لابد من قتلي فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة، فهي عجوز لم تعلم بخبري. فأمر بقتله فقتل، ثم قدمت، ومحمد بن الحسن جالس معه، فقال لي مثل ما قال للفتى، فقلت: يا أمير المؤمنين، لست بطالبي ولا علوي، وإنما أُدخلت في القوم بغيًا عليّ، وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه، والقاضي يعرف ذلك، أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب بن عبدمناف. فقال لي: أنت محمد بن

---

(١) (٨/ ٥٣٦).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٢).



إدريس؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما ذكرك لي محمد بن الحسن. ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد، ما يقول هذا؟ هو كما يقوله؟ قال: بلى، وله من العلم محل كبير، وليس الذي رُفع عليه من شأنه. قال: فخذه إليك حتى أنظر في أمره. فأخذني محمد، وكان سبب خلاصي)[1].

وثقتُ بالله ربي وحسبيَ الله حسبي
والله كافٍ وواقٍ ودافعُ كُلَّ خطبِ

● وورد عن الشافعي يقول: (إن ابن عجلان أنكر على والي المدينة إِسْبَال الإِزار يوم الجمعة على رؤوس الناس، فأمر بحبسه، فدخل ابن أبي ذئب على الوالي فشفع له فَخَلَّى سبيلَه)[2].

● وكان الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يحمل أصحابه على الصبر على البلاء في بث الحق ويقوّي عزيمتهم)[3].

ومن المؤازرة الذب والدفاع عن عرض إخوانك والثناء عليهم والتماس الأعذار لهم حين الخطأ، وقطع الطريق على الوشاة والحاسدين وقطاع الطرق، واحذر من الطعن في الظهور، فليس ذلك من أخلاق المسلم وإنسانيته ومروءته، وهكذا خلق النبي الأمين صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَه**»[4].

---

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ (٩٨).
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢ / ٢١٨).
(٣) المعيار المعرب (١١ / ١٧١).
(٤) رواه البخاري (٤٦٥٨).

وكنْ مثلَ طعـــمِ الماءِ عذبٌ وباردٌ ... عـــلى الكبدِ الحرّى لـــكلّ صديقِ

ولك أن تتأمل وتستقي الدروس من مؤازرة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي درس عظيم بليغ في المؤازرة والمناصرة، لم يكن منها التهرب و الخذلان وطلب الطلاق، وهي امرأة أُميّة حديثة عهد بإسلام، ناصرته وثبتته بكلمات، فما بال بعض القوم وهم راسخون في العلم والإسلام، وكأن الأمر لم يكن ولم يعنهم، وهم إخوتهم ، فضلاً عن الطاعنين في الظهور.

● واسمع إلى تثبيت الأعرابي الأمي للإمام أحمد: (يا هذا، إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل، وإنك إن لم تُقتل تَمُتْ، وإن عشت عشت حميدًا. قال أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه)[1].

واحذر من حال من:

يُريـــكَ البشاشـــةَ عنـــدَ اللّقـــاء ... ويُبريـــكَ في الـــسرّ بـــريَ القلم

عظّم إخوانك وبجّلهم وأنزلهم منازلهم بل فوق ذلك، تشريفًا وإكرامًا للعلم، فأي قوم أكرم وأحق بالتبجيل من أهل العلم، وفي ذلك تربية للنفس وتربية للآخرين لتعظيم أهل العلم وتبجيلهم.

● وقال الحسن بن أحمد الليث: (سمعت أحمد بن حنبل، وسأله رجل فقال: بالري شاب يقال له «أبو زرعة» فغضب أحمد وقال: تقول: شابٌ! كالمنكر عليه، ثم رفع يديه وجعل يدعو الله لأبي زرعة ويقول: اللهم انصره على من بغى

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٦٦).



عليه، اللهم ادفع عنه البلاء، اللهم اللهم. في دعاء كثير. قال الحسن: فلما قدمت حكيت ذلك لأبي زرعة، وحملت إليه دعاء أحمد بن حنبل، وكنت كتبته، فكتبه أبو زرعة، وقال لي أبو زرعة: ما وقعت في بلية فذكرت دعاء أحمد بن حنبل إلا ظننت أن الله يفرج علي بدعائه)[١].

تعظيم وإجلال ومدافعة ومؤازرة، وسعي بين العلماء بالخير ونقل الثناء والدعاء، لا وشايات وكذب وافتراء ونميمة وغيبة وتلبيس، والعلم ليس بكثرة الرواية، وليست العبادة بكثرة الذكر والصلاة، وإنما الكف عن محارم الله.

كانوا لايدعون أحدًا يغتاب في مجالسهم.

● ورد عن سعيد بن جبير أنه كان لا يدع أحدًا يغتاب عنده أحدًا، ويقول: إن أردت ذلك ففي وجهه[٢].

● وكان ميمون البصري لا يغتاب ولا يدع أحدًا يغتاب عنده، فإن انتهى وإلا قام وتركه[٣].

إنها تربية للنفس ولمن حوله من الطلاب ونحوهم، إنه عمل بالعلم وأثره في حياتهم.

واسمع أخرى لهذا الخلق النبيل:

● فقد قام جماعة من مختلفي المذاهب في الشام ومصر في الدفاع عن ابن تيمية لما كفّره بعض العلماء، ودفعوا بالسلطان إلى قتله، ومن المدافعين عنه:

---

(١) سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (١٢٢٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥ / ١٩٥).

(٣) تهذيب الكمال (٢٩/ ٢٠٥).

الشافعي الأذرعي قاضي حلب، وعمر الحمصي الشافعي في كتابه الشهب العلية في الرد على من كفر ابن تيمية، وكتب قاضي الحنفية بدمشق شمس الدين ابن الحريري ثناء على علم ابن تيمية وفهمه[١].

بعــضُ المواقفِ يارجــالُ حرائرٌ والبعــضُ يا بنَ الأكرمــينَ إماءُ

● قال الطوفي الحنبلي في دفاعه عن أبي حنيفة: (وبالغ بعضهم في التشنيع عليه حتى صنف كتابًا في الخلاف بين النبي ﷺ وأبي حنيفة، وكثر عليه الطعن من أئمة السلف حتى بلغوا فيه مبلغًا ولا تطيب النفس بذكره، وأبى الله إلا عصمته مما قالوه وتنزيهه عما إليه نسبوه، وجملة القول فيه أنه قطعًا لم يخالف السنة عنادًا، وإنما خالف فيما خالف منها اجتهادًا لحجج واضحة ودلائل صالحة لائحة، وحججه بين الناس موجودة، وقل أن ينتصف منها مخالفوه، وله بتقدير الخطأ أجر، وبتقدير الإصابة أجران، والطاعنون عليه إما حساد، أو جاهلون بمواقع الاجتهاد، وآخر ما صح عن الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إحسان القول فيه والثناء عليه)[٢].

وهذا الباز، عليه رحمة الله، ما سمع بمظلمة تقع على طالب علم أو داعية إلا وقام بالشفاعة له مباشرة، وإن كان خارج بلاده، كتب لأحد الولاة في بلده يستشفع بهم عند حاكم تلك البلدة، مؤازرة ومناصرة، إنما المؤمنون إخوة، انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .

هــمُ الرجــالُ وعيــبٌ أن يقالَ لمــنْ لم يكُــن في زيّهــم رجــلُ

(١) تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون للعمران. الدرر الكامنة (١ / ١٧٢).
(٢) شرح مختصر الروضة (٣/ ٢٩٠).



سارتْ مَبادئُهم وسارتْ خلفَها ... أفعالهُم في موكبٍ متمثّل
ليستْ مبادئُهم حديثَ منمِّقٍ ... زيفَ اللسانِ ولا كلامَ مُجمِّلِ

● قال أبو حازم الأعرج: (لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه متماريين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا)(١).

● وقال قتيبة بن سعيد: (لما احترقت كتب ابن لهيعة، بعث إليه الليث بن سعد من الغد بألف دينار)(٢).

● وقال هارون المستملي: (لقيت أحمد بن حنبل فقلت: ما عندنا شيء. فأعطاني خمسة دراهم وقال: ما عندنا غيرها. وقال المروذي: رأيت أبا عبد الله قد وهب لرجل قميصه وقال: ربما واسى من قوته)(٣).

● وسمعت أحمد بن عبد الله العراقي: حدثني منصور الغضاري قال: (شاهدت الحافظ في الغلاء بمصر وهو ثلاث ليال يؤثر بعشائه ويطوي. رأيت يومًا قد أهدي إلى بيت الحافظ مشمش فكانوا يفرّقون، فقال من حينه: فرّقوا ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤) [آل عمران: ٩٢].

شادوا من التقوى أَصحَّ مواقفٍ ... وبَنوا من الحسناتِ خيرِ قلاعِ

إن من أعظم البلاء ألا يجد العالم وطالب العلم والداعية من يؤازره على الحق والثبات عليه ومشاريعه، وألا يجد من يؤازره حين البلاء بأنواعه وأصنافه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٦).
(٢) المصدر السابق (٧/ ١٣٤).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٢١٩).
(٤) المصدر السابق (١٦/ ٢٩).

أيها العظماء، ثبتوا بعضكم واتحدوا وتآزروا، وليشد بعضكم من بعض.

وإن من حق أهل العلم والدعوة ومن المؤازرة، أن نتفقد ذويهم تربية وسلوكًا وقضاء للحاجات، حال الحياة وبعد الممات.

● وكان الشعراني (ت ٩٤٢) (إذا مات أحد من طلبة العلم، وخلّف أولادًا قاصرين، قام بمدهم بالمال ويسعى في توظيفهم)[1].

● ورد عن العباس الترقفي أنه قال: (خرج علينا سفيان بن عيينة يومًا، فنظر إلى أصحاب الحديث فقال: أفيكم أحد من أهل مصر؟ فقالوا: نعم. فقال: ما فعل فيكم الليث بن سعد؟ فقالوا: توفي. فقال: أفيكم أحد من أهل الرملة؟ فقالوا: نعم. فقال: ما فعل ضمرة بن ربيعة الرملي؟ قالوا: توفي. قال: هل فيكم أحد من أهل حمص؟ قالوا: نعم. قال: ما فعل بقية بن الوليد؟ قالوا: توفي. قال: هل فيكم أحد من أهل دمشق؟ قالوا: نعم. قال: ما فعل الوليد بن مسلم؟ قالوا: توفي. فقال: هل فيكم أحد من أهل قيسارية؟ قالوا: نعم. فقال: ما فعل محمد بن يوسف الفريابي؟ قالوا: توفي. قال: فبكى طويلًا ثم أنشد يقول:

خلت الديار فسُــدتُ غير مسوّد ومن الشقاء تفردي بالسؤدد)[2].

وفي مناقب الإمام أحمد قال ابنه عبدالله: (كنت كثيرًا أسمع والدى يقول: رحم الله أبا الهيثم وعفا عنه! اليوم الذى أخرجت فيه للسياط، ومدت يداي للعقابين، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبى من ورائى ويقول لي: تعرفنى؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار، اللص الطرار، مكتوب فى ديوان أمير المؤمنين أني

---

(١) شذرات الذهب (١٠/ ٣٥٣).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٨٠).



ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت فى ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت فى طاعة الرحمن لأجل الدين)[1].

● ولما بلغ ابن عيينة قتل جعفر البرمكي حول وجهه إلى الكعبة وقال: (اللهم إنه كان قد كفاني مؤونة الدنيا، فاكفه مؤونة الآخرة)[2].

وهكذا سمو المؤازرة، ونعم البر والوفاء!

ولقد أدركت بعض مشايخنا يتفقدون طلابهم إذا رحلوا إلى بلدانهم، ويسألون عن أعمالهم وبرامجهم العلمية والدعوية، ويعينونهم في أمر دينهم ودنياهم، وإذا سافروا إليهم سألوا الناس عنهم وعن أعمالهم، وهذا نوع من المؤازرة من الشيخ لطلابه.

فمن قيض الله له في زمن الفتنة أخًا صالحًا، صادقًا عاقلًا معينًا، يبيّت٣٤١ن له الحق ويذكّره ويثبّته، ثبت بإذن رب العالمين، وليلزمه، وليحمد الله.

فـوالله مـا مـالُ الفتـى بذخيـرةٍ ولكـنّ إخـوانَ الثقـاتِ الذخائرُ

*****

(١) مناقب الإمام أحمد (٤٥٠).

(٢) الوافي بالوفيات (١١/ ١٢٧).

التعايش والصراع

التعايش مع غير المسلمين في بلاد الأقليات مطلب شرعي بالضوابط الشرعية، واستغلال الفرص في دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة، ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن قدوة وأعظم هدي.

التعايش لا يعني الذوبان في عقيدة الآخر والاعتراف به، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعايش مع اليهود في المدينة ولم يعترف بغير الإسلام من اليهودية وغيرها، فمن أعظم منه سماحة ورشدًا وتعايشًا.

دعونا من تلك الدعوات الضالة الباطلة الماكرة الخادعة، الدعوة إلى الإبراهيمية، وهي الاعتراف بكل الأديان كواقع عملي والعمل بها، ومزجها تحت دين واحد، وصناعة دين جديد، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[1] فقد أبطل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العمل بها، وقرر أن شريعته ناسخة لكل الشرائع السابقة.

ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٢٤).

الصراع بين الحق والباطل يزداد ويضعف من زمن لآخر، ومن بلد لآخر، لكثرة الشهوات والشبهات مع التفنن وقوة الإغراء، واعلم أن عقول الجيل قد تغيرت، وكل يعرض تجارته وبضاعته مع سهولة الوصول إلى العقول والقلوب مع الانفتاح العالمي والعولمة ووسائل التواصل، وكل حزب بما لديهم فرحون، وكل يدعي أنه الحق، لذا فخطاب العالم ولغته وكذا الداعية وخطيب الجمعة اليوم ينبغي أن تكون غير خطاب وخطبة الأمس، وكتاب اليوم ينبغي أن يكون غير كتاب الأمس، ووسائل وبرامج اليوم غير وسائل الأمس، فلنكن على قدر كبير أمام كل تلك التحديات والصعوبات والمخاطر، وبذل السبب مع الحكمة والثقة بما عند الله، دون التنازل عن الثوابت والقطعيات.

والإخلاص وحده لا يكفي في النجاح، بل لابد من الجد والمثابرة ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢] ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠] وهذا يشمل كل قوة: ومنها قوة في العلم، وقوة في الوسائل، وقوة في الأفكار والمشاريع، ولا تعني القوة المصادمة والعنف ورفع الصوت.

إن أهل التجارة يتنافسون في تقديم وعرض سلعهم، وكل حسب قدرته وقوته، ويبذلون ما في وسعهم لترويجها، فأهل العلم والدعاة كذلك ينبغي أن يقدموا أفضل ما لديهم، فهم يعرضون الدين على الناس، وهم الوسطاء في تبليغ دين الله، فلينظر أحدنا كيف يعرض دين الله إلى الناس!

اقـرأوا التاريـخَ إذْ فيـه العـبَر ... ضـلّ قومٌ ليـسَ يـدرونَ الخبر

*****



التسرع في الفتوى

احذر التصدر والتسرع في الفتوى وآثاره، وشاور أهل العلم والدعوة حينما تريد أن تكتب عن حدث أو نازلة تحتاج إلى فتوى أو رأي أو توجيه قبل الندم في الدنيا والحسرة في الآخرة، واحذر في هذا الموضع من ردة الفعل، وأن تُستدرج لقول أو فتوى أو مقال له آثاره السلبية على النفس والدعوة والدعاة بل الإسلام، وعليك بالنظر في مآلات الأمور، لا النظر الأصولي أو الفقهي المجرد، فيجب عليك النظر في عواقب الفتوى ومآلاتها، وهو من الدين، وآثارها السلبية والإيجابية من خلال تحقيقها للمصلحة أو المفسدة، ولابد من النظر الجماعي في النوازل أو مخالفة ما عليه الفتوى، لأن ذلك أنضج وأقعد للفتوى وأكثر قبولًا وأقل مفسدة.

وقد يسلم الإنسانُ من حيث يتقي ... ويُؤتى الفتى مـن أَمنه وهو غافلُ

والحلم زينة العلم وبهاؤه وجماله، وضده الطيش والعجلة والحدة والتسرع وعدم الثبات، فالحليم لا يستخفه الذين لا يعلمون، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل؛ بل هو وقور ثابت ذو أناة، يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه، ولا تملكه أوائلها، وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعي الغضب والشهوة، فبالعلم تنكشف له مواقع الخير والشر، وبالحلم يتمكن من تثبيت نفسه [1].

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٥٣).

وإن زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير، وصاروا مقصودين بإشارة المتعنتين، ملحوظين بإيماء الشامتين، وزلة العالم مضروب لها الطبل والحذر من الطبوليات، وهي المسائل التي يراد بها الشهرة، واحذر غرائب الحديث والآثار والعلم وأغاليطه فهي فتنة للنفوس والقلوب ، ومن لا يأمن على نفسه [١].

● قال الماوردي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أن الناس لما كان في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة، تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ، فلا ينصفون محسنًا ولا يحابون مسيئًا، لا سيما من كان بالعلم موسومًا وإليه منسوبًا، فإن زلته لا تقال وهفوته لا تعذر، إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها)[٢].

● قال البهوتي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا كلام الإمام أحمد: (**لا ينبغي للرجل أن يعرض نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال إحداها: أن تكون له نية**) أي أن يخلص في ذلك لله تعالى ولا يقصد رئاسة ولا نحوها (**فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور**) إذ الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى (**الثانية: أن يكون له حلم ووقار وسكينة**) وإلا لم يتمكن من فعل ما تصدى له من بيان الأحكام الشرعية (**الثالثة: أن يكون قويًّا على ما هو فيه وعلى معرفته**)وإلا فقد عرض نفسه لعظيم (**الرابعة: الكفاية، وإلا أبغضه الناس، فإنه إذا لم تكن له كفاية احتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما في أيديهم، فيتضررون منه. الخامسة: معرفة الناس أي ينبغي له**) أي للمفتي (**أن يكون بصيرًا بمكر الناس وخداعهم، ولا**

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢ / ١٢٢).
(٢) أدب الدنيا والدين (٤٠).

ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذرًا فطنًا مما يصورونه في سؤالاتهم) لئلا يوقعوه في المكروه)[١].

● قال النووي: (يستحب أن يقرأها على حاضريه ممن هو أهل لذلك، ويشاورهم ويباحثهم برفق وإنصاف، وإن كانوا دونه من تلامذته، للاقتداء بالسلف ورجاء ظهور ما قد يخفى عليه)[٢].

وإنما تدرك الدقائق بالتأمل، وقد قيل: تأمل تدرك، وهذا ديدن العالم والداعية ألا يلقي الكلام على عواهنه بدون رؤية وتبصر، لأن كلامه تطير به الآذان والألسن والعقول.

والتساهل في الفتوى له حالتان:

١-أن يتساهل في طلب الأدلة ويأخذ بمبادئ النظر وأوائل الفكر. فهذا مقصر في حق الاجتهاد، فيحرم عليه الفتوى، وإن صادف قولًا لأهل العلم، لأنه غير مستوف لشروط الاجتهاد؛ لجواز أن يكون الصواب مع استيفاء النظر في غير ما اختاض فيه وأفتى به.

٢-أن يتساهل في طلب الرخص وتأوُّل الأدلة ويتعلق بأضعفها. فهذا متعدٍّ في حق الله، والأول مقصر، وكلاهما آثم، والثاني أعظم إثمًا من الأول.

أَيهـا العَـالِمُ إيـاكَ الزلـل ... واحـذرِ الهفـوةَ والخطبَ الجلل
هفـوةُ العـالِمِ مستعظـمةٌ ... إذْ بهـا أصبـحَ في الخلـقِ مَثَـل

روي أن عامر بن الظرب العدواني من عظماء العرب في الجاهلية، واشتهر

---

(١) كشاف القناع (٦/ ٢٩٩) ما بين القوسين كلام الإمام أحمد.
(٢) المجموع (١ / ٤٨).

بالحكمة والفصل والحكم بين المتخاصمين، وكان الناس يقصدون مجلسه ليبتّ في مشاكلهم ويفتي في معضلاتهم.

ومن أشهر فتاويه وحِكَمه الجاهلية أن جاءه بعض القبائل مستفتين عن معضلة أعجزتهم، وهي كيفية توريث من وجدت فيه آلتا الذكر والأنثى، فلم يهتد عامر إلى الجواب ولم يعرف الحل، مع فطنته وسرعة فهمه ورجاحة عقله وخبرته الطويلة في مسائل التحكيم والفتيا، وطلب من مستفتيه مهلة ووقتًا ينظر فيها ليجول بفكره في تصورها ويعمل رأيه في فهمها، ليتمكن من الإجابة عنها والفتيا فيها، مع بقائهم على وفادته وحسن ضيافته مدة انتظارهم لجواب مسألتهم، وقد أتى عليه أربعون يومًا وليلة، ولم يستطع الوصول إلى جواب صحيح، وكانت له جارية تسمى «سُخَيلة» ترعى له الغنم، وكان يذبح شاة في كل يوم لضيوفه، فقالت له الجارية: يا سيدي، إن هؤلاء الضيوف لا يبقون لك غنمًا إذا ما استمروا على حالهم، فما هي حاجتهم وشأنهم؟ فقال عامر: ما لك ولهم! انصرفي إلى غنمك. فلما ألحت عليه أخبرها القصة قائلًا: ما نزلت عليّ نازلة أعظم منها. عند ذلك قالت له: أين أنت يا عامر! أتبع الحُكمَ الـمَبَال. (مجرى البول) أي إن كان يبول بآلة الذكر فله حكم الذكر، وإن كان يبول بآلة الأنثى فله حكم الأنثى. فقال عامر لخادمته: فرجتيها عني يا سُخيلة[1].

● قال أبوالحسن التّسولي معلقًا: (وفي ذلك ردع ومزدجر لجهلة القضاة والمفتيين، فإن هذا مشرك توقف في حكم حادثة أربعين يومًا ولم يتجرأ على

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٣٤).

أن يحكم بغير علم، وقد كانت الصحابة الذين هم أعلم الأمة يتوقفون ولا يبادرون. قال ابن أبي ليلى: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من الصحابة ما سئل أحدهم عن مسألة إلا وود أن صاحبه كفاه، وكان بعضهم يحيل على بعض، وفي المواق أن الإمام النعالي سئل من برقة عمن قال لامرأته: إن فعلت كذا فلست لي بامرأة! فبقي سنة كاملة يتأملها)[1].

تلك النفوسُ الغالباتُ على الهوى والحــقُّ يغلبُهــا على شــهواتِها

توقف جاهلي عن الفتوى أربعين يومًا، وهو لا يرجو جنة ولا يخشى نارًا، فكيف بحال بعض القوم اليوم يجرؤون على الفتوى ليلًا ونهارًا، وأمامهم سؤال وجنة ونار!

وليــسَ في فتــواه مُفــتٍ مُتبّــع ما لم يُضف للعلمِ والدينِ الورع

● ورد عن نافع قال: (كان ابن عمر وابن عباس يجلسان للناس عند مقدم الحاج، فكنت أجلس إلى هذا يومًا وإلى هذا يومًا، فكان ابن عباس يجيب ويفتي في كل ما سئل عنه، وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتي)[2].

منهج التيسير والتسهيل

واحذر مما يسمى بمنهج التيسير في الفتوى والدعوة إلى الله، فلا تيسير إلى ما وافق الدليل الصحيح الصريح رواية ودراية، ولا تيسير بما يخالف الكتاب والسنة والإجماع وفهم السلف، ولا تيسير بما يخل بمراتب وضرورات الدين الخمس ومقاصده العظام، ولا تيسير يترتب عليه مفاسد في الدين والفضيلة

---

(١) (البهجة في شرح التحفة) (٢/ ٧٠٢).

(٢) (سير أعلام النبلاء (٤/ ٣١٣).

والأخلاق، ولا تقارب ووحدة الأديان بحجة التسامح والتيسير، فكله ضلال يهدف لصهر الحق في الباطل، والاعتراف بغير الإسلام دينًا، وقبول الوثنية وعقيدة التثليث ونحوها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران: ٨٥] فعقيدة المسلم مبنية على التوحيد وعدم الشرك بالله.

*****

فقه النوازل

لا يكاد يخلو زمن من النوازل الفقهية، وقد ازدادت النوازل في هذه الأزمان نوعًا وكثرة في علوم الأصول والفروع، ويجب على طالب العلم في هذه النوازل التريث وعدم الاستعجال في الحكم في النازلة، وإنما عليه أن يبحث في حكمها في مظانها، فإن لم يجد رأيًا فيها لعلماء عصره فليعرضها على أهل العلم، ويعرض رأيه عليهم حتى يصوبوه، ولا ينفرد برأيه عنهم فيحدث ما لا تحمد عقباه.

وعلى العلماء وطلاب العلم والدعاة أن يتدارسوا مسائل العلم والدعوة، والنوازل والمسائل المتجددة والمشكلة، والتوجه إلى الله في التسديد والإعانة والرشاد، فهذا من التوفيق والنعمة والخير العظيم، وهذه طريقة أهلم العلم والتقوى والتواضع والحكمة، من الصحابة والتابعين وسلف الأمة.

● قال ابن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان الصحابة اذا نزلت بهم قضية ليس لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها أثر اجتمعوا لها وأجمعوا)[١].

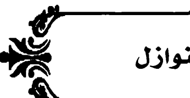
● ويقول ابن عباس: (إن كنت لأسال عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٢].

● وقال مالك: حدثني ربيعة قال: (قال لي ابن خلدة، وكان نعم القاضي:

---

(١) رواه الدارمي (١١٦).

(٢) تاريخ دمشق (٧٣/ ١٨٥).



يا ربيعة، أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا يكن هَمُّك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص مما سألك عنه)[١].

● وكان ابنُ المسيب لا يكاد يفتي إلا قال: اللهم سلِّمني وسَلِّم مني[٢].

اللهم عونك وهدايتك وتسديدك وتوفيقك!

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى ... فأَوَّلُ ما يَجني عليه اجتهادُهُ

*****

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤٤٦).

(٢) تاريخ دمشق (٤٣/ ١٩١).

كن حذرًا

واحذر أخرى من دعاة التجديد والتسامح والمصلحة والعصرانية والعقلانية والتنوير والفكر والإسلام الجديد، فهي ألفاظ جذابة وشعارات براقة خداعة في معان باطلة، تحمل في حقيقتها تغيير الدين وتحريف نصوصه، وإضلال الناس، وتغيير الهوية الإسلامية التي تناقلتها الأمة جيلًا بعد جيل من عصر النبوة، ليتناسب مع حضارة غير المسلمين، ويستجيب لضغط الواقع الذي فرضته القوى الأخرى.

وقد انخدع بها بعض الناس فضلوا وأضلوا، وهاهم اليوم ينكرون السنة النبوية ويعطلون أحكام الدين وشعائره وينادون بنقد الموروث وبقراءة جديدة لنصوص القرآن، ويقدحون في الصحابة، من زكاهم الله ورفع شأنهم، ويسمّون الأسماء بغير اسمها، فانكشف الوجه الحقيقي لتلك الأقلام والألسن والمنابر، ومن رغب عن الهدي بالوحي، ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان، ووسخ الأفكار، ولو سكت من لا يدري لاستراح وأراح، وقل الخطأ، وكثر الصواب.

ومن الوسائل التي يحاول أدعياء تطوير الفكر الإسلامي أن يطرحوها؛ اتّخاذ التلفيق الفقهي وسيلة لمعايشة ضغوط الواقع، بل يحاول أن يأخذ برخص الفقهاء، ونوادر العلماء، وتيسيرات المتقدِّمين ، لتكون مناسبة لفقه القرن الواحد والعشرين، وهو قرن اندماج الثقافات مع الآخر، ليكون ذلك وسيلة على إظهار الإسلام بروح المعاصرة والمسايرة.

إذا جاء الحديث عن ذكر أخطائهم والرد عليهم قالوا: تثيرون الفتنة! ويصفون من لا يعينهم على باطلهم وردهم على الآخر فتنة، وحديثهم وتأجيجهم الصراع العلمي والفكري ليس بفتنة.

لابد أن نعي أنه لما عجز العدو عن القضاء على الإسلام، لإدراكه قوة يقين المسلم بإسلامه وقوة الإسلام في نفسه، اخترع نوعًا جديدًا من الحرب وهي تحريف الدين عن طريق ثلة ساذجة مغفلة أو ضالة من أبناء المسلمين، أو ثلة في الحقيقة غير مسلمين، ليقوموا بالدور أعظم قيام في تبديله والتبرير لذلك التبديل، يلبسون مُسوح العلماء والمجتهدين ويتظاهرون بالشفقة والإخلاص، والحرص على الدين، وإنقاذ أهله من الخطر وشعوبه من التخلف، والتقدم بهم إلى مواكبة حضارة غير المسلمين، وأن الإسلام بات عائقًا من عوائق التقدم، يغشّون دينهم وأمانتهم ومن يصغي إليهم، ويغرّون جهلة المسلمين وأنصاف المتعلمين، يريدون من الإسلام أن يتسع حتى يستوعب شهواتهم وضلالهم ورغباتهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧] ونسوا وتناسوا الحضارة الإسلامية التي ضربت أطنابها المشرقين، وسُرق تراث الأمة وحضارتها من المستعمرين.

إن خصوم الإسلام اليوم يحاولون جاهدين متكتلين أن يجعلوا مبادئ الإسلام باهتة هشة مضطربة متناقضة في نفوس المسلمين فيوردون عليه كل شر من الشرور.

يقولــون في الإســلامِ ظُلْـــمًا بأنه	يصدُّ بَـــنيهِ عن سبـــيلِ الـتَّقَدّم
فإن كان ذَا حقًّا فـكيفَ تَـقدمـت	أوائلــهُ في عـصرهـــا المتـــقدّم

وإن كان ذنبُ المسلمِ اليومَ جهلَه | فماذا على الإسلامِ من جهلِ مُسلمِ

وقد كانوا أشد فتكًا من أعداء الدين، ولا ينكر المحسوس إلا مكابر ممسوس، لأنهم وجدوا أرضًا سبخة يغرسوا فيها تلك المخازي، إنها نابتة سُقيت بدِلَاء العدو والهوى والضلال، وقد ترقى من باعوا دينهم على بعض فتاوى من نحسن الظن بهم من إخواننا الدعاة وطلبة العلم، ولا يجوز بيع السلاح في أيام الفتنة، ولا يجوز بيع العنب لمن يتخذه خمرًا، ولا تأجير حانوت لمن يتخذه وكرًا للفساد والإفساد، وهو محل اتفاق بين العلماء[1] والحجر على العالم الفاسق مقرر بالقياس والإشارة والدلالة، والحجر لاستصلاح الأديان أولى من الحجر لاستصلاح الأموال والأبدان.

● قال الإمام مالك: (لا يؤخذ العلم عن أربعة) وذكر منهم: (سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه)[2].

يجـرونَ الذيـولَ عـلى المخازي | وقـد مُلئت من الغـشّ الجيوبُ

إن الإيمان إذا ضعف وغاب داعي الحق وطريقه وصُمّت الأذن عنه، تبنى الإنسان ضعيف الأقوال وشاذها، وتمسك وتأثر بأوهن الأدلة وأضعفها، وإن كان فيها شيء من الحق، يتجاهل ما يضعفه ويرده بالهوى وطمس معالمه وحظوظ النفس، ويتألم من الحق فيخفيه لينتصر.

كثير من الناس لا يريد سماع الحق والحقيقة، لأنهم لا يريدون لأوهامهم وآرائهم وحججهم تتهاوى وتتحطم، وأصنام الهوى في نفوسهم تتكسر.

---

(١) المبسوط (١٦/ ٣٨) مواهب الجليل (٤/ ٢٥٤) الأم (٤/ ١٥٢) المغني (٤/ ٢٨٤) فقه البيوع للعثماني (١/ ١٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٢).

إن أولئك المنقلبين والمتكسين مما يبررون به لحالة التغير والتغيير التي يركبونها قضية التصحيح والمراجعة والتجديد، وحقيقته هي التبديل والتغيير كما فعل إبليس، وتبعه عمرو بن لُحَيّ وقد جلب عبادة الأوثان للجزيرة العربية وبدّل الدين.

وليس يجهلُ ما ينوي الخصومُ لنا ... إلا الجواميسُ أو شِبهُ الجواميسِ
السوسُ منّا فلا تطعنْ على أحدٍ ... من الخصومِ وعالجْ مصدرَ السوسِ

إن أولئك المتعالمين وأصحاب الأهواء قد دنّسوا عرض العلم وجهّموا وجهه وأهانوا شرفه، وهذا من أعظم المصائب التي أصابت الدين والعلم، وأكبر المحن التي امتحن بها حملته، وينظرون لأهل العلم الكبار من اشتهرت مصنفاتهم وسارت فتاويهم في الشرق والغرب أنهم لا يفهمون شيئًا ولا يعقلون، فهدى الله تلك الوجوه أو أراح الإسلام والمسلمين منهم، فإنها صارت عارًا وشنارًا على العلم وأهله، وقد علم الله وكل من له فهم أنهم ليسوا من ذلك في قبيل ولا دبير، بل ليس عندهم إلا التهاون بالشريعة الإسلامية والتلاعب بالدين، وكل عارف إذا سمع كلامهم وتدبر أبحاثهم يتضوع له منها روائح الجهل والهوى، بل قد يقف على ما هو صريح الزندقة والكفر الذي لا يبقى معه ريب، مما تبكي له عيون الإسلام وأهله، فما حقهم إلا المنع والإسكات والأخذ على أيديهم، فقد تحذلقوا وجعلوا لأنفسهم حصنًا حصينًا وسورًا منيعًا[1].

إن على الأمة اليوم وعلمائها وكل غيور أن يحفظ دينها وعقيدتها وفضيلتها وعزتها، ويتصدون لتلك الهجمات الشرسة بكل حكمة وهدوء.

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (١٦٠) بتصرف.

نحنُ نَهــدي الخلقَ زَهــرًا وثمارا وســوانا يبعــثُ النــارَ ضِراما

إن من أعظم وأشد مسالك الهوى أن يتقحم المرء الباطل والمحرمات، يظلم ويسرق ويقتل ويعطل أحكام الدين باسم العلم والمعرفة والدين، فينتقي من الأقوال الفقهية ما ينسجم مع باطله وشهواته ورغباته، ويحرّف النصوص ويضعفها لتتوافق مع أهدافه وأصوله الفكرية المنحرفة، فنظره منصب لكل ذلك لا نصرة الحق والدليل، وتلك المصيبة والفاقرة وداء العصر في النفوس والجماعات، وهو مسلك معيب ومنهج مذموم بنصوص الشريعة واتفاق الفقهاء، ألهذا الحد وصل بعض المسلمين لبيع دينهم ومبادئهم وخيانة الكلمة وأمانة العلم وميثاق البلاغ!

وإن من أعظم المصائب أن ينحرف المرء، ويوهم نفسه باستقامته، ويغريه الشيطان من الإنس والجن بأنه على الحق. اللهم لطفًا وعفوًا وثباتًا وهداية.

ليس الكفيفُ الذي أَمسى بلا بصرٍ إنّي أَرى من ذوي الإبصارِ عُميانا

أرباب القلم: القلم أمانة، فاحذروا الرقيّ على أكتاف الآخرين وجماجمهم، وأعظم مصيبة الرقيّ على الدين وتحريف الدين في أنفسكم وأقلامكم، والثانية أعظم في الدنيا والآخرة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[1].

---

(١) رواه أحمد (رقم ١٧١٤٢) وتلقته الأمة بالقبول.

يا أَيها اللّاهي الذي افترَش الهوَى وبكلٍّ معنىً للضلالِ تَدثَّرَ
إنْ كنتَ ذا عقلٍ فَفكرْ بُرهةً ما خابَ ذُو عقلٍ إذا مَا فكَّرَ

لا تكن غرًّا، الغر من ينخدع إذا خُدِع، الساذج السهل خداعه.

الغر شابّ لا خبرة له إذا خُدع انخدع ، وإن أخطأ فهو ما زال فتًى غِرًّا لم تعرُكه التّجارب.

احذر أن تكون غرًّا في جميع ما تقدم في أقوالك وأفعالك، وتستدرج لما لا تحمد عقباه في نفسك ومشاريعك، ولو من أقرب الناس إليك، باسم الدين والغيرة والحسبة والنصيحة.

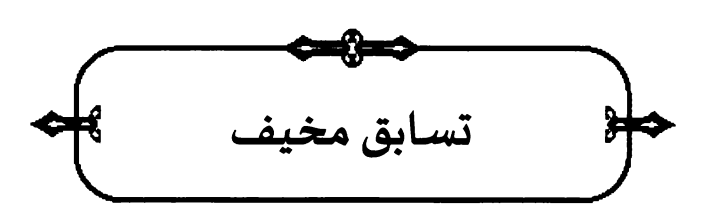
لسان حالك: لستُ بالخِبّ ولا الخِبّ يخدعني.

وكن دائماً يقظًا ذكيًّا، لا تكن غرًّا فتكن صيدًا وجسرًا للأشرار باسم الدين والمصلحة ونحوها.

احذر كل الحذر أن تضع رقبتك في يد غيرك؛ فتساق، وتستدرج لما لا يحمد عقباه، وتهوي بالضرر عليك وعلى دينك وأهلك وأمتك ووطنك والعلم والدعوة.

يشين الفتى في الناس خفة عقله وإن كرمت أعراقه ومناسبه

*****



تسابق مخيف

واحذر أن تدخل مضمار التسابق على التفلت من أحكام الشريعة وتتبع الرخص والاحتجاج بالخلاف، فمن أدمن ذلك ضاع عليه دينه، وأصبحت كل عزيمة يجد فيها حرجًا ومشقة، فيغدو كل يوم باحثًا هنا وهناك في كل عزيمة عن رخصة تفك عنه مشقة الطاعة واتباع السنة، ورفع الحرج عنه من أعين الناس، ومخالطتهم والانفتاح على الآخر، والوهم الزائف، فأصبح الدين والسنة يشكلان حرجًا نفسيًّا واجتماعيًّا ووظيفيًّا وعائقًا من عوائق التلذذ بمتاع الدنيا، والوصول إلى مناصبها، والركض وراء المظهرية الزائفة والوهم والخيال والولوغ في المحرمات والشهوات.

وهناك قوم بالغوا فيما تقدم من التحرر من الإسلام وتكاليفه، ويريدون المزج بين الإسلام وثقافة غير المسلم وفكره، والمزج بين الإسلام والقومية العربية.

ينادون بالإسلام المتسامح، والإسلام الديمقراطي، والإسلام الوطني، والقضاء على التميز الإسلامي في توحيده وعبوديته وأخلاقه وفضيلته.

ويوصف دعاته وأنصاره بالوسطيين والعقلانيين والإصلاحيين والتنويريين وغير ذلك.

وتختلف درجاتهم فيما بينهم بتلك الدعوات وتبنيها والأسس التي تقوم عليها، بين مستقل ومستكثر، معلن ومخفي، وجريء وغير جريء، ومن ذلك

رفع سقف الحرية، وتخفيف الأحكام الشرعية، ونقد الموروث، وإعمال العقل في معارضة النصوص والأحكام الشرعية، والذوبان مع الآخر، واعتبار الحرية ودعم الثقافة العالمية كمرجح أساسي حين الخلاف في المسائل الشرعية واحتمالية تفسير النصوص.

إن الدين ليس بالأهواء والنفسيات والأمزجة والمصالح والذوق والتحسين، فنختار منه ما يتوافق مع ذلك ونترك ما يعارضه.

إن أعظم مصيبة أننا ننازع الله في أحكامه وتشريعاته، ونريد أن نطوع الدين لنفسياتنا وأهوائنا ومصالحنا.

إن قضية التسليم لأوامر الله ضعفت في قلوب كثير من المسلمين لأسباب لا يسع المقام لذكرها.

الإسلام هو الاستسلام لله والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه، فكلنا عبيد لله كما أمر الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء: ٦٥].

إن ترسيخ مبدأ وجوب الاستسلام لله والإذعان لشرع الله من أوجب ما ينبغي تربية النفس والأسرة والمجتمع والصبر عليه، ولو خالف الحق هواك وهوى المجتمع وكان شاقًّا، وينبغي طرحه بصور متنوعة مع الشواهد عليه من سيرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، أما التعامل مع الشرع كيفما اتفق مع النفس وهواها فهو مجلبة لمقت الله وسوء العاقبة.

يظهر بعضهم في بعض وسائل التواصل وبعض المجالس والأندية بصور، سواء في طريقة الكلام أو الهيئة والشكل واللباس وطرح الأفكار

واختيار المكان، متشدقًا متفيهقًا مغرورًا مشحونًا مندفعًا مولعًا بالجدل، ليشار إليه بالبنان بأنه عقلاني مجدد متحرر من التبعية لفئة من الناس أو منهج معين، واستفزازًا للآخرين ونكاية بهم.

وتختلف الدوافع لهؤلاء؛ دنيوية ونفسية وشخصية وفكرية، وردود أفعال، وتعصبًا لبلده ونسبه ومنهجه، والتنكر لماضيه الحق وعدم الاعتزاز بالدين، وفي الحقيقة تحرر من بعض شعائر الإسلام، تحرر من الفضيلة والمروءة، يظن أن مشكلته مع الأشخاص والأفكار والمناهج، وفي الحقيقة مشكلته مع الإسلام وتوحيد الخالق وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن عوفي فليحمد الله، والسلامة لا يعدلها شيء، والسعيد من وقي فتنة القول والعمل وزخرف القول وغروره.

فالعقل العقل! والحكمة الحكمة! والثبات الثبات! وإن التعامل مع الله في هذا الدين وليس مع البشر، وكل ما كان لغير الله وغير الحق يزول ويضمحل لاقيمة ولا وزن له، والحق ظاهر بيّن واضح.

وتأمل هذه الآيات العظيمة للمفاصلة بين الإيمان والنفاق: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[التوبة: ١٠٩-١١٠].

● وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: (من أراد الله فأخطأ أقل فسادًا ممن جاهر بترك الحق المعلنين بالكبائر المستخفين بها) وقال ابن القاسم: (قد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء)[1].

---

(١) الاستذكار (١/ ١٩٥).

إقدامك وتعلقك وحبك للدين وأحكامه، واحتياطك في الشبهات والمختلف فيه، وحرصك على الخير وتطبيق السنن، هو رصيد تلقى الله به سبحانه، لا تتحسر فيذهب أجرك، ولا تسخر من تلك الأيام فتكسب الوزر والإثم، وليس أشقى وأتعس من شخص ينقلب على عظمة هذا الماضي بردة فعل متطرفة عن الإنصاف والعدل، يعميه غضبه عن اتباع الحق والاعتراف به، ويجتهد بمخالفة كل ما كان عليه هوى والعياذ بالله، فيصبح ضربًا من المرض النفسي.

أيها المؤمن استيقظ! أيها العاقل قف وتنبه! إلى متى السير في هذا الطريق! فإن الموعد مع الله قريب، لئن تلقى الله خائفًا وجلًا خير من أن تلقاه مستحلًّا للحرمات عابثًا بالدين.

احذر أن تخلع رداءك الطاهر لتنزل في الأوحال، مهما علا ضجيج الباطل ورفع عقيرته، فلا تتنازل وتنغمس في ذلك الضجيج، فسر إلى السماء غير مبال بذلك النعيق، دينك وإيمانك وعلاقتك بربك ليس مجالًا للمغامرات والتجارب والتنقل.

إن أهل الهوى وباء ودعاة إلى لظى، فاحذرنّهم على المدى.

لا تُؤمن فتنتهم، وتفسد القلوب صحبتهم، لا تخاطر بدينك معهم.

لا تصحب الأردى فتردى به واطو بريدًا دونه في بريد

لا ترتع في روضهم، ولا تكرع من حوضهم، وذرهم في خوضهم ممتثلًا قول الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

قف هنا مع القرآن بتركيز وانتباه، وقد قال الله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟

ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل: ٩٤] لم يقل: (بعد تذبذبها) بل: بعد ثباتها، الحياة فتن، والثبات صعب!

الثبات لا يكون بكثرة الاستماع للمواعظ، إنما يكون بفعل هذه المواعظ، قال الله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

تأمل وتدبر ما بعد آية النحل السابقة.

شيّد سياجًا متينًا يقهر ذلك الطوفان من الفتن والشهوات والشبهات، ويقف أمامه صلبًا شامخًا معتزًّا، ولا يكن هشًّا فتغرق وتتيه.

تَمسّك بدينكَ ما أَعقلكْ ... لتسموَ في ملكوتِ الفلكْ
إذا ما استقمتَ على الدينِ لنْ ... تَذلّ وتَخزى كما العزُّ لكْ
تُعدّلُ عُمرَ الفَتى الصالحاتُ ... فسبحانَ من بالهدى عدلّك
ومن تركَ النفسَ في غيّها ... تمادتَ كذا النفسُ لن تُمتلك
وفيما تذرهُ وما تأتِه ... رسولَك تَابعهُ فيما سَلك
وصلّ على المصطفى كُلَّ حينٍ ... له الفضلُ بالعلمِ قد أصّلك

اللهم اهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

إن القرب من العلماء والصالحين ومن في ركابهم ومجالسهم، من وسائل الثبات والعزة والصبر والإعانة على الخير، وسمو الهمم، والترقي في معارج الخير، وتحقير النفس والتواضع، وإحياء القلوب، والبعد عنهم يورث عكس ذلك. وفي سير السلف شواهد على ذلك.

● قال ابن الماجشون: (إن رؤية محمد بن المنكدر لتنفعني في ديني)(١).

● وقال جعفر بن سليمان: (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة، غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع)(٢).

● ويقول الإمام مالك: (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة أتيت ابن المنكدر، فأتعظ به وأنتفع بنفسي أيامًا)(٣).

فما حال الجيل اليوم يزهد في الكبار والعظماء!

كن مع أهل اليقين واحذر المتذبذبين.

إن الالتجاء إلى الله في أزمات النفس وشتاتها ونزغات الشيطان فيه النجاة، فهو الجدير بأن يلجأ إليه لتثبيت النفوس وتطهيرها من أدرانها، وإن شأن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢]

سالك طريق الحق: واعلم أنه في الفتن تظهر عبوديات عظيمة يطلبها الله ويحبها:

عبودية التوبة والإقبال على الله والافتقار إليه والدعاء.

عبودية الصبر وانتظار الفرج، والثبات على دين الله، وحسن الظن بالله، والصدق مع الله، واليقين بالله.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢١٠).
(٣) إكمال تهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٨).

عبودية التفكر والتأمل في سنن الله الكونية، وحال الناس في الفتن.

عبودية حفظ السان والصمت، وعدم الخوض بلا علم وعقل.

كن فقيه الفتن، فاستعذ بالله منها، وسكّن الناس، وأوضح لهم الدلائل من الكتاب والسنة.

واحذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين، تبيَّن له أنه ما دخل فيها أحدٌ فحمِدَ عاقبة دخوله؛ لِما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه.

● قال قتادة: (قد رأينا، والله، أقوامًا يسرعون إلى الفتن وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبةً لله ومخافة منه، فلما انكشفت إذا الذين أمسكوا أطيب نفسًا وأثلج صدورًا وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها)(١).

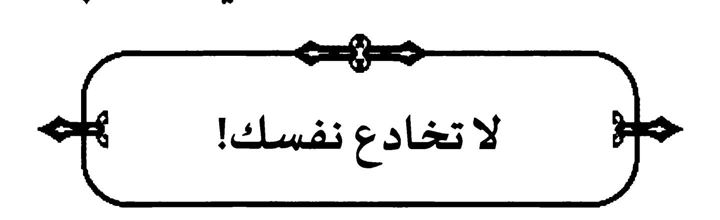
والفتنة تكون في الدين، وهي أعظمها، وفي المال والعرض والقتال وغيرها، وأشدها حين يلتبس الحق بالباطل، ويشوه الباطل الحق.

*****

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٦٣٣).





لا تخادع نفسك!

لا تخادع نفسك وتبرر لها بأنك بلغت مرحلة الاجتهاد، والخطأ في الاجتهاد معفو عنه.

لا تخادع نفسك وتبرر لها بأنك مقلد لعالم وشيخ ومذهب، والمقلد معذور.

لا تخادع نفسك بالحرية المزعومة حتى تتخلص من التكاليف والأوامر والنواهي الشرعية، وتُسكت الناصح والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وتقام الحجة عليك.

لا تخادع نفسك فتتهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بأنهم ضلّال خوارج، وتصادم نصوص الشرع من كتاب وسنة وإجماع الأمة وعلمائها عبر القرون، وتعبث بنصوصها.

كان العلماء الربانيون حين الخلاف في المسألة يقولون: لا تفعل، خروجًا من الخلاف والشك إلى اليقين والطمأنينة، واليوم يقولون: افعل، لوجود الخلاف، فانظر كيف كان الخلاف لأولئك حاجزًا وتقوى، ولهؤلاء بابًا وسلمًا وجرأة للاقتحام، إنها حجة تسقط سريعًا عند النقاش والبيان.

إن اختلاف العلماء لا يعني فتح باب الاختيار لأحد القولين، والشهوة وميل القلب ليست دليلًا مرجحًا، والدواء لا يعرف بطعمه، فتحرّ عالمًا لدينك كما تتحرى طبيبًا لبدنك ومستشارًا لدنياك، وما يزال في الأمة أهل الثبات والحق في كل زمان ومكان؛ عالمًا ومتعلمًا ومتبعًا.

والبحث في الخلاف ابتلاء واختبار، وتمييز لمن يطلب الحكم بدافع معرفة الحق، ومن يطلبه بدافع الهوى والتشهي وتتبع الآراء الشاذة والأقوال الغثة، والترخص والاحتجاج بالخلاف حين النصيحة وإرضاء النفس والآخرين، والجدال بالباطل، وحب الشهرة والمخالفة للمعرفة، وإسكات الناصح والآمر والناهي.

والاحتجاج بالخلاف مرفوض شرعًا وواقعًا، وحكاه ابن عبدالبر وابن تيمية والشاطبي والزركشي وغيرهم اتفاقًا[1].

وقد قام سوق الإرجاء في قلوب بعض الناس فقصّروا في الواجبات، واقترفوا السيئات بحجة أن الإيمان في القلب، وأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، وأن الله غفور رحيم، حتى يصل للانسلاخ من الدين ويبقى الإسلام اسمًا ورسمًا في حياته وهوية في وثيقته، وهذا واقع مشاهد، ولا ينكر المحسوس إلا مكابر ممسوس.

ومنهج الإرجاء والاعتزال منهجان منحرفان، ومن أعظم المصائب التي تواجه الأمة في سابقها وحاضرها ومستقبلها، ويراد لها اليوم سلوكها وزجها في هذين المعتقدين والمنهجين، لتجريد الأمة من هويتها ودينها، والتدليس عليها من خلال العبث بنصوص الشريعة وكلام السلف وعملهم وتأويلها بالتأويلات الفاسدة، وزجها في الخرافة، لتعيش في البدع والخرافات غارقة فيها، والله غالب على أمره، وقد قام العلماء منذ ظهور هذه الفرق بمحاربتها لعظم خطرهم على الإسلام وأهله، وقام الحكام والولاة الصالحون بذلك على

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ٨٩) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٢٨١) الموافقات (٥/ ٩٢) البحر المحيط (٤/ ٥٥٠).

مر التاريخ الإسلامي.

يا مسلمونَ لســنّةِ الهادي ارجِعوا   واسترشِــدوا بدروسها وتَعلّموا

● قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة: (اتقوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله)(١).

ولسائل أن يسأل:

ماذا استفاد المسلمون من تلك الفتاوى وذلك التراجع والتصحيح المزعوم!

هل تقدم المسلمون في حضارتهم!

هل قوي اقتصادهم!

هل تقدموا في الطب والصناعة!

هل قوي إيمان المسلمين وتمسكهم بدينهم!

هل ازدادوا قربًا من الله وخوفًا منه سبحانه!

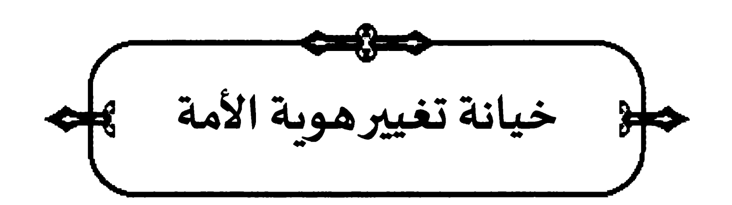
هل حسنت أخلاقهم وسمت نفوسهم وتراجع معدّل الجريمة والظلم وأكل أموال الناس بالباطل وإعادة الحقوق لأهلها!

هل رضي عنهم غير المسلمين!

*****

---

(١) الإبانة الكبرى (٢/ ٥٨٩).



خيانة تغيير هوية الأمة

ولنعلم أن إضعاف الهوية الإسلامية أخطر وأشد فتكًا بالأمة من «نزع سلاحها».

إن البحث عن هوية أخرى للأمة الإسلامية خيانة كبرى وجناية عظمى، ولقد لعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غيّر منار الأرض[1] فكيف بمن يُغَير هوية أمة ودينها ويُضلها عن طريق النجاة!

إن الانتماء للهوية هو الزمام الذي يملك النفس، ويحدد أهداف صاحب الهوية، ويرتب أولوياته في الحياة، فتنصبغ النفس به، وتندمج فيه، وتنتصر له، وتوالي وتعادي فيه، مع نفي الانتساب إلى هوية مضادة أو مزاحمة.

إن الهوية تؤثر تأثيرًا بليغًا في تحديد سمات شخصيته، وإضفاء صفة «الثبات والاستقرار والوحدة» على هذه الشخصية، فلا يكون إمعة، ولا منافقًا، ولا ذا وجهين.

إنها تستغني تمامًا عن أي (لقاح) أجنبي عنها في جميع أخلاقها ومبادئها، فهي هوية خصبة تنبثق عن عقيدة صحيحة، وأصول ثابتة رصينة، تجمع وتوحد تحت لوائها جميع المنتمين إليها، وتملك رصيدًا تاريخيًّا عملاقًا.

الله أكـــبَرُ هـــذا الديـــنُ أحيانــا ... وأَلبـــسَ العـــزَّ بعدَ الـــذلِّ دُنيانا

وكـــم اقتتلنا على شـــاةٍ بلاهدفٍ ... واليومَ فخـــرًا ملأنَا الأرضَ إيمانا

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).

إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنى هوية عظيمة متكاملة في جميع مناحي الحياة خلال ثلاثة وعشرين عامًا لأمته، فلم يدع المجال لأحد أن يخترقها، ووضع نظام حماية لها وحراستها إلى قيام الساعة، لئلا تنالها أيدي العابثين وباعة الأخلاق ومحرفو الكلم عن مواضعه، وهكذا الخلفاء الراشدون بعده، وهكذا بعدهم قامت أمم وسقطت أمم، بسبب قوة الحفاظ على الهوية أو ضعفها، والتخلي عنها، إرضاء لحظوظ النفس أو حظوظ الآخرين.

ياعقلاء الأمة: حينما نتطلع للمستقبل وتضيق بنا السبل بدلًا من أن نتخلى عن أهدافنا ومبادئنا لنجدد عزيمتنا ولنتعاون سويًّا في تجديد العزائم.

إن للدين صورة متسقة تنتظم فيها القيم والملامح بأجمل صورة عرفتها البشرية، وصاحب الفطرة السليمة وحده هو الذي تستقر في ذهنه صورة الدين بيضاء ناصعة مشرقة، لا كدر فيها و لا خدش، وإنك لتجدها في أذهان العوام والأطفال يوم أن انطمست من أذهان كثير من المثقفين والمنتسبين للعلم.

إنه مع اضطراب البصيرة وفساد الذوق ستجد من يعرض عليك الدين مشوشًا مشوهًا مضطربًا متناقضًا، كما هو حال بعض المضطربين في آرائهم ومناهجهم.

إن الفوضى في فهم النصوص وقراءتها قراءة عصرية عقلانية، ما هو إلا ضرب من تحريف الكلم عن مواضعه، وهو المرض الذي أفسد أتباع موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

إنه في هذه الأزمنة ومع العولمة يصعب حماية الدين من أصحاب الفطر والعقول العليلة، فالحل الوحيد أن يتقدم أصحاب الفطر السليمة العلماء

والعظماء، ليؤدوا واجبهم بإزالة عوارض الشهوة والشبهة وتوضيح الحق بالعقل والنقل ولو بالمناظرة والحوار، فهي تاريخ حافل في مسيرة الإسلام وأهل الحق وأهل السنة والجماعة، والقرآن شاهد والسنة قائمة، والتاريخ مليء ومضيء بالمناظرات.

إن كل تشويه يعترض عظمة الفطرة وروعتها وجمالها وانتظامها، فهو شذوذ ينبغي ألا يعترف به ويسكت عليه ولو كان معه شيء من الحق في الظاهر.

إن أعظم مصيبة حينما يكون معول الهدم بيد أقلام تدّعي النصح والإصلاح، يلبّسون الحق باسم الدين ويحاربون الدين باسم الدين.

فهل نناشد الأخلاق والحق في مجامع المبطلين!

أنطلب الفص من اللص ونقيس في مورد النص!

شنشنةٌ أَعرفها من أَخزمِ ... من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكْلمِ

إن أولئك المعلولين هم كالثمار المعطوبة أو الأجنة الشائهة.

قل لمن دبّجوا الفتاوى رُويدًا ... رُبّ فتوى تضجُّ منها السماءُ

إنهم ليسوا أمثلة للفطرة السليمة، ولا يجوز أن يطمأن إلى أحكامهم ولا إلى آرائهم، ولو بلغت بهم الجرأة أن يزعموا أنها منطق الفطرة والأخلاق.

ما كل من هزَّ الحسامَ بضاربٍ ... ولا كلُّ من أَجرى اليراعَ بكاتبِ

إنهم يقومون بدور الجراثيم الفطرية في إعطاب الثمار اليانعة وإمراض الأبدان السليمة، بل هم أخطر، لأن إعطابهم يكون للدين والقيم والأخلاق.

يُقضى على المرءِ في أيامِ فتنتِه ... حتى يَرى حسنًا ما ليسَ بالحسنِ

*****

الخلاف شرٌّ

احذر النزاعات والفرقة والخلافات مع إخوانك، واحذر الخلاف فإنه شر، وإياك والفرقة فإنها عذاب وهلكة، وعليك بالاجتماع والألفة، فإنها رحمة وبركة، قال الله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦] ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وخذها وصية ربانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

أَراني وقومي فرّقتنا مذاهبُ وإن جمعتنا في الأصولِ المَناسب

اعتن بعلاقاتك مع زملائك وأقرانك، ولا تصدق ما يشاع عن حسد الأقران، ولا تظنن أن ذلك جائز سائغ، وقد قيل: (كلام الأقران بعضهم في بعض يطوى ولا يروى) بل اجعل منهم إخوة لك في الله، فهم عون لك بعد الله سبحانه في زمن الغربة، وكن كبيرًا في تعاملك معهم.

الخصومات في الدين مرض خطير، وأعظم ما يكون خطره حين يختلط بحظوظ النفس وأهوائها، فلا يعود المبتلى به يفرق بين انتصاره للحق وانتصاره لنفسه، وأعظم ما يكون ألا يشعر المريض بهذا المرض، بل يكابر.

كن واسع الفهم والإدراك، وإياك والتحزب أو الإغراق في التبديع والتكفير، واجعل ولاءك كاملًا لدينك وكتاب ربك وسنة نبيك ومناصرًا لقضايا أمتك، فلا تعاد الأخيار وطلاب العلم والدعاة مهما أخطأوا في اجتهاد

ونحوه، ولا تكن خِبًّا فتوالي الأشرار.

لا تذر فرجات للشيطان من الإنس والجان.

لا تذر فرجات للعدو لكي يتسلل للقلوب فيمزق جمعكم ويوهن قوتكم.

احذروا المندسين في الصف والذين يدسون السم في العسل، فكم أفسدوا.

إن العاقل ليستبقي ودّ إخوانه بإخفاء بعض آرائه، فمصلحة الاجتماع وصفاء القلب أولى من كثير مما نظنه صدعًا بالحق، وكم للهوى وحظوظ النفس من أقنعة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة ومزلة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، واستفد من أخطاء من سبق!

إذا كنـتَ ذا علمٍ ولم تـكُ عاقلًا ... فأنتَ كذي نعـل وليس له رِجلٌ
وإن كنـتَ ذا عقـلٍ ولم تكُ عالماً ... فأنتَ كـذي رِجلٍ وليس له نعلٌ

يا عمر إنه شهد بدرًا! إذا زلت قدم صاحبك يومًا، فابحث له عن معروف سابق، ففي حياة كل إنسان بدر تغفر له، فكيف بأهل الفضل والعلم والدعوة!

إنه قد شهد بدرًا **«وما يدريك، يا عمر! لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فقد وجبت لكم الجنة»** فذرفت عينا عمر[1].

قد شهد بدرًا، وقد فعلوا فعل أهل الكفر والنفاق اجتهادًا منهم وعلى عذر متأولين، ومع ذا فما كان بهم التشهير، وما نصبت لهم العداوة والبغضاء، وما حكم عليهم بالخروج من الدين بل أرشدهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى أحسن القول.

---

(١) صحيح البخاري (٦٢٥٩).

ولله در الرواة أصحاب الصحاح حيث أبهموا في قصة الزبير اسم خصمه سترًا عليه كيلا يغض من مقامه، وهكذا ليكن الأدب، وكفانا أصلًا عظيمًا في هذا الباب إبهام التنزيل الجليل في كثير من قصصه الكريمة، فهو ينبوع المعارف والآداب على مرور السنين والأحقاب(١).

وديدنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا!

منهج قرآني نبوي، والتغافر خير من العتاب.

● ومن جميل ما روي: (أن ابن السماك الواعظ المعروف وقع بينه وبين أحد إخوانه شيء، فقال له أخوه: الميعاد بيني وبينك غدًا نتعاتب. فقال له ابن السماك: بل بيني وبينك غدًا نتغافر)(٢).

وقد قيل: (واللئيم لا يوفق للعفو من ضيق صدره)(٣).

وفي العفو لذة لا تجدها في لذة العقوبة والعتاب، وأقيلوا الكرام عثراتهم.

أشرق الناس روحًا وأشرحهم صدرًا وأخفهم ظلًّا وأدومهم محبة من يحقق ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

● قال مجاهد: (خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسس)(٤).

إن من الناس من يستحضر معاني بيان الحق والصدع به إذا كان ناقدًا لأخطاء إخوانه، ويستحضر معاني التصافح وعدم شق الصف إذا كان النقد

---

(١) تفسير القاسمي (٣/ ٢٠٣) وقصة الزبير مع خصمه في قول الله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون} فتح الباري (٥/ ٣٧).

(٢) شعب الإيمان (٧٩٩٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣١).

موجهًا إليه، ومن أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه.

وقد يأمرُ الشـيطانُ بالخيرِ قاصدًا   وصولًا إلى بـابٍ من الشرِّ أَعظمُ

يا أمة العدل والإنصاف: أين العدل والإنصاف!

إنهما خصلتان عزيزتان في النفوس، ويزداد عزهما حين مصادمة النفس وحظوظها، وهو من أعظم الاختبار للنفوس والقلوب وميزان للتقوى وصدق التجرد، وهو سبحانه العليم بذات الصدور، ولن تفلح أمة حتى تضع الكلمة في موضعها الحق والعدل.

كيـفَ تحيـا أمـةٌ قـد ودّعتْ   كِلْمـةَ العـدلِ ولم تذّكـر

احذر أن تقدم معتقدات القبيلة والبلد المخالفة للشريعة والولاء لهم على إخوانك في العقيدة والمنهج الصحيح، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم دينه والولاء له ولكل مسلم على معتقدات قبيلته وبلده، قدّم بلالًا الحبشي على أبي جهل، وقدم سلمان الفارسي على النسيب والقريب أبي لهب.

*****

احفظ لسانك ولا تضخم الأخطاء!

احفظ لسانك من قيل وقال وعن أعراض إخوانك مهما اختلفت معهم، ولا تضخم الأخطاء والمشكلات، والخصومات، واحذر الدخول في الصراعات والخلافات والتحزبات، ولا تلتفت فتنشغل عن رسالتك العظيمة ومشروعك الكبير وهدفك النبيل، واعتن بطهارة قلبك، وتزكية نفسك، وسمو روحك من أمراض القلوب وآفاتها ومفسداتها، قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[الحجر: ٨٥] فالمنشغلون بعمل الآخرة من عبادة وعلم ودعوة لا وقت لديهم للصراعات والأحقاد وتوافه الأمور.

وعدتُ من المعاركِ لستُ أَدري ... عَلامَ أَضعتُ عُمري في النّزالِ

● قال تقي الدين: (ليس لأحد أن يتكلّم في أحدٍ بلا علم، ولا بهوى النفس، فإن الإنسان مسؤولٌ عن ذنوب نفسه لا عن ذنوب غيره)(١).

● وقيل لإبراهيم بن أدهم: (إن فلانًا يتعلم النحو، فقال: هو إلى أن يتعلم الصمت أحوج)(٢).

● وعن زيد بن أسلم قال: (دُخِل على أبي دجانة، وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى فكان قلبي

---

(١) جامع المسائل (١ / ٣٩٥).

(٢) حلية الأولياء (٨ / ١٦).

للمسلمين سليمًا)[١].

واسمع إلى العلم والعقل والحكمة وصفاء القلب.

ففي صحيح البخاري في قصة الحكمين لما تكلم معاوية قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وهممت أن أقول: أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع، وتسفك الدم، ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت)[٢].

والسكوت خير من كلمة الحق أحيانًا، وهذا هو فقه الكلمة، وعين الحكمة والبصيرة.

فهل سيفقه كثير من طلبة العلم والدعاة هذا الفقه وهذه الحكمة!

كن سببًا في رأب الصدع وجمع الكلمة وتآلف القلوب، وإن كلفك ذلك جهدًا ووقتًا ونزيفًا من الهم، في مقابل ما يكون من أثر عظيم في إخماد الفتن وقطع النزاعات.

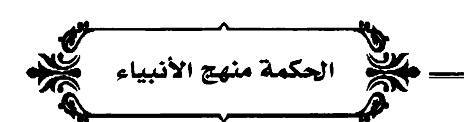
روي في ترجمة ابن مفلح الحنبلي صاحب المبدع: (أن من محاسنه إخماد الفتن التي كانت تقع بين فقهاء الحنابلة وغيرهم في دمشق، ولم يكن يتعصب لأحد)[٣].

ومازال الحمل على السلامة عند الاحتمال شعار العارفين والصالحين والمتقين.

دواؤكَ منكَ ولا تشعرِ وداؤكَ فيكَ ولا تُبصرِ

*****

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٥١٦).
(٢) (٤١٠٨).
(٣) الأعلام (١/ ٦٥).



الحكمة منهج الأنبياء

الحكمة، الحكمة أولى الناس بها العلماء وطلاب العلم والدعاة في العلم والتعليم والدعوة والفتوى والتعامل مع الناس، لأنهم أهل العلم والعقل والميزان.

الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

ولها ثلاثة أركان: العلم والحلم والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل والطيش والعجلة، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول(١).

الرِّفقُ يمنٌ والأناةُ سلامةٌ ... فاستأنِ في رفقٍ تُلاقِ نجاحًا

وهي نور العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، وخير الخيرين وشر الشرين، والمصالح والمفاسد، ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها(٢).

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنّما ... يَرى بصوابِ الرأي ما هو واقعُ

- قال ابن عباس: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] حكماء فقهاء علماء(٣).
- وعن عطاء قال: (ما أوى شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم)(٤).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٠).

(٢) المصدر السابق بتصرف.

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري(١ / ١٦٧).

(٤) سنن الدارمي (٥٩٦).

يا طالب العلم: تدبر في أمرك وإياك والتسرع، فلحظة من التسرع والحمق كفيلة بتدمير دعوة سعيت لبنائها سنين، ثم تأمل في حسرة العمر بعدها.

إن زلة العالم والداعية كالسفينة إذا غرقت تغرق ويغرق جميع من معها.

وقد قيل: الحكمة وسلامة الصدر تتجاوز بهما بُنيّات الطريق، ويكون النفع في ذروته، والعطاء في أوجِه، فالحكمة بها تزن الأمور والأحداث، وتطهير القلب به ترتاح وتُريح وتستقيم نفسك ويستقيم لك الناس.

إن العالم وطالب العلم والداعية الناجح من جمع بين العلم والحكمة والعقل والأخلاق، وبقدر النقص فيها يكون النقص في النجاح والتأثير، وهذا مشاهد ومحسوس.

معشر طلاب الرحلات العلمية: إن عليكم وعلى عقلاء الأمة اليوم أن يبذلوا ما في وسعهم لتوحيد الكلمة ووحدة الصف، ويدعوا الخلافات وخاصة التي تحتملها وجهات النظر، وألا يحجروا واسعًا، وأن يراعوا المصالح والمفاسد، وأن يتيقظوا لمن يريد شق وحدة صفهم وقوتهم لمصلحته باستغلال الخلاف وتأجيج الصراع، ولنتق الله ولا يكن ذلك سبيلًا للانتقام من المخالف، فإنكم معروضون على الله يوم القيامة، وستسألون عما أنتم قائلون وشاهدون وكاتبون.

واعلموا - رحمكم الله - أن نقاط الاتفاق أكثر بكثير من نقاط الاختلاف.

تَأبى الرمــاحُ إذا اجتمعنَ تكسّرًا وإذا افترقــنَ تكَــسّرتْ آحــادَا

إن من المشاهد من بعضهم إذا رجع إلى بلده أحدث الخلاف والتشويش

والفرقة والخلاف والتهاجر في صفوف الدعاة وطلبة العلم، ولو كان معه شيء من الحق، وما هكذا تورد الإبل ياسعد!

إن علينا واجب النصيحة الأخوية والمحبة الإسلامية بكل حكمة وهدوء، وقد قال الله لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أرحم الخلق بالخلق: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾[النحل: ٨٢].

إن علينا أن نفرق بين من نختلف معهم في المنهج والفكر وبين من نختلف معهم في بعض المسائل والوسائل والأفكار والاجتهادات، فكل له طريقته في التعامل معه، وبسبب الخلط بين هذين يحدث الخطأ في التعامل والتصور وترتكب الأخطاء والمفاسد، وترمى التهم والمساوئ، وعلينا ألا نجعل الخلاف في الفروع خلافًا في العقائد، والخلاف في المنهج خلافًا في العقائد، ونحمّل كل خلاف خلافًا في العقائد وخلافًا في المنهج، لأن الخلاف في العقائد لا يظهر على الجوارح، ولأنه خلاف في الغالب مع أهل البدع، فتنفر القلوب من المخالف، فترمى الاتهامات العقدية والفكرية.

فمن كان حنفيًّا ثم خرج إلى قول آخر في مذهب حنبلي أو مالكي في مسألة أو ثلاث ونحوها من المسائل، لاعتبار آخر كترجيح وحاجة ومصلحة ونحوها، فإنه لا يقال يكون حنبليًّا، ولا تنزع منه النسبة إلى الحنفية، وهكذا في باقي القضايا، وهذا من المعلوم بدهيًّا، ولا ينكره العقل ولا العرف العلمي والفكري والعملي في تلك الاتجاهات، بل هو العدل والإنصاف، فتأمل وتدبر، وكن منصفًا مع من تختلف معه، قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨].

● ورد عن ابن الوراق: (كنت في مجلس أحمد بن حنبل فقال: من أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب. فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخ صالح. فقلنا: إنه يطعن عليك! فقال: فأي شيء حيلتي! شيخ صالح قد بلي بي)(١).

والواقع والحال يوجب علينا أن نتفق مع من نختلف معه حين مواجهة من هو أكبر ضررًا وشرًّا على الإسلام والمسلمين، والحكمة ضالة المؤمن، فقد قام المسلمون في الشام كلهم على اختلاف مذاهبهم العقدية والفقهية ضد التتار لما غزو الشام، فكان الانتصار وإخراج العدو من الشام.

● قال ابن القيم: (وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نزل العدو دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهة وقال: ليس هذا بسفر طويل. فقال الشيخ: هذا فطر للتقوي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر لسفر يومين سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال، فاستباح العدو بيضة الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر ههنا أولى من فطر المسافر، وقد أمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزاة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر، والله أعلم)(٢).

أيها الحكماء: إن لم نتفق فلا نكن أعداء ومتهاجرين وكل يطعن في ظهر الآخر ويكيد له، ويعين العدو على أخيه، ويبغي عليه بحجج واهية باسم الدين

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٣١٧).

(٢) بدائع الفوائد (٤ / ٤٥).

والمصلحة، والموعد الله.

إننا تفرقنا واختلفنا حتى ضحك وسخر الناس منا، إننا تفرقنا وربما وشى بعضنا ببعض حتى صرنا لعبة عند أهل الأهواء والأعداء، فأي علم ودين وأخلاق صيرتنا لهذه الحال!

وليس مَلامِي عَلَى مَنْ وشَى ... ولكنْ ملامي عَلَى مَنْ وَعَى

استفاد العدو من خلافنا تحت قاعدة (فرّق تَسُد) واستفاد بعض الناس من تلك الخلافات كسب الأصوات والانتصار لآرائه ورفع حزبه وفكره وبغيه على الآخر وتصفية المخالف وقمعه.

فكلُّ كسوفٍ في الدراري شنيعةٌ ... ولكنه في الشمسِ والبدرِ أشنعُ

تفرقنا واختلفنا وصرنا كالأعداء، كل يتربص بأخيه ويترصد له ليقوم بالرد عليه وإسقاطه أمام العالم والقنوات، حلّت بيننا معاني الوحشة والجفوة، وضاعت معاني الأخوة والتناصح والرحمة، ومن المصائب أن ترد على أخيك وتسقطه لتكون لك قربى وزلفى عند الآخرين وتنال بها رضاهم ومتع الدنيا، وتدفع عن نفسك بها بعض تلك التصنيفات، نعوذ بالله من سوء الحال وسوأة الأخلاق ورديء الفعال.

ما هي بفعال من شيم الرجال فضلًا عمن يشار إليهم بالبنان، اللهم رحماك وصلاحًا لقلوبنا وهداية لأرواحنا وصفاء ونقاء وسلامة لنفوسنا.

معشر طلاب العلم والدعاة: إلى أين المسير؟ وإلى أي حد سنقف؟ وماذا تحقق؟ هل كان ذلك الخلاف مرادًا لوجه الله ونصرة الحق وهداية الخلق؟

أم لغير الله وانتصار النفس وإسقاط الآخر وإذلاله وإظهار الغلبة وغيرها من المعاني الترابية الدنية مستترة بالمعاني العظيمة؟

ينبغي ألا يكون الخلاف بين طلبة العلم والدعاة وقادة العمل الخيري له أثره السلبي بين الجيل الحاضر والقادم، ونخلّف لهم إرثًا مليئًا بالخلافات والعطن والعطب، ويتحول الخلاف الشخصي إلى خلاف منهجي، والمنهجي إلى خلاف شخصي، له أتباعه وأنصاره، ويحصل حينئذ ما لا يحمد عقباه من الصراعات والانقسامات، وأثرها السلبي على العمل الدعوي والخيري، وتستغل شياطين الإنس والجن وربما الأتباع والطلاب الخلاف وتنفخ فيه وتزينه وتلبسه لباسًا غير الحقيقة، وتجعله صراعًا لله وفي الله، وقد دخلته آفات القلوب وحظوظ النفس وأهواؤها.

مــاذا التقاطعُ في الإســلامِ بينكمُ وأنتــم يــا عبــادَ الله إخــوانُ
أَلا نفــوسٌ أبيّــاتٌ لهــا هِمــمٌ أَما على الخـيرِ أنصــارٌ وأعوانُ

لننظر نظرة تأمل وتدبر وعقل ووعي وإدراك لحال المسلمين اليوم، عامتهم وخاصتهم، مما هم عليه من الجهل والنزاع، فإنها لا تسر إلا العدو، وما أحدث الخلاف والفرقة والشقاق فيهم، وكل لا يرى الحق المطلق إلا معه، وهو المقياس والميزان لأفعال الناس وأقوالهم ومشاريعهم، وما عداه فلا اعتراف بأعمالهم ومشاريعهم واجتهاداتهم، فهم ليسوا بشيء وليسوا على شيء.

وإذا مَــا الشريــفُ لم يَتواضــعْ للأخــلاءِ فهــو عــينُ الوضيعِ

والواجب إن كان لابد فالنصح وفق منهج القرآن والهدي النبوي وطريقة السلف من الصحابة والتابعين، وما كلفك الله بأكثر من هذا، بل ولا رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢] وكلٌّ يوم القيامة يبعث على ما يعتقد ويقول ويفعل.

أيها الدعاة: أكثر الناس عفوًا وصفحًا أشدهم تقوى لله، وأقلهم عفوًا أضعفهم إيمانًا ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

إن أعظم الرحم والوشائج بين طلبة العلم والدعاة هو العلم والدعوة، وهي رحم متينة عميقة عظيمة، فليس من حقها ما يفعل بها اليوم من القطيعة والبغي والوشاية والفضيحة وإشهار الأخطاء وإعانة الظالم، والحجة تقارع بالحجة مهما بلغ الخلاف العلمي.

ولا تحرص على الانتصار بقدر حرصك على ظهور الحق، والله يتولى السرائر والنيات.

فإن يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا ... فأفعالُـه اللائـي سَررنَ أُلـوفُ

والمتأمل في العمل الدعوي والعلمي عبر التاريخ، وماذا أحدث الخلاف بين أهله وحملته وأنصاره فيه، وماذا جنى المسلمون، ومن المنتصر ومن المستفيد، أدرك خطورة هذا الخلاف، ومغبة عاقبته على الأفراد والجماعات، وفرح أعداء الإسلام به من شياطين الإنس والجن، فأوقدوه وضخموه وزرعوا الفتن بين أهله لأجل إضعاف انتشار الإسلام وقوته على قاعدة: (فرّق تَسُد) ومن الحكمة والمصلحة تأجيل بعض الخلاف ووأده لمصلحة أعظم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

صرِّح أبـنْ فالخـيرُ في التصريحِ ... قـد تـبرأُ العلـةُ بالتشريـحِ

● قال تقي الدين: (وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، حتى تجد المنتسب إلى الشافعي يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا، وفي المغرب تجد المنتسب إلى مالك يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى الله ورسوله عنه، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين الظن وما تهوى الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع لا تحتمل هذه الفتيا لبسطه؛ فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين والفرع المتنازع فيه من الفروع الخفية، فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع وجمهور المتعصبين لا يعرفون من الكتاب والسنة إلا ما شاء الله)[1].

● وقال السبكي الشافعي: (وأمَّا تعصّبكم في فروع الدين، وحملكم الناس على مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله منكم، ولا لحملكم عليه إلَّا محضر التعصُّب والتحاسُد، ولو أنَّ أبا حنيفة والشافعيّ ومالكًا وأحمد أحياء يُرزقون لشدَّدوا النكير عليكم، وتبرَّؤوا منكم فيما تفعلون. فلعمر الله لا أحصي من رأيته يشمِّر عن ساعد الاجتهاد في الإنكار على شافعي يذبح ولا يُسّمي، أو حنفيّ يلمس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكيّ يصلِّي ولا يبسمل، أو حنبليّ يقدم الجمعة على الزوال؛ وهو يرى من العوامّ ما لا يحصي عدده إلَّا الله تعالى، يتركون الصلاة التي جزاء من تركها عند الشافعي ومالك وأحمد ضرب العنق ولا ينكرون عليه، بل لو دخلَ الواحد منهم بيته لرأى كثيرًا من نسائه يترك الصلاة، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٥٥).

ساكت عنهنَّ، فيالله وللمسلمين! أهذا فقيه على الحقيقة! قبَّح اللهَّ مثل هذا الفقيه، ثم ما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ولا تنكرون المكوس والمحرَّمات المجمع عليها ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها، وإنَّما تأخذكم الغيرة للشافعي وأبي حنيفة والمدارس المزخرفة، فيؤدِّي ذلك إلى افتراق كلمتكم، وتسلّط الجهّال عليكم، وسقوط هيبتكم عند العامة، وقول السفهاء في أعراضكم ما لا ينبغي، فتهلكون السفهاء بكلامهم فيكم، لأنَّ لحومكم مسمومة على كل حال لأنكم علماء، وتهلكون أنفسكم بما ترتكبونه من العظائم)[1].

بحثتُ عــن الأديــانِ في كلّ أمةٍ ... وطفتُ بــلادَ الله غَربًــا ومشرقًا

فلمْ أرَ كالإســلامِ أَدعــى لألفةٍ ... ولا مثــلَ أهليــه أشــدُّ تفرّقــا

ولقد بلغ ببعض الأزمان من الخلاف الفقهي أن من لم يكن على مذهبه الفقهي فهو ليس من المسلمين، ومستباح الدم، ويستحق اللعنة، فهل هذا من الإسلام في شيء!

فما هو إلا الجهل والحسد والهوى، والهوى يعمي ويصم، وفي الحديث: «**لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا**»[2] نعوذ بالله من حسد يسد باب الإنصاف، ويصد عن جميل الأوصاف!

ولقد حصل الخلاف بين الحنابلة والشافعية في الجهر في البسملة حتى بغى بعضهم على بعض.

● قال ابن عقيل الحنبلي: (رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز،

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي (٦٤).

(٢) المعجم الطبراني الكبير (٨١٥٧) قال الهيثمي في مجمعه: ورجاله ثقات.

ولا أقول العوام بل العلماء، و كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس، فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع، حتى ما يمكنونهم من الجهر بالبسملة والقنوت، وهي مسألة اجتهادية، فلما جاءت أيام النظّام ومات ابن يونس وزالت شوكة الحنابلة، استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة، فاستعدَوا بالسجن، وآذَوا العوام بالسعايات، والفقهاء بالنبذ بالتجسيم. قال: فتدبرت أمر الفريقين فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال الأجناد، يصولون في دولتهم، ويلزمون المساجد في بطالتهم)[1].

● قال القاسمي: (ولقد كان العالم الجليل الذي هو زينة عصره وتاج دهره، كان لا يأمن على نفسه من الإفك عليه، والسعاية به فيما يكفرُه ويُحِلُّ دَمَهُ، حتى صار يخشى على نفسه من أخذت منه السن، وأقعده الهرم، وأفلجته الشيخوخة، ولا مِنْ رَاحِمٍ أَوْ مُنْصِفٍ - كما تقرأ ذلك في ترجمة علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووي، وأنه مع زمانته، وكونه صار حِلْس بيته، يتأبط دَائِمًا وثيقة أحد القضاة بصحة إيمانه وبراءته من كل ما يُكَفِّرُهُ، ولقد أريقت دماءٌ مُحَرَّمَةٌ، وعذبت أبرياء بالسجون والنفي والإهانات باسم الدين، وروعت شيوخ وشبان أَعْوَامًا وسنين، حتى عَجَّ لسان حالها وقالها بالدعاء إلى فاطر الأرض والسموات، بكشف هذه الغمم والظلمات)[2].

إذا أنتَ لم تعصِ الهوى قادكَ الهوى ... إلى بعـضِ مـا فيه عليـكَ مقالُ

● وقال السبكي في طبقاته: (وصارت الأشعرية مقصودين بالإهانة والمنع

(١) كشاف القناع (١ / ٤٧٩).
(٢) الجرح والتعديل للقاسمي (٤٠).

عن الوعظ والتدريس وعزلوا من خطابة الجامع، ونبغ من الحنفية طائفة أشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع، فخيلوا إلى ولي الأمر الإزراء بمذهب الشافعي عمومًا وبالأشعرية خصوصًا، وهذه هي الفتنة التي طار شررها وطال ضررها وعظم خطبها وقام في سب أهل السنة خطيبها، فإن هذا الأمر أدى إلى التصريح بلعن أهل السنة في الجمع، وتوظيف سبهم على المنابر، وصار لأبي الحسن الأشعري بها أسوة بعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستعلى أولئك في المجامع، فقام أبو سهل في نصر السنة قيامًا مؤزرًا، وتردد إلى العسكر في ذلك ولم يفد، وجاء الأمر من قبل السلطان طغرلبك بالقبض على الرئيس الفراتي والأستاذ أبي القاسم القشيري وإمام الحرمين وأبي سهل بن الموفق ونفيهم ومنعهم عن المحافل، وكان أبو سهل غائبًا في بعض النواحي، فلما قرأ الكتاب بنفيهم أغري بهم الغاغة والأوباش، وأخذوا بالأستاذ أبي القاسم القشيري والفراتي يجرونهما ويستخفون بهما وحبسًا بالقهندز، وأما إمام الحرمين فإنه كان أحس بالأمر فاختفى وخرج على طريق كرمان إلى الحجاز)[1].

● قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل، فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة!)[2].

إن العلم وحده غير كاف في عصمة الإنسان من الخطأ والوقوع في الظلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[آل عمران: ١٩].

والمعنى أن اختلاف هؤلاء، لم يكن بسبب نقص في العلم، بل كان عندهم

(١) (٤/ ٢٠٩).
(٢) إحياء علوم الدين (١ / ٤٧).

من العلم ما يهديهم للوفاق، ولكن السبب الذي أدى إلى اختلافهم وشقاقهم هو الحسد والبغي ومع حسن الظن عدم الحكمة.

وأولئك العلماء الذين بغى بعضهم على بعض لم يكن يعوزهم العلم، بل كان ينقصهم الانتفاع بعلمهم، والعمل به.

فانظروا إلى ضراوة العلم عندما يفقد الإخلاص والرفق بالعباد كيف يثير الفرقة ويقطع ما أمر الله به أن يوصل!

إن حرارة العلم والغيرة التي كان من المفترض أن نحولها إلى طاقة إيجابية فاعلة للتحفيز والتعاون والبناء والوحدة والتشاور والتكامل والتواصل، تحولت عند البعض إلى سلاح للقصف والإقصاء والإطاحة والتهاجر والغيبة فمتى نرقى ونسمو!

ما قيمة العلم إن لم يهذب النفوس ويسمو بالأرواح!

● قال تقي الدين: (وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلا الله تعالى)[1].

● وقال الذهبي: (ووقع في كتب التاريخ والجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصم نفسه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ولحوم العلماء مسمومة)[2].

● واسمع لابن الجوزي: (ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلبًا للتشفي، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي

---

(١) الفتاوى (١١/ ٥١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٩٣).

استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع، والله أعلم بالمقاصد)[١].

● وذكر الذهبي في السير عن تلميذ جاء إلى الحسن بن سفيان (ت ٣٠٣ هـ) وقد كذب عليه في الأسانيد فقال له: (قد احتملتك مرتين وأنا ابن تسعين سنة، فاتق الله في المشايخ، فربما استجيبت فيك دعوة. فقال له ابن خزيمة: مه! لا تؤذ الشيخ)[٢].

إن الوقيعة في الناس بضاعة الجبناء، وكف اللسان عن الناس سمت العلماء، وكل إلى جنسه يحن، والموعد الله.

كيــف الوقوفُ أمــامَ خلاّق الملأ والعلمُ ظــنٌّ والحديــثُ مُرَجّم

وما يشاهده اليوم العالم الإسلامي من البغي في العلم والدعوة ومسائلهما هو صورة من صور البغي المتقدمة، وإن اختلفت الأسماء والمصطلحات، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول و لاقوة إلا بالله العلي العظيم، وعند الله تجتمع الخصوم.

إلى ديــانِ يــومِ الديــنِ نَمــضي وعنــدَ الله تجتمــعُ الخصــومُ

ما أحوج طلاب العلم والدعاة اليوم إلى الأخلاق قبل العلم، وإلى تقوى الله تعالى ووعظ أنفسهم قبل وعظ الناس، وما ضاعت الأمة يوم ضاعت إلا حين ترك العمل بالعلم، ولن تعود الأمة إلا بعودة العلماء إلى منهج الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لا تحســبنّ العلــمَ ينفــعُ وحدَه مــا لم يُتــوّجْ ربّــه بخــلاقِ

---

(١) تلبيس إبليس (١٠٥).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٩٧).

قلنـا ولم نقـلْ أَمـامَ عدّونـا   وعـلى أحبّتنـا نقـولُ ونفعـلُ

● ورد عن سفيان الثوري يقول: (الأعمال السيئة داء، والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء فمن يشفي الداء)[١].

يا معـشرَ العلـماءِ يا ملـحَ البلد   ما يُصلِـحُ الملحَ إذا الملحُ فَسـد

● قال الليث بن سعد وغيره: (كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إلي بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل)[٢].

واسمع أخرى إلى العلم والعقل والحكمة والإنصاف.

● قال ابن مفلح الحنبلي: (وذكر في مجلس الوزير ابن هبيرة مسألة، فاتفق الوزير والعلماء على شيء، وخالفهم فقيه مالكي، فقال الوزير: أحمار أنت! الكل يخالفونك وأنت مُصِرّ! ثم قال الوزير: ليقل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحدكم! فضج المجلس بالبكاء، وجعل المالكي يقول: أنا الأولى بالاعتذار. والوزير يقول: القصاص! فقال يوسف الدمشقي الشافعي: إذا أبى القصاص فالفداء. فقال الوزير: له حُكمه. فقال الرجل: نعمك عليّ كثيرة. قال: لا بد. قال: عليّ دين مائة دينار. فقال الوزير: يعطى مائة لإبراء ذمته، ومائة لإبراء ذمتي)[٣].

● وقال الإمام أحمد: (لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٦١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣١٣).
(٣) الفروع (١٠/ ١٢٥).

يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا)(١).

● وإليك نموذجًا من العدل والإنصاف: (حدَّثني صديقي الأستاذ محمود الأرناؤوط نقلاً عن الشاعر محمد سليم الزِّرِكْلِي قال له: قلتُ لخير الدين: كيف تكتب عن أشخاص أساؤوا لك وتُثني عليهم؟ فقال لي: يا سليم، هؤلاء أساؤوا إليَّ ولم يُسيئوا إلى التاريخ، فيجب أن يأخذوا حقَّهم)(٢).

● قال ابن رجب في اللطائف: (والاشتغال بتطهير القلوب أفضل من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غش القلوب ودغلها)(٣).

اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام.

*****

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٧١).

(٢) مشكلات الكتابة في تراجم الأعلام المعاصرين.

(٣) لطائف المعارف (٢٥٥).

لنكن صرحاء!

الخلاف طبعي في أي عمل بين عامليه، ومن المهم أن تكون المصارحة والمصداقية والشفافية والتناصح موجودًا بين العاملين في العمل الخيري، والأهم استحضار تقوى الله وجميل الأخلاق والعدل والإنصاف، وعدم الفجور والكذب والتأويل، والانتقام والبغي ومساوئ الأخلاق، حين الخلاف باسم الدين والمصلحة، وما هكذا خلق النبي الأمين وصحبه المتقين.

أيتها القدوات: الأخلاق الأخلاق حال الرخاء والشدة، وحين الوفاق والخلاف.

إن علينا جميعًا أن نكون صرحاء في قضايانا ومشكلاتنا، والاعتراف بالمشكلة هو جزء من حل المشكلة وهو أول الطريق.

إن خسائرنا أضعاف أرباحنا من كثير من المعارك والصراعات.

إننا لو استجبنا لهدي الإيمان لوفر علينا متاعب جمة نستريح من عبثها يقينًا يوم نستهدف مرضاة الله وإنفاذ وصاياه، ولو أقبل المرء على ربه يستلهمه ويستعينه وحده لوفقه إلى ما يريح أعصابه ويزيح آلامه.

إننا لو استرشدنا بمنارات الله التي أنزلت علينا وأدركنا الخير الواسع الذي أتت به شريعة الله لكان لنا في الحياة شأن عظيم.

إننا أحرار في أن نختار المقدمات لكننا لسنا أحرارًا في أن نختار النتائج.

لا شك أننا في حياتنا اخترنا مقدمات أفضَتْ بنا إلى عواقب لا نريدها، يمكننا أن نسمي هذه المقدمات أخطاءً، وخير ما نقابل به الخطأ هو الاعتراف بالخطأ والعمل على محاصرته، وإزالة آثاره في حاضر حياتنا ومستقبلها.

إنّ عدم الاعتراف بالخطأ خطأ أكبر، بل هو نقلٌ للخطأ من جانب الممارسة إلى جانب التصور، مما يقود إلى توالي الأخطاء.

إنّ الذي يؤلمنا ليس هو الأخطاء التي نرتكبها في حق أنفسنا أو يرتكبها الآخرون في حقنا.

إنّ الذي يؤلمنا هو استجابتنا لهذه الأخطاء، فإن كانت استجابتنا هي أن نطارد الثعبان الذي لدغنا فلن نزيد السمّ إلا تمكنًا من جسدنا، أما إن اخترنا أن نقف ونخرج السمّ من جسدنا فالأمل في الحياة سيتجدد، وربما تصبح لدغة الثعبان ذكرى جميلة ورائعة لانتصار عزيز.

إن الذين يدّعون المثالية وهم أبعد الناس عنها، ويقنعون أنفسهم بأنهم أفضل خلق الله، ولو علموا أن الإنسان حين يعتقد الكمال لنفسه فإن لحظات سقوطه قد اقتربت، وبأن من يعتقد نفسه هو خير من الناس فقد عمي عن رؤية مشكلاته، وهذه كارثة كبيرة، فمن لا يرى عيوبه لا يستطيع إصلاحها، وبالتالي سيصيبه جنون العظمة، ويرافقه الوباء مدى الحياة.

*****

أدب الخلاف

وينبغي لطالب العلم والداعية أن يكون ذا حكمة ورأي سديد ورشيد، فالاعتصام والائتلاف أصل عظيم، لا يُترك لأجل سنة ورخصة وخلاف سائغ معتبر، والخلاف لا يفسد للود قضية، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

وعليه أن يعلّم الناس السنة وأدلتها، وأدب الخلاف مع العلماء، وإعذار الناس والعلماء بعضهم لبعض، وعدم الإنكار على المقلدين في الخلاف السائغ والمعتبر الذي له أدلته القوية والمتكافئة، ما بين راجح ومرجوح، وليس بين راجح وضعيف أو شاذ أو غلط وخطأ، وإن كان كذلك فيكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال الله لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ موجهًا له في طريقة التعامل مع المخطئ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

والحذر من التنقل بين الأقوال بالتشهي والهوى، والخوض في معارك لا ربح ولا نجاة ولا مصلحة ولا سعادة من ورائها، وإنما نهايتها الخسارة في كثير من الأمور، وتدخلها حظوظ النفس.

لا ينبغي أن يكون الخلاف الفقهي والمنهجي سببًا في الفرقة والتعصب والبغي والتناحر بين المسلمين وبين طلبة العلم وربما يصل إلى التحريم، فالأئمة الأربعة وغيرهم لم يفتوا الناس ويعلموهم لكي يتعصب الناس لمذاهبهم

وأقوالهم، وكلهم علماء مجتهدون، معرّضون للخطأ والصواب، وأقوالهم مشتهرة في هذا.

وللأسف: إن بعض الناس يتعلم من العلماء العلم، ولكن لم يتعلم منهم أدب الخلاف والتواضع والرفق والحكمة واللين، وإنما يكون لسانًا حادًّا وسيفًا مُصلَتًا على إخوانه حتى في مسائل السنن والمستحبات وما يسعه الخلاف، وكل هذا بسبب الجهل بمعرفة الخلاف وأدلته وقوته وضعفه، وما هو معتبر وما ليس معتبرًا، وهل يكون الإنكار والتهاجر في مسائل السنن والمستحبات، ويدّعي أنه يملك الحق والحقيقة المطلقة، والله المستعان!

ليتنا نلتزم العلم والعمل في المنهج العظيم الذي التزمه الصحابة والعلماء في حياتهم العلمية والتربوية والأخلاقية، وعلى أهل العلم ومعلميه أن يبينوا ذلك لطلابهم وأن يكونوا قدوات في ذلك علمًا وعملًا.

علموا طلابكم التواضع العلمي والعملي، وكونوا واقعًا عمليًّا وتربويًّا أمام أعينهم، فإن لذلك أثرًا عظيمًا في نفوسهم وحياتهم العلمية والعملية، ومتى وجدوا منكم عكس ذلك كانت النتيجة إما نفرة منكم أو اتباعًا لغرور النفس وحدّة في الطبع والرأي، والطبع سراق، والتلميذ على مذهب شيخه.

● قال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: (قال لي أبي: يا بني، إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلي لك من كثير من الحديث)[1].

● قال ابن تيمية: (ومتى قلَّد المسلم فيها - أي مسائل الفروع - أحد

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١ / ٨٠).

العلماء المقلَّدين، جاز له العمل بقوله ما لم يتيقّن خطأه)[١].

● وقال أبو يعلى الحنبلي: (وأما ما اختلف الفقهاء في حظره وإباحته فلا مدخل له في إنكاره، إلا أن يكون مما ضعف فيه الخلاف، أو كان ذريعة إلى محظور متفق عليه)[٢].

● وقال النووي: (ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصًّا أو إجماعًا أو قياسًا جليًّا)[٣].

● وقال الذهبي في تعليقه على اختلاف الناس في أبي حامد الغزالي بين مادح وذام: (مازال العلماء يختلفون ويتكلم العالم في العالم باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور)[٤].

واختلف الصحابة والتابعون والأئمة في مسائل لا تعد، فلم ينكر بعضهم على بعض فيما اختلف فيه وله أدلته، وأنكر بعضهم على بعض في مسائل أخرى خالفت الإجماع والنص الصريح غير المعارض[٥] ورد بعضهم على بعض في مسائل في الأصول والفروع.

ولقد كانوا يختلفون في البسملة والقنوت والوضوء من لحم الإبل، ومع هذا كان يصلي بعضهم خلف بعض، وما بغى بعضهم على بعض بل بقاء الألفة

---

(١) النبوات (١ / ٧٢).

(٢) انظر كتاب الخلاف أنواعه وأحكامه لحسن العصيمي.

(٣) شرح مسلم (٢/ ٢٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٧).

(٥) انظر الخلاف وأنواعه للعصيمي، موجود على الشبكة.

وصلاح ذات البين، وما تهاجروا ولا تدابروا، ولا تركوا الصلاة في المساجد مع إخوانهم ووراء أئمتها.

● جاء في السير عن الإمام الحافظ أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري، أحد أصحاب الإمام الشافعي قائلًا: (ما رأيت أحدًا أعقل من الإمام الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة).

● قال الذهبي معلقًا: (هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون)[1].

● قال ابن القيم: (ومن قواعد الشرع والحكمة أيضًا أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر؛ فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فإن المعصية خبَث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبَث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث، ومن هذا قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وهذا هو المانع له من قتل من حسَّ عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر أنه شهد بدرًا، فدلَّ على أن مقتضى عقوبته قائمٌ لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السَّقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات، ولما حض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصدقة فأخرج عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تلك الصدقة العظيمة قال: «**ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعدها**»)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٧٦).

وأنكر الصحابة على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نكاح المتعة، وأنكر الأئمة على أهل البدع في القول بخلق القرآن وفي المسائل الكبيرة والشنيعة التي لا يحتملها الخلاف، وما تهاجر الصحابة بعد الإنكار وأنقص كل منهما قدر الآخر، واجتمعوا ضد العدو متحدين.

● ومما يذكر في الإنصاف عند الخلاف أنه جرت مناظرة بين الإمامين الكبيرين؛ الشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام، في تحديد معنى (القَرْء) هل هو أيامُ الحيض أو هو أيام الطُّهر؟ وانتهت المناظرة دون أن يتزحزح أي منهما عن رأيه، وبعد مدة فوجئ الناس بتبادل هذين الإمامين للمواقع؛ حيث صار الشافعي يفتي بما كان يراه أبو عبيد، وصار أبو عبيد يفتي بما كان يراه الشافعي! وهذا منتهى الإنصاف، ومنتهى التجرد والموضوعية، ومنتهى الاحترام للأدلة والبراهين من العالمين الجليلين!

هذه المناظرات العلمية أصحابها صادقون مخلصون، طالبون للحق، متجردون له، حقًّا إنهم العلماء الربانيون.

● قال الشوكاني: (ومن جملة الأسباب التي يكون عنها ترك الإنصاف وكتم الحق ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء، فإن الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك ومعرفة بالحق، فيخطئ في المناظرة، ويحمله الهوى ومحبة الغلب وطلب الظهور على التصميم على مقاله وتصحيح خطئه وتقويم معوّجه بالجدال والمراء، وهذه الذريعة الإبليسية والدسيسة الشيطانية قد وقع بها من وقع في مهاوي من التعصبات ومزالق من التعسفات عظيمة الخطر مخوفة العاقبة)[1].

---

(١) أدب الطلب (٥٨).

واحذر من إخراج الناس من السنة وأهلها إلى البدعة والضلال، فهو أمر عظيم وجليل وليس بالأمر السهل والهين.

● قال الإمام أحمد: (إخراج الناس من السنة شديد)[١].

● كتب أحد العلماء إلى العلامة المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا فيه رد عليه في مسألة، وأغلظ عليه فيه القول، فرد المعلمي قائلًا: (وفي الختام أقول: والله إني رجعت إلى فؤادي فلم أجده تنكّر، وتفقدت ودادي فلم أره لك تغير، ولكن والله ما المقصود إلا الحق)[٢].

لله ما أنقاها وأصفاها وأسماها من قلوب!

ولو استطردنا في الأمثلة المؤكدة لِتأَدُّب الأئمة مع بعضهم لطال الكلام، وحسبنا ما يحصل به المقصود، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فعلى المشتغلين بالعلم التأَدُّب بأدبه، وإدارة خلافاتهم وفق مبدأ الرحمة بالخَلْق، واتباع الحق، وتوقير الكبير، وإقالة أصحاب الهيئات، فأهل السنة يخطَّأون ولا يُؤثَّمون.

أَعوذُ بِـالله مِن قَومٍ إِذا سَـمِعوا ... خَـيرًا أَسَرّوهُ أَو شَرًّا أَذاعـوهُ

● قال تقي الدين: (ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة)[٣].

● وقال الذهبي واصفًا حال بعض القوم اليوم: (ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى

---

(١) السنة للخلال (٥١٣).

(٢) مراسلات المعلمي ضمن مجموعة آثاره (١ / ٢٦١).

(٣) الفتاوى (٢٤ / ١٧٣).

الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة)[١].

● لما أخذ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التوجه إلى الشام قال له رجل: (أندع مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: أدع مسجد رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصلاح أمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولقد هممت أن أضرب رأسك بالدرة حتى لا تجعل الرد على الأئمة عادة فيتخذها الأجلاف سنّة)[٢].

● وقال ابن رجب: (فرحم الله من أساء الظن بنفسه علمًا وعملًا وحالًا، وأحسن الظن بمن سلف، وعرف من نفسه نقصًا ومن السَّلف كمالًا، ولم يهجم على أئمة الدين ولا سيما مثل الإمام أحمد، وخصوصًا إن كان إليه من المُنتسبين، وإن أنت أبيت النصيحة وسلكت طريقة الجدال والخصام، وارتكبت ما نُهيت عنه من التشدّق والتفيهق وشقشقة الكلام، وصار شغلك الرد على أئمة المسلمين والتفتيش عن عيوب أئمة الدين، فإنك لا تزداد لنفسك إلا عُجبًا، ولا لطلب العلو في الأرض إلا حُبًّا، ومن الحق إلا بُعدًا، وعن الباطل إلا قربًا، وحينئذٍ تقول: ولم لا أقول وأنا أولى من غيري بالقول والاختيار! ومن أعلم مني ومن أفقه مني! كما ورد في الحديث هذا يقوله مِن هذه الأمة مَن هو وقود النار، أعاذنا الله وإياكم من هذه الفضائح، ووفقنا وإياكم لقبول النصائح بمنه وكرمه إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين)[٣].

*****

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٧).
(٢) ربيع الأبرار (٢/ ٤٨).
(٣) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٦٣٥).

لفتة

كتب المتقدمون من أهل العلم في الخلاف وأنواعه وضوابطه والسائغ منه وغير السائغ والصحيح والراجح والضعيف والشاذ والغلط، وقد كتب المعاصرون في ذلك وجمعوا كلام المتقدمين ورتبوه، فليرجع إليها وينظر فيها وتقرأ قراءة متأنية بلا إفراط ولا تفريط، وتتم مدارستها بين طلاب العلم، لكي نحسن التعامل مع الخلاف والمخالف ومتى يكون الإنكار وعدمه، لأننا نجد طرفين ووسطًا في التعامل مع المخالف:

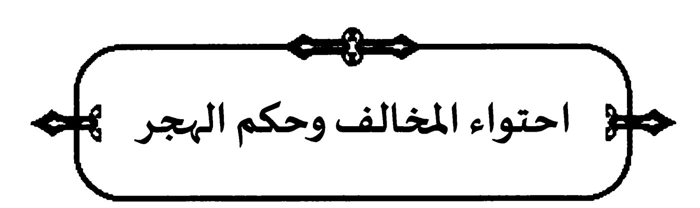
اتجاه إلى الإنكار على كل مخالف.

واتجاه عدم الإنكار على كل مخالف.

والوسط حسب درجة الخلاف وحظه من الدليل رواية ودراية.

فلابد أن يكون عند طالب العلم حظ من القراءة والنظر في ذلك حتى تضبط الأمور بميزان الشرع والعقل والحكمة، وإلا حصلت المفاسد والمساوئ، والله الهادي إلى الرشد وسواء السبيل.

*****



احتواء المخالف وحكم الهجر

واعلموا - رحمكم الله - أن الاحتواء للمخالف منهج يحتاجه العالم والداعية إلى الله عَزَّوَجَلَّ في مسيرته العلمية والدعوية وتعامله مع الناس، فمهما كان الآخر مقصرًا في حق الله أو خالفك في مسألة علمية، فلا يعني ذلك تركه وهجره والتخلي عنه، وخاصة الشباب فإنه يعتريهم ما يعتري سائر البشر من الضعف والفتور، وهم في الغالب قريبون حتى وإن اختلفنا معهم.

ويمكن الرجوع إلى أقوال العلماء في أحكام الهجر، والراجح فيه أن الهجر دواء يستعمل حيث كان فيه الشفاء، وأما إذا لم يكن فيه شفاء، أو كان فيه إشفاء، وهو الهلاك، فلا يستعمل.

فأحوال الهجر ثلاث:

إما أن تترجح مصلحته، فيكون مطلوبًا.

وإما أن تترجح مفسدته، فينهى عنه.

وإما ألا يترجح هذا ولا هذا، فالأقرب النهي عنه.

«إنه يحب الله ورسوله» قاعدة نبوية نحتاجها في طريق الدعوة كثيرًا، فاستثمار الخير الساكن في قلوب الناس وتنميته أولى من الإقصاء لأجل ذنب ومعصية.

جيء برجل إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقد جلد في شرب الخمر فقال

أحدهم: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يؤتى به! فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله**»[1].

درس من المعلم الحكيم المنصف العادل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غمر سيئة الرجل في مجموع حسناته، من تدفن سيئاته في بحر حسناته.

● قال أبو الدرداء: (إذا تغير أخوك وحال عمّا كان، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول: داوِ أخاك. وقال الحسن: أي الرجال المهذب! وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم ويتركه غدًا)[2].

*****

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب (٢ / ٣٦٧).

التماس الأعذار

واعلموا - رحمكم الله - أن الإنسان كلما ازداد علمه ووعيه وتقدم عمره كثر حلمه وإعذاره للآخرين، وانطفأت فيه جذوة وشهوة الجدال والمراء وتتبع الزلات والأخطاء والأطروحات المثيرة اللافتة للأنظار والصراع مع الآخرين، وأقرب إلى التفرغ للجد والعمل، وأيقن أن زمانه أغلى من أن يضيعه في جدل وقيل وقال بلا ثمرة كبيرة، وأن خاطره وتفكيره أولى من أن يكدر للانتصار للنفس أو موقف عابر، فالحياة نفيسة ولن تكرر مرة أخرى.

وقد قيل: إذا أردت أن تعرف عقل الرجل ووعيه فانظره في سبعة أشياء: الشورى، والتماس العذر، وطلب الاجتماع، والرجوع إلى الحق، والاعتذار عن الخطأ، والتأني، والنظر في العواقب.

أنتم القدوة والناسُ بكم ... تقتدي فَخرًا وتَزْهُو مَفخَرَا

وحِّدُوا أشتاتكم واتحدوا ... واربطُوا أحلامَكم ربطَ العُرَا

واصبروا إن عَظُمَ الخطبُ فما ... يدرك النصرَ سِوى مَنْ صبرا

وانصروا الله يَهَبْكُم نَصرَهُ ... واشكروه يُعط من قد شَكَرَا

● قال المازري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح البرهان في قوله: إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات: (وددت لو محوتها بدمي بل بدمع عيني. قلت: أنا أحاشي إمام الحرمين عن القول بهذه المسألة، والذي أظنه أنها دست في كلامه ووضعها

الحسدة له على لسانه)[١].

عبد الله، تمعن في هذا الإنصاف وحسن الظن وستر المعايب والتماس الأعذار، وحال بعض من يقع على أخطاء إخوانه كيف يطير بها فرحًا!

والواجب على طلاب العلم مراقبة النفوس ومعالجتها بأكثر من معالجة الأبدان، فأمراض القلوب هي الفتاكة التي إذا وقعت أصابت بمقتل.

طوبى لمن شغلته عيوبُه عن عيوبِ غيره، وكان حالُه:

لنفسي أبكي لســتُ أبكي لغيرها   لنفسيَ عن نفسٍ من الناسِ شاغلُ

ونعوذ بالله ممن حالهم:

إن يســمعوا ريبةً طاروا بها فرحًا   منّي وما سمعوا من صالحٍ دفَنوا
صمٌّ إذا ســمعوا خــيرًا ذكرتُ به   وإن ذكرتُ بســوءٍ عندهم أَذِنوا
إن يعلموا الخيرَ أَخفوه وإن علموا   شرًّا أذاعــوا وإن لم يعلموا كذَبوا

*****

---

(١) الوافي بالوفيات (١٩ / ١١٧). قال الذهبي: (قلت: هذه هفوة اعتزال هجر أبو المعالي عليها، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه، ونفي بسببها، فجاور وتعبد، وتاب - ولله الحمد - منها، كما أنه في الآخر رجح مذهب السلف في الصفات وأقره) السير (١٤/ ١٩).

أيها الشباب الهِمَامُ، طلاب المنح العلمية الشرعية

رفقًا رفقًا بأنفسكم وإخوانكم، رفقًا أهل السنة بأهل السنة، انشروا الرحمة والتراحم بينكم، فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه، كونوا على ما كان عليه الكبار من الصحابة والتابعين والأئمة، رحمهم ورحمكم الله، من الرحمة والرفق والشفقة في النصح والاعتدال، لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تمييع للدين والمنهج الحق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء: ٥٩].

واختلف في أولي الأمر في الآية، فقيل: العلماء. وقيل الأمراء. وقيل: كلاهما.

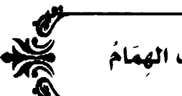
اللهم أصلح قلوبنا وطهر نفوسنا وسرائرنا.

إن علينا جميعًا أن يبقى التناصح بيننا بكل حكمة وهدوء وشفقة ومحبة، لا التفاضح والتراشق من خلال الكتب ووسائل التواصل الإعلامية.

إن علينا أن نناقش الأفكار أكثر من مناقشة أصحابها، فذلك أدعى لقبول الحق، لأن الباطل لا يقف عند شخص، وكذلك الباطل.

إن كان لابد فيكون بكل أدب، دون تجريح ونقد للذات والدخول في النوايا والبغي في التصنيف والرد وتحميل الكلام ما لا يحتمل.

إن علينا أن نفرق بين المسائل العلمية والمسائل الدعوية والتربوية



والوسائل الاجتهادية، وما هو محل اجتهاد، وما هو محل اتفاق، والتفريق بين الفعل والفاعل في التكفير والتبديع والتفسيق، فقد يكون الفعل بدعة وفسقًا وكفرًا، وصاحبه لا ينزّل عليه الوصف والحكم لوجود المانع، كالجهل والعذر والتأويل وأنواعه السائغ وغير السائغ، والتقليد، ومراعاة الخلاف ونحوها، وهذه يغفُل عنها كثير من الناس، وهي محل اعتبار ونظر، فتدبر.

إن طالب العلم والداعية إلى الله أسمى وأرقى وأعظم من أن يتخذ أخاه هدفًا ويجمع الجموع ليرجموه معه أو يكون عونًا للشيطان وأتباعه.

أَمامكَ فانظـرْ أيَّ نهجيكَ تنهجُ ... طريقانَ شتى مستقيمٌ وأعوجُ

إن علينا أن نفرق بين مسألتين، وهما الإنكار والنصيحة:

١- النصيحة أعم، فهي تشمل إنكار المنكر والتذكير والتعليم وغيرها، وأما الإنكار فهو أخص.

٢- الإنكار في مخالفة الإجماع ومخالفة النص الصريح غير المعارض بمثله أو معارض بضعيف، أما النصيحة فتكون في الرأي الراجح والمرجوح لمصلحة ودرء مفسدة ومراعاة بعض القواعد الشرعية والمنهجية والتربوية ونحوها.

٣- أن الإنكار فيه نوع من الحزم والأمر، والنصيحة بخلاف ذلك.

٤- أن الإنكار له مراتبه المعروفة بشرطها، والنصيحة تكون باللسان.

ولما كان الخطأ في عدم التفريق بينهما يحصل ما نشاهده من أخطاء في التطبيق والواقع العملي.

*****

مفهوم خاطئ

إن من المشكلات الموجودة لدى بعض الناس أنه يتنازل عن بعض ثوابته ومبادئه، سواء كانت فروعًا أو أصولًا، وسواء كانت من الخلاف السائغ فيه الاجتهاد أم لا، فتجده ينفتح على الآخر مهما كان الخلاف معه ونوعه، يقبل كل خلاف ومخالف، يرفع سقف الحرية دون قيد أو ضابط، ودون تفريق بين التعامل الأخلاقي والقضايا الشرعية والمنهجية والثبات على الدين، ودون تفريق بين حال الرخاء وحال الشدة والسلم والحرب، ودون تفريق بين المداراة والمداهنة، ودون تفريق بين التعايش والتنازل عن الثوابت، وهو بقصد أو بدون قصد يميّع كثيرًا من القضايا والثوابت، ويجعل المخالف في حال من المدح والإطراء المذموم، كما أنه لا يخلو من التماس الأعذار لهم إذا ضاق به الأمر بقوله: (والتوفيق لم يحالفه) وكله من التلبيس والتدليس على الناس.

ويوردون على ذلك حججًا، من أهمها: التسامح، توحيد الصف، اجتماع الكلمة، هو سمّاكم المسلمين، كلمة سواء، يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، الخلاف لا يفسد للود قضية، يجمعنا مركب واحد، محاولة كسب القلوب والأصوات، آثار الخطاب العالمي، تجديد الخطاب الديني، تضييق دائرة الخلاف، وهم بذلك يتفقون من حيث لا يشعرون مع كل من ادعى أنه مسلم حتى لو أتى بنواقض الدين المجمع عليها والظاهرة، تناقضات لا نهاية لها، وربما بعض الناس استخدم ذلك كله لأموره الشخصية ومتعه الدنيوية.



وهذا المنهج المتبع بهذا التلفيق والخلط بدون ضوابط أو قيود لم يعرف في زمن النبوة ولا زمن الصحابة والتابعين ولا سلف الأمة، وليس في الشريعة ما يؤيده، بل هو من بدع القول والفعل، وليس من الأمانة في الكلمة، بل هو التلبيس والتدليس والغش بعينه للأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أروع الأمثلة في التعايش والتسامح والمداراة في حال السلم والحرب مع المخالف وغير المسلم، ولم يتنازل ولم يحلل حرامًا ولم يرتكب محرمًا، ولم يغشّ أمته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحاشاه.

فبادر أُخيّ لرفعِ اللواء ... على كلِّ صُقع ولا تُحجمِ
وزُفّ هدى اللهِ للعالمين ... بآياتِ قرآنكَ المُحكمِ

وكان سلف الأمة يحذرون من أئمة الضلال، ممن كان يغلب عليه الضلال البين الواضح وإن كان عالمًا، لأن التحذير منه واجب لئلا يغش الأمة ويغرها.

● فهذا الذهبي يقول عن ابن خراش: (وهو حافظ بارع، رافضي، فما عذرك عند الله مع خبرتك بالأمور، فأنت زنديق معاند للحق، فلا رضي الله عنك، مات ابن خراش إلى غير رحمة الله)[1].

● وعن الحسن: (من وقّر صاحب بدعةٍ فقد سعى في هدم الإسلام)[2].

---

(١) السير (٢ / ١٨٦).

(٢) آداب الحسن البصري وزهده (٥٥) وروي مرفوعًا عند البيهقي(٩٤٦٤) ولا يصح.

ولما تلحظ وتشاهد تلك التغيرات التي أصابت الأمة في دينها، على مستوى الأفراد والجماعات، كانت بسبب الاستماع إلى أهل الأهواء ومدعي العلم وأنصافه من خلال وسائل التواصل اليوم.

واحذر من مدح أهل الباطل في باطلهم وضلالهم فيما تكتب وتقول ترويجًا لذلك ومداراة وكسبًا للأتباع وكثرتهم، فقد ذكر عن الفيروزابادي وقد اجتهد في ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

● يقول ابن حجر: (وله من التصانيف: فتح الباري بالسيح الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري، ملأه بغرائب النقول، ولما اشتهرت مقالة ابن عربي باليمن[1] صار يدخل منها فيه، فشانه، ولم يكن متهماً بالمقالة المذكورة إلا أنه كان يحب المداراة)[2].

● وذكر: (أنه رأى القطعة التي كملت منه في حياة مؤلفه، وقد أكلتها الأرضة بكمالها، بحيث لا يقدر على قراءة شيء منها)[3].

فكان من رحمة الله أن الكتاب فقد ولم يوجد له أثر، ومن الحكمة والمصلحة المطلوبة ذكر بعض الحق دون أسماء أصحابه خشية رده، كما فعل بعض أهل العلم.

*****

---

(١) القول بوحدة الوجود.

(٢) إنباء الغمر (٣ / ٨٤) بغية الوعاة (١ / ٢٧٤).

(٣) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (٢٣).

احذر اللمز والشماتة!

وقد قيل: الانتقاص قصاص، فلا تقتحم قلوب الناس، وقف حيث أمرك الله. فلك ما ظهر وله ما خفي، فلا تنزل منزلتك منزلته وتنازعه سبحانه فيما يخصه فتحرم الخير أو تسلبه.

● يروى عن مكحول: (رأيت رجلًا يبكي في صلاته، فاتهمته بالرياء، فحُرمت البكاء سنة)[١].

● قال ابن رجب: (وقد رُوي هذا المعنى عن جماعة من السلف، ولما ركب ابن سيرين الدَّيْن وحبس به قال: إني أعرف الذنب الذي أصابني هذا، عيَّرت رجلًا منذ أربعين سنة فقلت له: يا مفلس!)[٢].

واحذر من الانتقاص والشماتة بأولئك الذين تنكبوا الطريق وضلوا الصراط المستقيم وفتنوا في دينهم وعلمهم وفهمهم، عقيدة وفقهًا وسلوكًا، وركبوا فتنة التبديل والتجديد والتصحيح، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولربما أصبت بذلك بسبب ذلك الانتقاص، وإنما علينا الدعاء لهم لا لمزهم.

● قال بكر بن عبد الله: (إذا رأيتم الرجل مولعًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مكر به)[٣].

---

(١) العقوبات لابن أبي الدنيا (٨٣) وفي سنده مقال.

(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير (٢١).

(٣) الصمت لابن أبي الدنيا (١٣٢).

والعاقل اللبيب الفطن من كان بصيرًا بزمانه ومقبلًا على شأنه وحافظًا للسانه.

● وذكر ابن عبدالبر في تمهيده: (أن رجلًا وقف على لقمان الحكيم وهو في حلقة عظيمة فقال: ألست عبد بني الحسحاس؟ فقال: بلى. قال: فأنّى بلغت ما أرى؟ قال: قدر الله، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني. وروى أبو عبيدة عن الحسن قال: من علامة إعراض الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه)[1].

والنفسُ إن طلَبَتْ ما ليسَ يَعنيِها جهلًا وسُـخفًا تَقعْ فيـما يُعنّيها

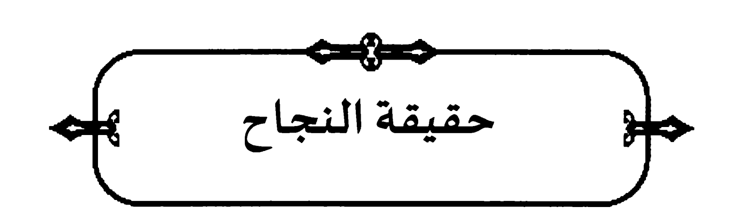
إذا عَقَـلَ الفتى اسـتحيا واتّقى وقلّـتْ مـن مقالتِـه الفُضولُ

وأحسن الظن بإخوانك، فهو مطلب شرعي، وكن متغافلًا، فالتغافل جزء من العافية والسكينة والطمأنينة، التغافل لغة لا يقوم بها سوى كبار العقول وأصفياء النفوس، نعمة ربانية ومنحة إلهية، قلّ أصحابها، وندر من أبحر فيها، فما أعظمها وأسمى من اتصف بها.

*****

---

(١) (٩ / ٢٠٠).



حقيقة النجاح

أيها الدعاة: إن حقيقة النجاح في العمل الدعوي ليست بكثرة الأتباع والمتأثرين والمتابعين، وإنما النجاح أن تعمل وفق ما أراد الله مع بذل السبب وتجنب الأخطاء والاستمرار في العمل، فلا تكن الأرقام هي المعيار الوحيد في النجاح والتقييم ودليل الإخلاص.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عُرضَت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد**»[1] وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[الشورى: ٤٨].

وهذا أول رسل الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جلس يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وكان قبل الطوفان، ثم جلس بعد الطوفان مدة الله أعلم بها يعلّم حقائق الإيمان وما آمن معه إلا قليل، فما تضجر و لا توقف.

فاحذر الافتتان بالكم، فالعبرة بالكيف لا الكم، وركز على الكيف لا الكم.

فتأمل وتدبر أمورًا ضعها أمام ناظريك، ولا تغفل عنها في طريق العلم والدعوة إلى الله، وحدث بها نفسك دومًا، فهو طريق الأنبياء وورثة الأنبياء.

إن هدى الرحمنُ شخصًا واحدًا ... بكَ خيرٌ لك من بحرِ دُرر

وهو خيرٌ لك عند الله من ... ما بدا للشمسِ أو نورِ القمر

(١) رواه البخاري (٥٧٥٢).

وهذا نبي من الأنبياء يأتي وقد آمن معه الرهيط، وهي كلمة تصغير للرهط لقلة عددهم، والرَّهْط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة، أو ما دون العشرة، فهذا النبي لا ينقصه إخلاص ولا علم ولا تأييد من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولا تنقصه معرفة بوسائل الدعوة وطرق التأثير في الناس، فهذه المقومات عند الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وهم أكمل الناس فيها، ومع ذلك يأتي النبي ومعه الرهيط، فتدبر وتـأمل.

ولنحذر من لمز الآخرين والتعريض بهم بعدم نجاحهم وقلة الحضور لديهم وعدم الإقبال عليهم لعدم إخلاصهم.

أيها الدعاة: فلنأخذ درسًا عظيمًا نستقيه من هذا الحديث، وهو: أن الهداية بيد الله، وأن القلوب بيده، فيأتي أولئك الأنبياء إلى قومهم فما تفتح لهم القلوب ولا لدعوتهم، وما كان ذلك نقصًا فيهم ولا في أسلوبهم.

فالداعية إلى الله يبذل ما عليه، ويقدم للناس ما استطاع، بدون كلل وملل وضجر ويأس، ولا يقول: لم يستفد الناس، وما استجابوا، وما آمنوا، ونحن منذ سنين طويلة ندعوهم إلى الله وما رأينا أثرًا؛ لأن أجرك على الله، والشأن كل الشأن في تبليغ دين الله، وبذل السبب في النجاح وأدواته، وما عداه فأمره إلى الله.

وهذا الحديث يدل على أن الحق لا يُعرف بالكثرة، وإنما الحق يعرف بالدليل.

● ورد في تاريخ أبي زرعة قال الأوزاعي: (وكان عطاء مفتي مكة أرضى الناس عند الناس، وما كان يشهد مجلسه إلا سبعة أو ثمانية) وقال: (رأيت الزهري ومحمد بن المنكدر جالسين في المسجد الحرام، ما معهما ثالث يطلب

العلم)[1].

وها هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «زملوني زملوني»[2] حتى قوله: «بل الرفيق الأعلى»[3].

كم عانى وقاسى وحارب!

كم عودي وطرد وأوذي!

كم اجتهد وجاهد وبذل وتفانى!

كم دعا وبكى وتضرع ورق وحنّ وعطف وذاق من ألم المعاناة لكي يصل هذا النور الإلهي للأمة!

واحذر من اليأس واللحاق بركب من يئس وأصابه الكسل، وربما قذفته الشياطين في أوحال الشهوات والشبهات، وكن متمسكًا بالفأل مع كل الصراعات والعقبات والعزيمة.

يا حامل الهـمّ لا تَحْزُنْكَ عاصِفةٌ ... هبّتْ على قلبكَ الموجوعِ فانهدَما
سـيَبعَثُ اللهُ مِـن آفـاقِ رحمَتِـهِ ... لُطفًـا يُرمّمُ في جنْبَيْـكَ ما هُدِما
طمئن فـؤادك فالأقـدارُ حانيَةٌ ... وفي الحيـاةِ سرورٌ يعقُـبُ الألَمَا
وفي السـماءِ هدايا الغيـبِ دانيةٌ ... يومًا سـتأتيك بالبُشرى لِتبتسِـما

إن أصحاب العزائم والسراة يمشون ويسيرون وقد ملأ اليقين قلوبهم وانطوت الآمال في صدورهم، لم يزدهم البلاء وتغير الحال وقلة السالكين إلا

(١) تاريخ أبي زرعة (٤٤٨).
(٢) رواه البخاري (٣).
(٣) رواه البخاري (٣٦٦٨).

ثباتًا ورشدًا.

التجأوا إلى الرحمن بقلوبهم وألسنتهم وأبدانهم، واستمدوا من وحيه طريقتهم ومن رسوله قدوتهم.

ركبوا سفينة الربانيين واهتدوا بأنوار الراسخين، فهم بحسن العاقبة موقنون وبصلاح الأمة والأحوال وبنصر الإسلام موقنون ومؤمنون.

لو علم اليائسون حالهم ونعيمهم لما رضوا بغير طريقتهم طريقًا ولا مسلكهم سبيلًا، وقاتلوا اليأس وأطلقوا العنان وتساموا عن الدون، ولما رضوا أن يكون حالهم حال العامة والدهماء.

لا تيأسنّ لبابٍ سُدّ في طلبٍ فالله يفتحُ بعد البابِ أبوابًا

إذا شعرت بالحزن وبلغك بك مداه مما ترى فتذكر قول الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾[الأنعام: ١١٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[يوسف: ٢١].

ففيها برد اليقين وطمأنينة النفس وسكينة الروح.

لو انتصر الحق دائمًا لامتلأ الصف بالمنافقين، ولو انتصر الباطل دائمًا لدخل الشك على أهل الإسلام في ربهم ودينهم ومنهجهم، ولكنها ساعة وساعة، فساعة انتصار الباطل فيها التمييز والاختبار، وساعة انتصار الحق فيها اليقين والإيمان، والحق والباطل في صراع وسجال إلى يوم القيامة، والسعيد الموفق من علم الحق وعمل به وصبر عليه وعلى الأذى فيه، والمخذول والمحروم والشقي من يتلون ويتقلب بين الحق والباطل حسب الأهواء والرغبات.

وأعظم مصيبة من هذا ترسيخ الباطل في القلوب وجرف الناس عن شريعة رب العالمين وسنة سيد المرسلين، باسم الدين والعلم والتدين الجديد والوسطية والاعتدال، والمسلوب من سلب دينه لا ماله [1].

● وكتب إسحاق إلى إبي زرعة: (ولا يهولنّك الباطل؛ فإن للباطل جولة ثم يتلاشى)[2].

الدينُ رأسُ المالِ فاستمسكْ بهِ   فضياعُه من أعظمِ الخسرانِ

*****

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٣١٠) ورد عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٤٢).

عقدة التصنيف

موضوع شائك ومعقد لتنوعه وكثرته وحساسيته، وصعوبة ضبطه، وارتباطه بالحق والباطل، وعقائد الناس ودينهم، وعلاقتهم بربهم، وتاريخهم وبلدانهم، والناس فيه طرفان ووسط؛ مؤيد له ورافض له، ووسط يرى فيه الحق والباطل، ومنه ما هو محمود ومذموم، فإن دعا إلى التعصب والبغي والعدوان والظلم والولاء والبراء لمن وافقه أو خالفه في الانتماء، والاستعلاء على الحق وعدم الانقياد له، ومخالفة إجماع أهل الإسلام، وكان له ضرر ومفاسد، فهو باطل، وإن كان غير متلبس بذلك فهو محمود أو محل اجتهاد وغير ذلك، وطرف يرى أنه لا علاج لهذه المشكلة تمامًا فهي مشكلة أزلية، والعلاج كثير منه نظري ولا يكون واقعيًّا.

والتصنيف في جملته ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - **التصنيف العقدي**: ويتمثل في اختلاف الناس في عقائدهم داخل دائرة الإسلام وأهل القبلة.

٢- **التصنيف الفقهي**: ويتمثل في اختلاف الناس في مذاهبهم الفقهية.

٣- **التصنيف الدعوي والتربوي والفكري**: وله أسماء كثيرة ومناهج وأحزاب مختلفة ومتنوعة وقديمة ومعاصرة، وربما تكون مرتبطة بالأقسام السابقة.

ولا أستطيع في هذه الرسالة بسط المسألة فيها لما تقدم، وقد تكلم الناس في

ذلك عبر التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا، وفي هذه الرسالة إشارات متفرقة لعلها تكون نافعة بإذن الله بدون ردود أفعال.

وقد أصبحت بعض هذه التصنيفات مستحكمة على علاقات الناس والتعايش بينهم، والتعامل مع بعضهم في حياتهم الاجتماعية والوطنية والأخلاقية وحكمهم على الناس، وصاروا في قلق وخوف من تعامل بعضهم مع بعض، وقد قيل: لربما كان التعايش مع الكافر أهون من التعايش مع المخالف منها وأكثر أمانًا عند بعضهم. وقال بعضهم: كثير ممن ينادي اليوم بالتعايش مع غير المسلم ليته ينادي بالتعايش مع أخيه المسلم الذي اختلف معه فيما تقدم من أنواع التصنيفات.

ومع هذه التصنيفات واختلاف مشاربها وعقدها، إلا أنه عندنا الكثير من المحكمات المتفق عليها والأصول المجمع عليها مما يوجب التعاون والتآخي والعدل والإنصاف، في خدمة الإسلام ومشاريعه العظام وحقوق الأخوة الإسلامية، ولا يلزم إما أن نتفق في كل شيء أو نختلف في كل شيء، ومن الخلاف ما يمكن التنازل عنه والتغاضي أو التقارب لمصلحة أعظم، ومنه ما لا يمكن التنازل عنه لاعتبارات عدة، فكم حينئذ تكون نسبة الاختلاف!

وإننا نجد من الناس التعصب لبعض هذه التصنيفات وبعض مسائلها، وهي ليس عليها دليل من الكتاب والسنة ولا سلف الأمة، ويوالي ويعادي عليها أكثر مما في الوحيين وحرمات الله.

ونجد مع اختلاف هذه التصنيفات وأصحابها إلا أنه لم يمتنع العلماء من الاستفادة ممن عنده من الحق ما يصار إليه وينتفع به، وإن اختلفوا معهم في مسائل الاعتقاد أو الفقه ونحوها، فكتب شراح الحديث والفقهاء وأصول الفقه

وغيرهم مليئة بمثل هذا ولا ينكرها أحد، فالاختلاف لم يمنعهم من أخذ الحق منهم ومن بعضهم بعضًا حتى يومنا هذا.

فتأمل وتدبر إن رمت الإنصاف والعدل:

- قال ابن عبدالبر: (من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم)[1].

واعلموا - رحمكم الله - أن معاقد الولاء والبراء لله ولكتابه ولرسوله ودين الإسلام، وليس لهذه التصنيفات وأتباعها وأئمتها، والغلو في ذلك يكون سببًا في رد الحق والدليل وتأويل النصوص وليّ أعناقها، على قاعدة الاعتقاد ثم الاستدلال، وهي سبب كبير في كثير من الإشكالات المذهبية والعلمية والمنهجية.

واعلموا: أن بعض هذه التصنيفات والمذاهب في بعض الأماكن أصبحت حصنًا لعدم تغيير الشعوب ومعرفة الحق، وعصًا يضرب بها المخالف، وإرثًا يتمسك به كاسم بعيدًا عن التطبيق العملي، وإن كان من تطبيق فيكون في بعض المسائل الظاهرة المشتهرة لهذا المذهب وذاك، وذلك لاعتبارات مناطقية وإقليمية واجتماعية وغيرها.

واعلموا: أن هذه التصنيفات واقع لا يمكن أن نقضي عليها ونخلِّص الناس من مذاهبهم التي تناقلوها وتشربوها وتعلموها منذ صغرهم، ويرون أنها الحق يؤمنون به ويبعثون عليه، وإنما علينا التعايش والتخفيف والحكمة والنصح وعدم البغي والعدوان والنظر في مآلات التصنيفات، بلا ضرر ولا ضرار وعدم ترتب فساد في الأمن والأمان، حتى لا يحتج محتج ويفهم غير عاقل

---

(١) جامع بيان العلم (١/ ٢٥٨).

بأن ذلك يسري على من يستحلون دماء المسلمين ويخلون بالأمن في البلدان.

ولما أراد الخليفة المنصور أن يجمع الأمصار على موطأ الإمام مالك فقال له: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمري، لو طاوعتني لأمرت بذلك(١).

واعلموا - رحمكم الله - أنه متى استبان للمسلم الحق بالدليل والتعليل لا التشهي والجهل، وعنده القدرة العلمية على ذلك، فإنه لا يجوز له مخالفته لأجل المذهبية بأنواعها وتصانيفها، لأننا متعبدون لله بأمر الله وأمر رسوله ﷺ والعلماء مبلغون عن الله وعن رسول الله ﷺ يخطئون ويصيبون في ذلك.

واعلموا - رحمكم الله - أنه لا يجوز الاستعداء على المخالف والانتقام منه، ولا نعيد أخطاء التاريخ التي قد سودت بعض تاريخنا المجيد العريق.

ولنكن صرحاء: هل هذه القضية كانت سببًا وجزءًا من مشكلة العالم الإسلامي، بل العالم كله في الزمن الماضي ويومنا، هل كانت عائقًا في تقدم الإسلام وانتشاره؟

الجواب: كل واحد منا يوجه هذا السؤال لنفسه ومن حوله، ويقف متأملًا منصفًا عادلًا مع من معه موافقًا ومخالفًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٩).

يقول ابن تيمية: (قول السلف وأئمة الفتوى، كأبي حنيفة والشافعي والثوري وداود بن علي وغيرهم، لا يؤثمون مجتهدًا مخطئًا في المسائل الأصولية ولا في الفروعية، كما ذكر عنهم ابن حزم وغيره، ولهذا كان أبو حنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة أهل الأهواء، إلا الخطابية، ويصححون الصلاة خلفهم، والكافر لا تقبل شهادته على المسلمين ولا يصلى خلفه، وقالوا: هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحدًا من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة عملية ولا علمية)[1].

وهنا وقفة:

فعند الحديث عن التصنيفات تأتي مسألة، وهي حاضرة في الأذهان والواقع، ولابد من ذكرها وطرحها بنوع من الاتزان والحكمة، وهي ما تسمى مسألة الامتحان والاختبار في العقائد ونحوها، والناس فيها طرفان، بناء على فهمهم لما ورد عن السلف، وتخوفًا من كثير من الإشكالات والمفاسد المترتبة على التعامل مع المخالف، ولنعلم أنه ورد من أقوال السلف وأفعالهم ما يجيز الأمر[2] وورد ما يمنعه والحكم ببدعيته في العقائد[3] وتجد بعض الناس ينزل

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٧).

(٢) عن ابن سيرين قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم» مقدمة صحيح مسلم (١/ ١٥). ولما وقع من أمر الكلابية ما وقع بنيسابور، كان أبو العباس السراج يمتحن أولاد الناس، فلا يحدث أولاد الكلابية، فأقامني في المجلس مرة فقال: قل: أنا أبرأ إلى الله تعالى من الكلابية. فقلت: إن قلت هذا لا يطعمني أبي الخبز. فضحك وقال: دعوا هذا. سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٩٥).

(٣) عن ابن سيرين قال: «سؤال الرجل أخاه: أمؤمن أنت؟ محنة بدعة كما يمتحن الخوارج» شرح

ذلك على باقي التصنيفات.

والجمع بين القولين أن يقال:

١- الأصل عدم الامتحان، لأنه لم يرد عن السلف أن يختبروا كل من لم يعرفوه، ولم يكن لهم منهج بصفة دائمة، وإنما هي قضايا أعيان لها أسبابها وظروفها وزمنها وواقعها.

٢- أن الامتحان في قضايا معينة ولم تكن في كل شيء، فلا تجعل مع كل مخالف في كل قضية.

٣- أن الامتحان عند الحاجة والمصلحة والخوف المتحقق لا المتوهم ودرء المفاسد وإرادة النصح والتولية لأمر من الأمور فجائز، وإذا كان الأمر ليس بحاجة، ولا يوجد ما يوجب الخوف والقلق ولا مصلحة في ذلك، فعمل غير مشروع، ولا موجب له، وهو من قبيل السياسة الشرعية، ولا يفهم من هذا الطرح التعصب والحث على الامتحان، وإنما الحال وواقع الناس يقتضي هذا، لأمور لا يسع المقام لذكرها، وربما الأمر يختلف في هذا من زمان لآخر، وبين البلدان والأشخاص، ومن منهج لآخر ومسألة لأخرى، ونفرق بين اختلاف المنهج واختلاف المسائل، والداعي وغير الداعي، وما هو العمل المشترك الموجب له؟ وهل يقتضي السؤال أو لا ؟ وغيرها من الفروق[1].

٤- يحدث كثيرًا خلل في تطبيق هذه المسائل، ويفهم كلام السلف على

أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ١٠٦٠). ولما امتحن البخاري قال: (القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١). وورد عن ابن عون: (ما هذا الممتحن الناس) القدر للفريابي (٢٠٠).

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٤، ١٩/ ٦٢، ١٥/ ٣٢٩).

غير مرادهم، فيكون الناس فيها طرفان متضادان، ومتى أمكن الجمع كان هو الواجب حتى لا تضرب النصوص بعضها ببعض على وجه التعارض، ومن ابتغى الفتنة وقع فيها، والعياذ بالله.

يقول ابن تيمية: (والتفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله، مثل أن يقال للرجل: أنت شكيلي، أو قرفندي، فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأئمة لا شكيلي ولا قرفندي، والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي ولا قرفندي؛ بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله)[1].

*****

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٥).

الأفكار الضالة والمناهج المنحرفة

يا طلاب العلم: احذروا وحذّروا وحصنوا الشباب من الجماعات والمناهج المنحرفة والضالة عقديًّا وفكريًّا، والفتاوى الشاذة، وسلطة العقل على النص وتقديمه عليه، وانشغلوا بالعلم وتعليم الناس، وأظهروا سماحة الإسلام ووسطيته واعتداله ومحاسنه وبراءته من الضلال والتطرف بجميع أنواعه، واستفيدوا واستقوا الدروس مما حصل ومما يحصل اليوم في العالم الإسلامي من الحروب ومواطن الفتن وانجراف الشباب إليها وانخداعهم بها، ومن أصابته اللوثة فناقشوه وناصحوه بالعلم والحكمة، وكونوا له كالطبيب للمريض، وتفقدوا من يغيب عنكم، فالذئب يأكل من الغنم القاصية.

وإن الغائب والمنفرد عرضة للاختطاف والانفراد به، وأنه سيصبح فريسة سهلة للاصطياد ومخادعته وتوجيهه يمنة ويسرة، فجاء التحذير العظيم من نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشذوذ والانفراد، وأن الذئب يصطاد من الغنم من كانت بعيدة عن أخواتها قاصية عنها.

احذروا، وحذّروا الشباب من مواطن الفتن والصراعات فما هي بنقية، كم فقدت الأمة من شباب في هذه المواطن تلوثوا بالأفكار المنحرفة وكانوا وقوداً لها! والتاريخ خير شاهد ومليء بالدروس والعبر، وما النتيجة! كم جلبت من الفساد والشرور على العقول والأنفس والبلدان! والتستر على الأخطاء يشجع على تكرارها، والأمة أمانة في أعناق العلماء وأهل الرأي والحل والعقد. فهل من متعظ ومعتبر ومدَّكر!

التركيز على الشباب أمر مهم ومطلب ضروري في التربية والتعليم والدعوة، لأنهم أرض قابلة للبذر ولم يتشربوا الانحرافات العقدية، لأن من تشربها يصعب تغييره والتأثير فيه وإقناعه، وهذا أمر واقع في كثير من الأزمان والأماكن، لأن صاحب المعصية والانحراف الأخلاقي والفكري أهون من صاحب الانحراف العقدي.

إن على أهل العلم والفكر دراسة أسباب ودوافع التغير والتحول في الأمم والأفراد في دينها وعقيدتها وفكرها ومبادئها وكيفية المعالجة والتصدي لها.

إن ظاهرة التحولات العقدية والفكرية والمنهجية التي تعتري بعض طلاب العلم والدعاة والمفكرين اليوم هي مسألة خطيرة ولا يستهان بها، ولو كانت هذا التحولات مما يدخل في نطاق الخلاف المعتبر الذي لا يثرّب فيه على المخالف لكان حسنًا، لكن هذه التحولات في ظاهرها خلاف ورأي وفي باطنها نقض لعُرَا المبادئ والقيم ومخالفة منهج أهل السنة والجماعة، وتسطيح للأفكار والآراء والقضايا المنهجية، وتوافق مع أهل الأهواء والبدع.

إن ظاهرة الإعجاب و التبعية حول الشبيبة من أصحاب الأقلام المبدعة و الساحرة التي تجذب الجيل الصاعد والعامة من الناس، بحسن المنطق وبراعة الأسلوب، والقدرة على صفّ الكلمات، وجعلهم قادة في كثير من قضايا الأمة وتصديهم لها، وترميز صغار السن من الدعاة وطلاب العلم والمفكرين والمتعالمين، وإقصاء وتجاهل الكبار وإسقاطهم - مسألة خطيرة تحتاج إلى جهود مكثفة للتصدي لها وإبراز مخاطرها وتبعاتها المستقبلية، وها هي الأمة اليوم تعيش صراعًا وتخبطًا، وتجني الشوك وتلعق الصبر والندم في بعض قضاياها، بسبب أولئك الصغار وما هُم عليه من (الأنا).

الشباب قوة الأمم

الشباب هم العدة والعتاد، ومن تربط الأمة بهم معاقد عزها ونصرها، حُمَاتها وكُمَاتها وجوهرها ونفيسها، جمالها وبهجتها، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتنى بالشباب وصحبه الكرام وفي الأمة من نحا نحوهم.

● عن أبي بكر بن عياش قال: (كنا عند الأعمش، ونحن حوله نكتب الحديث، فمر به رجل فقال: يا أبا محمد، ما هؤلاء الصبيان حولك؟ قال: هؤلاء الذين يحفظون عليك دينك)[1].

● ومثله ورد عن حماد بن سلمة.

● وعن الأصبحي قال: (كنت أسبق إلى حلقة عبد الله بن المبارك بليل مع أقراني، لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ، فقيل له: قد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان. فقال: هؤلاء أرجى عندي منكم، أنتم كم تعيشون! وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم)[2].

● وكان ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا رأى صبيان أصحاب الحديث، وفي أيديهم المحابر، يقربهم ويقول: هؤلاء غرس الدين، أخبرنا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يشد الدين بهم**» هم اليوم أصاغركم، ويوشك أن يكونوا كبارًا من بعدكم»[3].

---

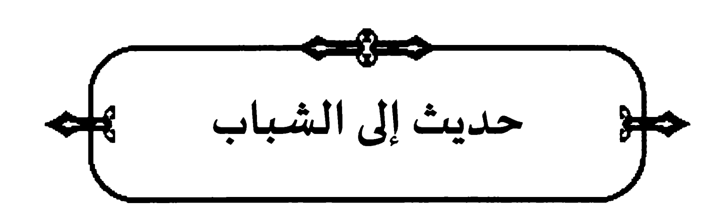
(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (١٩٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) شرف أصحاب الحديث للبغدادي (٦٥).

واحذر كل الحذر من الشباب الأغرار الذين ربما يزجون بك إلى معارك خاسرة وخسارتها على نفسك ومشاريعك، ويدفعون بك إلى اتخاذ قرار أو فتوى أو عمل مفسدته أعظم، وربما كانوا غير صادقين أو مدفوعين لتكون فريسة لهم ولغيرهم، فكن ذكيًّا فطنًا حذرًا، واللبيب بالإشارة يفهم، وكن مستفيدًا من تجارب وأخطاء من سبقوك مع عدم نسيان حسناتهم وسابقتهم، والتماس الأعذار لهم، غير شامت ولا ساخر منهم.

*****



حديث إلى الشباب

أيها الشباب: احذروا الانفراد بحجج واهية ونتيجة لردود الأفعال، فإن قومًا ابتعدوا فتاهوا، وابتعدوا عن الحق تحت مسمى التجديد والمصالحة مع النفس والتسامح[1] وسلطة العقل على النص والاعتداد والعجب بالرأي، وأقاموا أنفسهم مقام العلماء.

وحجـــةُ الله يـــا ذا العلـــمِ بالغةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ لا المكرُ ينفعُ فيهـــا لا ولا الحيلُ

● قال الإمام الدارمي: (إن الذي يريد الشذوذ عن الحق، يتبع الشاذ من قول العلماء، ويتعلق بزلاتهم، والذي يؤم الحق في نفسه يتبع المشهور من قول جماعتهم، وينقلب مع جمهورهم، فهما آيتان بينتان يستدل بهما على اتباع الرجل، وعلى ابتداعه)[2].

وكلما كان الإنسان عن السنة أبعد كان انفراده بالأقوال والأفعال الباطلة أكثر[3].

الجماعة في الصحبة والعمل العلمي والدعوي وغيرها سند عند الضعف،

---

(١) التسامح للأسف أصبح ثقافة ينادى بها على غير هدى من الله، فتعطل أحكام الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والدعوة إلى الله، وتغير أسماء الأحكام الشرعية، وتقر الأديان الباطلة بحجة التسامح والتعايش، وقد تعايش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الكفار في مكة والمدينة، والصحابة من بعده في الشام والعراق وغيرها أفضل تعايش بدون إقرار للكفر والباطل.

(٢) الرد على الجهمية (١٢٤).

(٣) منهاج السنة (٥/ ١٧٣).

وتحفيز عند التراجع، ودفع عند التراخي، ورفع عند الانحدار، وأمان من السقوط، وضمان من الانكسار، وتثبيت عند الانحراف.

سالك طريق العلم: يبلغ الإنسان عمرًا ويقرأ كثيرًا ويحصِّل شهادات عليا لكنه يفتقد أبجديات التعامل مع الناس، ومتى يحسن به الكلام ومتى يحسن السكوت، وكيف يعرض ما لديه للناس على مختلف أعمارهم وثقافاتهم وأفكارهم، وهذا يكتسبه بالحكمة والتجربة ومجالسة الكبار وأهل الأدب ويلحظ بفطنته ذلك كله، والحكمة ضالة المؤمن.

*****

حديث إلى النساء

أيتها المرأة المسلمة: سواء كنت طالبة منحة أو مرافقة، فلك مثل الرجال من الوصايا، وقد خرجتن مع أزواجكن معينات وطالبات للعلم، فكوني خير معين، وكوني جادة مجدة في طلب العلم وتعلم اللغة العربية، كوني ثابتة راسخة على دينك وعفافك وحيائك والطهر والنقاء، كوني قدوة مؤثرة في عبادتك وأخلاقك وتعاملك، وخذي مما تقدم من الوصايا:

في التمسك بالتوحيد وثباتك على دينك، وتعليم ودعوة أسرتك وقومك وبني جلدتك في بلد الرحلة في طلب العلم، وإذا عدت في الإجازات وفي رجوعك الأخير كل ما يحتاجونه من تعليم التوحيد وقصار السور من القرآن وأحكام الدين والتربية والأخلاق الإسلامية واللغة العربية.

وفي نساء السلف أمثلة مشرقة مضيئة في طلب العلم والدعوة إلى الله، وعلى رأسهن عائشة العفيفة المطهرة رضي الله عنها.

كوني دفاعًا وسندًا ودرعًا حصينًا لزوجك في بيته ومشاريعه الخيرية، ولك في خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خير مثال يحتذى في النصرة والمؤازرة.

فقد دخل عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترجف بوادره، فقال: «**زمّلوني زمّلوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: «**أي خديجة، ما لي؟**» وأخبرها الخبر، قال: «**لقد خشيت على نفسي**» قالت له خديجة: كلا، أبشر، فوالله، لا يخزيك الله أبدًا، والله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل

الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: أي عم، اسمع من ابن أخيك. قال ورقة بن نوفل: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو مخرجي هم؟**» قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[1].

وانظرن إلى والدة أئمة الإسلام؛ مالك والشافعي وابن حنبل والبخاري، فقد قامت كل واحدة منهن بابنها بعد وفاة أبيه أحسن قيام، وبعثن بهم للخروج إلى العلم وحضور مجالس العلماء، فكانوا أئمة الدنيا.

● يذكر أن خديجة العمودي نسخت شرح المنهاج للدميري عشرة مجلدات وقالت: (ليعذرني من وجد فيه سقطًا، فإني نسخته وأنا مرضع)[2].

وإذا كانــتِ النفــوسُ كبــارًا   تَعِبــتْ في مُرادِهــا الأجســامُ

*****

---

(١) رواه البخاري (رقم ٣) ومسلم (١٦٠).

(٢) تاج الأعراس (٢ / ٥٦٣).



نماذج مشرقة، وصور مضيئة، وهمم عالية

رجعت أعداد كبيرة من الطلاب إلى بلدانهم منذ عشرات السنين، إلى الخليج واليمن والشام وتركيا وأفريقيا، وجنوب شرق آسيا، والقارة الهندية، وبلاد ما وراء النهر، والأمريكتين، وأوربا الشرقية والغربية، وبلدان البحر الكاريبي، وروسيا والجمهوريات الإسلامية، وقد حصّلوا علمًا كثيرًا في كثير من المجالات الشرعية والمهارية، وقاموا بنشر العلم الشرعي من خلال المساجد وبناء المراكز والمعاهد والمدارس واللجان الشرعية ولجان الصلح وتعليم اللغة العربية، والقنوات والإذاعات، تولوا الإمامة في المساجد ومناصب الإفتاء ورئاسة المراكز الإسلامية، وأصبحوا وزراء في التعليم والشؤون الدينية وسفراء لبلدانهم وغيرها، فكم كانوا هداة حداة مصابيح هداية، ومشاعل خير وفلاح، وسفراء للإسلام، فقاموا خير قيام في عمل دؤوب وشاق، متنقلين بين القرى والبلدان في نشر الإسلام وهداية الخلق وإعانة الفقراء، وحل النزاعات والصلح بين المتخاصمين، وإسلام الكافرين، وتوبة المنحرفين والضالين، فتحوا قلوبهم وبذلوا مهجهم ونفيس أوقاتهم وأموالهم لنشر الإسلام ودعوة الناس إلى الله، وقد شوهدت جنائز من مات منهم وقد شيعها الآلاف من الناس.

ما ماتَ من زرعَ الفضائلَ في الورى ... بلْ عاشَ عُمــرًا ثانيًا تحتَ الثّرى

فالذكــرُ يُحيــي ميّتًــا ولربّــما ... ماتَ الذي مازالَ يَســمعُ أو يَرى

ما أعظمها من أرواح ونفوس ورجال: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ

ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣].

رجال ثبتوا على الحق.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من تبليغ دين الله ونشره.

صدقوا ما عاهدوا، صدقوا فضَحوا بالنَّفس والنفيس في سبيل الله.

صدقوا فتحمَّلوا الفقر والتعب والأذى لخدمة هذا الدين.

رجال لم ينقضوا العهد والميثاق وما تنكبوا الطريق وعبثوا بالدين وغيروا دين الله بالانتكاسة والأقوال الشاذة والانحراف المنهجي.

هُمُ الرجالُ وقــد جاءوا على قدرٍ ... هُمُ الذيــنَ إذا ما عاهدوا صدقوا

رجال منهم من قضى نحبه ولقي الله وهو على خير وبر وفلاح، فرحمهم الله، ومنهم من ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصلاح والدعوة والتعليم، وما بدلوا كما بدل أهل النفاق ومرضى القلوب، ثبتهم الله وزكاهم وتولاهم برعايته وتوفيقه وتسديده.

مواكبُ الله ســارَتْ لا يُزَعْزِعُهَا ... عاتٍ منَ البحرِ أو عالٍ من الأُطم

لا يهتفــونَ لمخلوقٍ فقــدْ علمُوا ... أنَّ الخلائــقَ والدنيــا إلَى العَدَمِ

أخيرًا أيها المبارك المتألق: الأمل فيك كبير، والمرجو منك كثير، وأنت أهل بإذن الله لكل ذلك، واجتهد وجد في رحلتك في طلب العلم والدعوة إلى الله، ولا تنشغل عن هدفك الأساس، وتضيع وقتك في قيل وقال، ومتابعة أحداث العالم وصراعاته، إنكم صمام أمان، ومشعل هداية، لجيل يتربص به الأعداء، فلا تتأخروا ولا تتكاسلوا ولا تختلفوا، ويضيع الجيل ويتيه في لجج

الشبهات والشهوات، فاحفظوا العهد والميثاق.

وصية من سفيان الثوري:

● كتب سفيان الثوري إلى أحد إخوانه بوصية يقول فيها: (عافانا الله وإياك من النار برحمته، وأوصيك وإياي بتقوى الله، وأحذرك أن تجهل بعد إذ علمت، وتهلك بعد إذ أبصرت، وتدع الطريق بعد إذ وضح لك، وتغتر بأهل الدنيا بطلبهم لها وحرصهم عليها وجمعهم لها، فإن الهول شديد، والخطر عظيم، والأمر قريب)[1].

وَكُـن فِي الطَّرِيـقِ عَفِيـفَ الخُطـا — شَـرِيفَ السَّـماعِ كَرِيـمَ النَظَـر

وَكُـن رَجُـلاً إِن أَتَـوا بَعـدَهُ — يَقولـونَ مَـرَّ وَهَـذا الأَثَـر

*****

(١) حلية الأولياء (٦ / ٣٩١).

المراجعة والتراجع

إن للتأمل والتفكير والمراجعة والتقييم لكل ما نبني عليه تصوراتنا ومناهجنا وسلوكنا، سواء ما نتقرب به إلى الله على المستوى الفردي، أو في مهامنا المجتمعية، وأدائنا لمهمة الدعوة إلى الله والرجوع إلى الحق والبحث عن أقوم المسالك وأقربها اتباعًا للسنة وروح الشريعة - أهميةً بالغةً تبرز في كونها مؤشر إخلاص ودليل تجرد للحق، وهو مطلب لا بد أن يسعى إليه العالم وطالب العلم والداعية إلى الله، مع الحرص على التجديد والتصويب.

ولا شك أن هذا منهج قرآني وتطبيق نبوي، حيث تؤكد لنا مواقف متفرقة في السيرة النبوية عن تراجعات واضحة غير مرتابة بعد تصحيح الوحي وتصويبه لبعض الاجتهادات النبوية، وما الهدف منها إلا لتكون نبراسًا للأمة ودليلًا تطبيقيًّا للدعاة إلى الله حتى لا يتحجروا على مواقف خاطئة واجتهادات مفارقة للصواب، أويتعصبوا لموروث بعيد عن الحقيقة، وقد ذم الله سبحانه الجامدين المستكبرين عن الحق حاكيًا حالهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

لذلك تعتبر مراجعة الأفكار والاجتهادات والآراء بين فترة وأخرى أمرًا محمودًا ومطلبًا شرعيًّا معهودًا، فالحوادث تتوالى، والنوازل تتغير، وعقول المخاطبين أصبحت أكثر انفتاحًا ووعيًا.

ولا شك أن التراجع عن بعض الفكر الصائب، أو المعتقد الصحيح،

والسنة الظاهرة، والدليل الصحيح، والاتفاقات والإجماعات العلمية، قد يكونُ أيضًا نتيجةً من نتائج المراجعة الخاطئة، لذلك كان لزامًا على طالب العلم اتباع مرجعية علمية وضوابط واضحة؛ حتى يأمن الزلل في مواضع يبحث فيها عن الحق والكمال.

وقد حذرنا الله سبحانه من طريقة الكافرين في التراجع عن دوائر النور والحق إلى مجاهل الظلمات والباطل، حين قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

ومن المهم أن نعلم أن بين المراجعة والتراجع خيطًا رفيعًا، ومع ذلك فهو لا يُرى إلا من خارج الدائرة وبتجرد وإخلاص كاملين، وهذا الأمر أشبه بالمعْلَم المطموس عند مفترق الطرق، من لم ينتبه إليه التبست عليه السُّبل، وربما رجع القهقرى في موضع ينشد فيه الشدّ في المسير.

قال سبحانه: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

لذلك من الخطير أن تتحول المراجعات إلى تراجعات عن الهدى والحق، وإن وقع ذلك فسرعان ما تتطور إلى انتكاسات منهجية خطيرة، والمناهج قلما تُسترد إذا سقطت، فالحذر الحذر!

ومن المهم أيضًا أن نعلم أن محطات الإقبال على المراجعة قد تكون في أوقات ضعف، أو لحظات اندفاع غير محسوب، أو تأثر بمشهد درامي، أو انبهار

بقراءة عابرة لمقال أو كتاب، أو حتى تغريدة أو لقاء صحفي، مع متراجع أو مهاجم لما تحمله أنت من منهج سليم، وفي كل الحالات فإن المراجعة قد تحدث تحت وطأة ظروف نفسية غير مستقرة، أو نظرات شخصية عَجْلَى تختصر التأمل وتختزل النتائج ، ولك أن تستصحب هذا المنزلق لأنه مفيد لك عند أي مراجعة حتى لا تخضع لمؤثرات خارجية ضاغطة.

إن الظروف النفسية المتقلبة عامل خطير في اتخاذ المواقف العملية، وربما العلمية؛ فكم من طروحات ومواقف اكتست أرديةً علمية ودعويةً، وهي في حقيقتها ردود فعل نفسية، ربما نشأت عن مواقف شخصية لمحبة مفرطة أو بغض غير متوازن وغير ذلك، وهذا أمر ليس من السهولة منعه، ولكن ليس من الصعوبة رصده والحذر منه.

ومن المحزن أنه قد تكون بعض المراجعات (محطةً) يتوقف عندها القطار توقفًا نهائيًّا على مستوى أفراد أو مجموعات قد يكون بعضهم مهيأً نفسيًّا ليحط رحاله في أقرب المنازل تعللًا بالنوازل، والله المستعان، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم!

وفي هذه الحالة لا تكون تلك المحطة إلا حفرة أوقعهم الشيطان فيها في لحظات ضعف وغفلة ، وفي الصراحة تكون الراحة، ولا نخادع النفس، وفي هذه الأزمنة المتأخرة يحدث التراجع عن الحق والصواب في أغلب أحيانه تحت مسمى المراجعة كمبرر يُستظل بظله ويُتدثر بردائه تحت أسماء براقة وشعارات خدّاعة، تتغطى بالحكمة تارة وبالواقعية أخرى، وترتدي أثواب زور من العلم والتعقل والأناة، والتجديد، والوسطية، والمصلحة والمصالحة مع النفس مرات أخرى.

وكثيرًا ما يحدث التورط في مستنقعات التراجع بدافع من أوهام تضخم التجربة ومبالغات تفرد الرمزية التي تخلع ألقابًا وأوصافًا على أشخاص قد يكونون بالفعل رموزًا أو أصحاب تجارب، لكن التفويض المطلق لبعض الرموز وأصحاب التجارب في المراجعات هو الذي يفتح الأبواب واسعةً أمام التراجعات التي تتسلل سَلِسةً على أَلْسنةِ مَنْ لا يجرؤ أحد على مناقشتهم أو مراجعتهم.

إن التراجعات الفردية هي نسبية من حيث الصحة والخطأ والراجح والمرجوح، وهي اجتهاد ينسب للأفراد لا للمناهج والدين، فليس ضرورة أن تكون صحيحة أو خاطئة ما لم تعرض على تلك الضوابط المهمة من مرجعية واضحة في أصول الاستدلال، ويشهد لها أهل العلم والرسوخ بالصحة والكمال.

ومن المهم أيضًا أننا نفرق في تلك المراجعات بين ما هو من الشرع وما ليس منه، وما هو من الوسائل والعادات وليس من الغايات والأصول والعبادات، والعكس، فلابد من التمييز وفق الكتاب والسنة وإعمال قواعد الشرع.

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

إن على المتراجعين أن ينسبوا مراجعاتهم إلى أنفسهم وآرائهم الشخصية الخاصة، ويبينوا الفرق بين المسائل الاجتهادية والمسائل المجمع عليها، ويحفظوا للمخالف قدره، دون بغي أو انتقاص أو إسقاط أو تشفٍّ، امتثالاً لأمر الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

ومن الأسئلة المهمة التي يجب أن تطرح في مثل هذه الحالات:

هل التراجع طارئ ومؤقت لظرف قاهرة، وبذلك يخضع لقاعدة المصالح

والمفاسد، فيأخذ حكم الاستثناء، أم هو أصل ثابت مستقر لا استثناء؟

وهل أسباب التراجع شرعية فرضتها ظروف واقعية حقيقية، أم هي أوهام نفسية تستجيب لضغط المجتمع ومطامع الناس؟ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)﴾ [الأنعام: ١١٦].

إن على الأمة ألا تقبل أي تراجع حتى يُعرض على الكتاب والسنة، ويقول أهل العلم الراسخون فيه كلمتهم، ولا يزال اليقين إلا بيقين، ولا ينساق الناس لكل من ادعى المراجعة والتجديد، وصدق الشاعر حين قال: «وكل فتاة بأبيها معجبة» كما هو حال الأتباع والمسوّقين.

لا تزال الأمة اليوم تعيش اضطرابًا وصراعًا وشرخًا أحدثته تلك التراجعات الخاطئة، وإن سميت بالمراجعات، لعدم الوضوح فيها وغياب الصواب عنها، وبعضها طويت ونسيت ولم تترك آثارًا سلبية على الناس، والله سبحانه يقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)﴾ فهل يعقل أن ينادى بالتوبة من التوبة والتمسك بالكتاب والسنة!

ولا تزال الأمة في وجَل وشكّ من هذه المراجعات الخاطئة، ولها أن تتساءل: ماذا أحدثت وحققت من المصالح ودرأت من المفاسد على مستوى العقيدة والسلوك أو الفكر والمنهج؟

هل هي حقائق أم أوهام؛ سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء؟

هل فعلًا لدينا دراسات وبحوث علمية للواقع والمقارنات الفكرية التي

تساعد على استخلاص أصدق النتائج، أم هي مجرد ردود أفعال وانتصار للذات وزج بالأمة في أتون الخلافات والانسحابات دون حسبان وبلا مبالاة ومعرفة المآلات؟

نحن هنا لا ننقد المراجعة والتصحيح جملة وتفصيلًا، فالمراجعة للتقدم وبغية الحق والخير أمر مطلوب ومندوب إليه، ولكن حديثنا في نطاق المراجعات التي تهدف إلى التخلص من المبادئ والقيم والأصول والثوابت الموافقة للكتاب والسنة وسلف الأمة وزعزعتها من النفوس وإدخال الشكوك، فهنا مكمن الخلل وموطن النقاش.

ومن الخلل الواضح أن جلّ المراجعات تنصبّ على أمور عملية تطبيقية، مع أن الأصل هو المراجعة المنهجية التي لو سلمت لاستقام لها العمل والسلوك، لأن الأصل أن يُبدأ بأصول الشيء ومقدماته لا بفروعه ونتائجه، وخلاف الأمة اليوم وصراعها خلاف في الفكر والمنهج لا في المسائل كما يظن بعض الناس.

ومن أخطر مزالق المراجعة الانشغال باجترار مرارات الماضي أو التلمظ بحلاواته، وأخطر من ذلك الاحتراب في ميدانٍ مّا قد كان، حيث ينشغل بعضٌ بتقاذف التهم في تلاوم ضار غير نافع، وعندها يكون حرص قوم على نفي الآخرين وتصفيتهم معنويًّا هو بوابة الولوج والخروج في أي حوار يستهدف المراجعة، ولهذا لا يرجعون من ذلك بشيء.

إن نزغات الشيطان وتحريشاته تتسيَّد الموقف، وتتصيد الفرص للإيقاع في انتكاسات التراجع التي لا يفرح الشيطان بشيء فرحه بها في صفوف المؤمنين، وإذا كانت الحزبية صفةً قبيحةً مقيتةً، فالعنصرية أقبح وأشد مقتًا، ولهذا لا ينبغي

أن يكون لهما موضع شبر على بساط النقاش والتقويم في ميدان العلم والدعوة والفكر والعمل الإسلامي.

واعلموا أنه متى صفت النوايا وزكت وارتقت وسمت، تغلغل الحق إلى قلوبها وانساقت وراءه، وسادت وخضعت لها القلوب واحتَذَت.

أسأل الله لي ولكل مسلم صلاح القلب وسلامة الصدر، والعدل والسداد في القول والعمل.

*****

أيتها الأمة المباركة!

ثبت عبر التاريخ ماضيًا وحاضرًا أن الشباب هم القادرون على التجديد والتغيير، والوقوف أمام المبادئ الساقطة والأفكار المنحرفة والساقطين والمنحرفين والمبدلين لدين الله.

أنتم القادرون على الرقي والنهضة بالأمة في كل مناحي الحياة واستعادة قوتها وشموخها وعزتها.

أنتم القادرون على إيقاف الزحف الغاشم على الأخلاق والفضيلة والمبادئ وتغيير هوية الأمة والشبهات والغارات المثارة .

احذر اليأس والهزيمة النفسية في نفسك وممن حولك، فهذا ما يريده الغزاة، قال الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

أنتم القادرون على تغيير كثير من العادات والتقاليد وتجاوزها لأنها عطّلت كثيرًا من النجاحات.

أنتم القادرون على تجاوز كثير من الخلافات والتحزبات والعصبيات والنظر إلى المقاصد العظمى، وتثبيت الناس على دين الله.

كل ذلك يحتاج إلى: استعانة بالله، وصدق مع الله، وعلم وحكمة، وعزيمة، وترك المخاوف والتوهمات، ومراعاة قواعد المصالح والمفاسد الشرعية.

قال الله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل

عمران: ٢٠٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠].

يارب:

نــوّر بصائرهم طهّــر سرائرهم حتى نرى فيهم عُمَــرًا وصدّيقا

واجعل لهم فرجًا من كلّ معضلةٍ وافتحْ عليهم فلا يخشــون تَغليقا

- التغيير يكون وفق ما أراد الله لا الأهواء وحظوظ النفس.

- التغيير يكون وفق المصالح المرتبطة بالمجتمع والأمة لا المصالح الخاصة.

- التغيير يكون وفق الدراسات العلمية والعملية، والاستفادة من أخطاء الماضي.

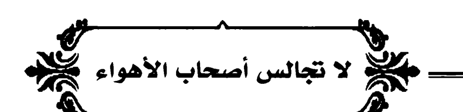
- إن أعظم جيل شبابي عرفته البشرية جيل صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير مثال يحتذى وجيل يقتدى في التغيير.

- إن الخيرية في الأمة معدنها وأساسها وإصلاحها الشباب.

● يقول الزهري: (لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان واستشارهم، يبتغي حدة عقولهم)[1].

*****

(١) المدخل إلى السنن الكبرى (٦٣٤).



لا تجالس أصحاب الأهواء

اثبتوا ولا تعصف بكم الرياح، اثبتوا ولا يهولنكم قوة الباطل، اثبتوا ولا يدخلنكم الشك فيما أنتم عليه من الحق وما عليه أهل الباطل، لا تجالسوا أهل الأهواء والشبهات، فرب مجلس أو مقال أو تغريدة أو حوار يجعل في القلب الشبهة، والشبه خطافة، والقلوب ضعيفة.

● قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة)[١].

● وقال رجل لابن سيرين: (إن فلانًا يريد أن يأتيك ولا يتكلم بشيء، قال: قل لفلان: لا، ما يأتيني، فإن قلب ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة فلا يرجع قلبي إلى ما كان)[٢].

● وكان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني على بينة من ديني، وأما أنت فشاكٌّ، اذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصمه)[٣].

فكم من فاسـدٍ يَـرى نفسَـه صالحًا وكم من صالحٍ من صلاحِه يَتشـككُ

● وقال مالك بن أنس : (كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجدله)[٤].

هذا موقف الأئمة وحذرهم وخوفهم، وهم من هم في اليقين والعلم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦ / ٦٤١).

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٤٦٦).

(٣) سر أعلام النبلاء (٩/ ٨٨).

(٤) طبقات الحنابلة (١ / ٢٣٦).

والإيمان، وجيل اليوم صباحًا ومساء يقلّب ناظريه في وسائل التواصل بدون ضوابط، قد أُنهكت العيون والقلوب مما تسمع وترى، والجوارح تتأثر ولا محالة.

واعلم أن الإنسان متى جاهد نفسه وأعرض عن الشهوات والشبهات والفتن، فإن الله سيعوضه خيرًا في الدنيا والآخرة من الطمأنينة والسكينة والحفظ والبركة، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه متى علم صدق نيته وصفاء روحه وغيرته لله والخوف على إيمانه والعزة بدينه.

واعلم أن الثبات على العلم والإيمان عند وقوع الفتن والشبهات وكثرة الأهواء هو من أعظم النعم؛ فإن من الناس من يؤمن في العافية ثم إذا فتن ارتد.

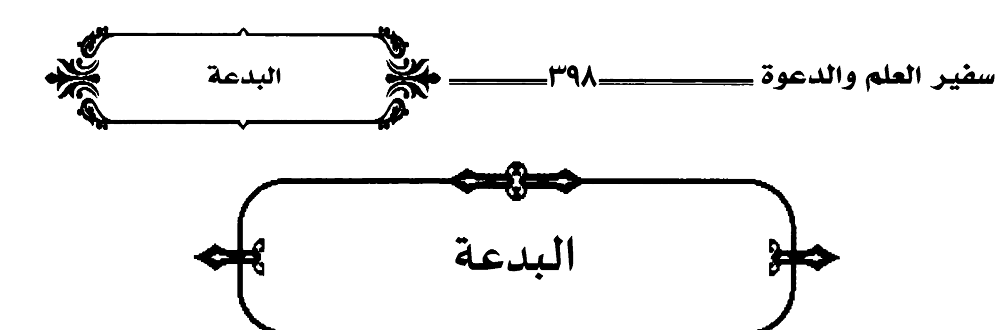
● ورد عن مجاهد وأبي العالية من كبار التابعين: (لا أدري أي النعمتين أفضل؛ أن هداني الله للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء)[1].

والمتأمل لذلك الكم الهائل من نصوص الشريعة وكلام الصحابة وسلف الأمة من التحذير من داء الهوى، يلحظ ويدرك عظم الأمر وخطورته على الأفراد والأمم.

*****

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢١٨، ٣/ ٢٩٣).



البدعة

واعلم أن البدعة نوعان من جهة الاعتقاد والعمل:

أولًا: بدعة اعتقادية، وليست على درجة واحدة، من حيث غِلظها، فهي على ثلاث درجات: مغلظة ومخففة ومتوسطة، وهذا التقسيم ألمحه ابن رجب بالاستقراء من تصرف الإمام أحمد بن حنبل في قبول رواية المبتدع، فالأولى: المغلظة لم يقبل رواية صاحبها كالجهمية، والثانية المتوسطة: تقبل روايتهم ما لم يكون دعاة للبدعة كالقدرية، والثالثة: المخففة فتقبل روايتهم كالمرجئة(١).

ثانيًا: بدعة عملية، وليست على درجة واحدة، فمنها المتفق على منعها وإنكارها عند العلماء، ومنها المختلف فيه اختلافًا ضعيفًا لا يخرجها عن كونها بدعة مذمومة، ومنها المختلف فيها اختلافًا قويًّا، ومن أهل العلم من لا يطلق البدعية على ما كان من هذا النوع، ومن المهم في هذا مراعاة الخلاف والنظر إلى قوة الأدلة، وقد كان الإمام أحمد يتردد في إطلاق البدعة على بعض المسائل الخلافية، ومثله الإمام الشافعي وغيرهم.

وهناك البدعة الحقيقية(٢) ولا يكاد يختلف في كثير من مسائلها، وهي ربما كانت اعتقادية كبعض الخوارج والجهمية، وربما كانت عملية كزيادة ركعة في

---

(١) شرح العلل لابن رجب (١ / ٣٦٤).

(٢) عرَّفها الشاطبيُّ بأنهَّا ما لم يدلَّ عليها دليلٌ شرعيٌّ، لا من كتاب ولا من سنَّة ولا من إجماع ولا استدلال معتبَر عند أهل العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل؛ ولذلك سمِّيَت بِدعة؛ لأنَّها شيء مخترَع في الدِّين على غير مثالٍ سابق.

فريضة، وإنكار الاحتجاج بالسنة وغيرها.

ويقابلها البدعة الإضافية[1] وهي التي فيها شائبتان، فهي مشروعة من جهة، كالصلاة والذكر والدعاء، وغير مشروعة من جهة عددها أو تخصيصها بوقت أو حال أو مكان، وهذه التي وقع فيها الخلاف.

هل التبديع يقع في المسائل الاجتهادية؟

والمسألة هذه الناس فيها طرفان ووسط، إفراط في التبديع، وتفريط في عدم التبديع، والمراد الحكم على المسألة لا القائل والفاعل، لأن لذلك شروطًا في تنزيل الأحكام على أصحابها، وهي في الحقيقة مسألة شائكة تحتاج إلى تأصيل وتقعيد، والكلام فيها قليل وغير منضبط، وذلك يخضع لقوة وضعف دليل المخالف ومأخذه ومنزعه، فكلما قوي ذلك ضعف التبديع، وكلما ضعف الدليل قوي التبديع.

وقد يرد عليه أن مثل هذا أمر نسبي، ويقع الإشكال كثيرًا في التطبيق، ولذا تجد في كتب الآثار والفقهاء الحكم بالبدعة موجود في مسائل في جملتها خلافية، وذلك الحكم في نظر المخالف لضعف دليل القائل وشذوذه وغير ذلك من الأسباب، مثال ذلك: التثويب في الأذان، ورفع اليدين في الدعاء يوم الجمعة، وتخصيص رجب بالعبادات، والذكر الجماعي أعقاب الصلوات، والقنوت في صلاة الفجر، ودعاء ختم القرآن في الصلاة، والقراءة على القبر، والتسبيح بالمسبحة ونحوها من الآلات، وغيرها من المسائل، ومع ذا الحذر كل الحذر من التسرع في التبديع والطعن في أهل العلم.

---

(١) وهي الأمر المبتدَع مضافًا إلى ما هو مشروع بزيادةٍ أو نقص.

وهناك الاختلاف في المناهج الفكرية والتربوية والدعوية، فما وافق الكتاب والسنة منها أُخذ به، بغض النظر عن الأسماء، وإنما ينظر إلى الحقائق، وما خالفها بدون خلاف فيرفض، وما كان الخلاف فيه فينظر؛ هل هو من الدين أو ليس منه؟ وينظر إلى درجة الخلاف ونوعه وغير ذلك، فليس من الشرع والإنصاف أن توضع كلها في ميزان وحكم واحد.

واعلموا أنه متى لم تتميز الخلافات بأنواعها ومراتبها يظل الخلاف أعمى؛ يحكم بالتكفير في مسائل حقها التبديع، وبالتبديع فيما حقه التخطئة، وبالتخطئة فيما هو خلاف سائغ أو في دائرة الراجح والمرجوح، ومتى تم التدقيق والتحقيق والتصفية كان حيز التوافق أوسع من حيز الخلاف.

إننا نستطيع أن نتقارب ونتواصى إذا تجردنا وقطعنا الطريق على قوم يعطلون اجتماع الأمة وتقاربها ومصالحها، ويحبون تأجيج الصراع العلمي، والنظر إلى المعارك، وإسقاط الآخرين والتشفي، وفي الأمة قادرون على إنجاح هذه المهمة.

واعلموا أنه ستصل الأمة، بإذن الله، في خلافها بأنواعه إلى وحدة في كثير من قضاياها، بالإخلاص والتجرد للحق، وترك التعصب للمذاهب والأشخاص والفوقية، والتسليم المطلق للشرع والاستسلام له في كل أمر، مع اتباع منهج صحيح في فهمه، كإرجاع المتشابه من النصوص إلى محكمها، وتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة، ومنهج الصحابة والتابعين، والرجوع إلى مذهب الصحابة والقرون الثلاثة المفضلة، مع السير وفق منهج علمي صحيح يقوم على تقديم الشرع على العقل، واستعمال العقل فيما لا يخالف الشرع لفهم

النصوص فهمًا صحيحًا يتفق مع فهم السلف، دون مخالفة ما أجمعوا عليه، وعلى خطا المراجعة والتصحيح والاجتماع أن يتداعى إلى قيام مجمع عقدي لقضايا الاعتقاد على غرار المجامع الفقهية.

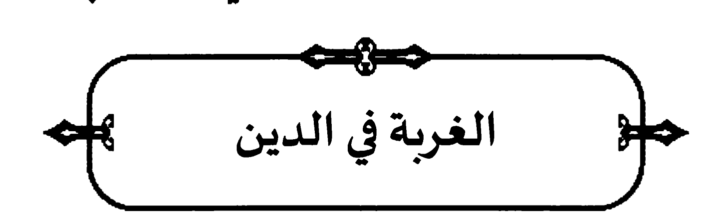
فكـن علـى نهـجِ سـبيلِ السـلفِ فى مُجمـعٍ عليـه أو مختلـفِ

واعلموا أن التكفير والتبديع موجود في كل الأديان والملل والمذاهب والطرق، إذا لم يلتزم بأصولها وأركانها وشروطها، ولا يتغافل أو يجهله إلا صاحب جهل وهوى، فرمي قوم به دون الآخر مجانبة للحق واستغفال للبشرية كلها.

واعلموا أن الأخطاء التي حصلت في التاريخ في مسائل التكفير والتبديع هي لخلل في التأصيل وفي التطبيق، لأسباب كثيرة لا يسع المقام لذكرها.

ولقد تأملت في حال كثير ممن له شذوذ ونشاز في العلم والفكر والمنهج، فلم أجد لهم سلسلة في العلم، وثنيًا للرُّكَب عند الراسخين في العلم والتربية والفكر وملازمة لهم.

*****



الغربة في الدين

غربة الدين، وما أدراك ما غربة الدين! إنه إحساس بالوحشة لقلة السالكين، إحساسٌ بالوحدة لقلة الممتثلين لتعاليم هذا الدين من أوامر ونواهٍ، ومن سنن ومكروهات.

الغربة في الدين شامل وعام لجميع قضاياه في العقيدة والفروع والأخلاق والسلوك والهوية.

الغربة أمر نسبي يختلف من زمان إلى زمان، ومن بلد إلى بلد، ومن مجتمع لآخر، ويكون المسلم غريبًا في بيته وبين أصدقائه وهكذا، وعلى قدر الغربة يشتد البلاء ويعظم الأجر.

قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**»[1] وفي رواية: قيل: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يُصْلِحون إذا فَسَدَ الناس**»[2] وفي رواية «**ولا يمارون في دين الله**»[3] وفي رواية: «**ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[4].

ما أحوجنا أن نسلي أنفسنا ونثبتها بهذه الأحاديث والآثار، ونتلمس منها النور الهادي وسط دياجير الظلام، لنعلم أن من السُّنَن الإلهية أن أَتباع الحق على

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٠٤) ومختلف في صحته.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٧٦٥٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٤١٧٨).

مر الزمان هم القلة وأتباع الباطل هم الكثرة.

إنها أيام الصبر والتزود من الطاعة والدعاء بالثبات.

وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن من ورائكم أيامًا، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**» قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين رجلًا منكم**»[(١)].

كن من الغرس الذين يستعملهم الله في طاعته، فقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا، يستعملهم في طاعته**»[(٢)].

اللهم اجعلنا ممن استعملتهم في طاعتك ومرضاتك.

مُــتْ بــداءِ الْهَــوى والا فخاطرْ ... واطــرق الْحَيّ والعيــونُ نواظرْ

لَا تخــفْ وَحْشَــة الطَّرِيق إذا سر ... ت وَكــن فِي خفارةِ الْحق سَــائِرْ

ولا تستصعب مخالفة الناس، وتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك، فإن الله معك، وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك، وأعظم الأعوان لك بعد عون الله هذا التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائمًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله[(٣)].

واعلم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٨) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه ابن ماجه (رقم ٨) وصححه البوصيري في المصباح (١ / ٥).

(٣) الفوائد (١١٦).

العبد الكنز الذى تحت هذه الأحرف الثلاثة - أعني اسم «الصبر» - لما تخلف عنه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أُعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[١].

- حصّن إيمانك من الشهوات والشبهات وكل وسيلة تؤدي إلى إضعافه وتقلبه.

- حصّن إيمانك من غشيان مراتع الفسق واللهو والعبث بالدين.

- حصن إيمانك من الشبهات سماعًا وقراءة.

● يقول ابن النحاس الدمشقي: (لا يجوز دخول العاجز عن تغيير المنكر إلى أماكن الظلم والفسق ومواطن المعاصي والمنكرات من غير ضرورة، فلا يجوز له دخول دور الظلمة وأماكن المكوس والمصادرات، والحمامات التي أهلها مكشوفو العورات، والأماكن التي يعلم أن فيها نساء غير مستورات، ويحرم عليه حضور دعوة فيها منكر لا يستطيع تغييره، ولا يجوز للعاجز دخول أماكن التي قد يوجد فيها منكر لا يستطيع تغييره)[٢].

● يقول الغزالي: (ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير)[٣].

*****

---

(١) طريق الهجرتين (٢٦٦). والحديث رواه البخاري (٧٠١).

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (١١٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٢ / ٣٠٩).

سفير العلم والدعوة

لكل زمان لغته وفكره وطريقته وخطابه، فالحذر من الجمود، ولا يعني ذلك التنازل والسقوط عن القيم والمبادئ بحجج واهية.

ليكن كل واحد على ثغر من ثغور الإسلام، بدلًا من الانشغال بالتوافه والأشخاص والسلبية المقيتة المقارعة للأفكار لا الأشخاص، فذلك أدعى لهزيمتها ووأدها، وتلك من القوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

شمر عن ساعد الجد وامض راشدًا في مجالات الخير، فالمؤمل فيك أكبر والمرجو منك أكثر، وليس الأمر بالعسير ولا الجد الخطير، وطِّن نفسك وإخوانك على مخالطة الناس، والصبر على أذاهم والعمل لوجه الله لا سواه، ولا تستعجل الثمر ولا تستبطئ النصر والنجاح، فما عليك إلا العمل، وما أنت إلا عبد لله تعمل كما أراد الله.

واعلم أن الدين لله، وإذا اعترضك عائق فلا تنظر يمنة ولا يسرة ولكن مباشرة، انظر بعين بصيرتك إلى دار باقية ومنازل زاكية في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فلينطلق كل فرد حسب طاقته — يدعو إلى الله إخفاء وإعلانًا
ولنترك اللوم لا نجعله عدتنا — ولنجعل الفعل بعد اليوم ميزانًا

كن حاملًا شرف النصرة لدينك وسنة نبيك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحاب

النصرة من الصحابة وأئمة الإسلام، ولاتحزن ولاتيأس، والموعد الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج: ٤٠].

لنـا بـالله آمـالٌ وسـلوى	وعنـدَ اللهِّ ماخـابَ الرّجـاء
إذا اشْـتدَّتْ ريـاحُ اليـأْس فِينا	سَـيعْقُبُ ضَيقَ شِـدَّتِها الرّخاءُ
فبعـد العَتْمَـةِ الظَّلـماءِ نـورٌ	وطـولُ الليـلِ يعقبـهُ الضياءُ
أمانينـا لهـا ربٌّ كريـمٌ إذا	أعطـى سيُدهِشُـنا العطـاءُ

كن مع من ثبت من الرماة يوم أحد، ولا تكن من المخذّلين المنهزمين البائسين.

من لم يستطع أن يكون مثبّتًا للآخرين فليكن ثابتًا في نفسه، فإن لم يستطع فليكن صامتًا لامسوغًا للباطل، شاقًّا للصف مشاغبًا مناكفًا مزهدًا للناس في الفضيلة واليقين، فإن هناك موقفًا عظيمًا بين يدي الله رب العالمين ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[محمد: ٣٨].

● واسمع لهذه النصيحة من الإمام الذهبي يصف الداء والدواء: (فينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصّل خيرًا، بل تثير شرًّا وعداوة ومقتًا للصلحاء والعباد من الفريقين، فتمسك بالسنة، والزم الصمت ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فرده إلى الله ورسوله، وقف وقل: الله ورسوله أعلم)[1].

الفضاء واسع، ولا تحجر واسعًا، والحياة فرص، ومن يؤت الحكمة فقد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٤٢).

أوتي خيرا كثيرًا.

واصل مسـيركَ لا تقـف مترددًا فالعمـرُ يمضي والسـنونُ ثواني
واحـذر أُمورًا طالمـا بينتُها فالحرّ يـدركُ مـا أَشـارَ بَنـاني

لا تبرحوا أماكنكم:

أصدر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرماة في غزوة أحد أمرًا واضحًا: لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا نُهزم فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نُنصر فلا تُشاركونا. وبدأت المعركة مع المشركين، وانتصر المسلمون، فما كان من الرماة إلا أن نزلوا للظفر بالنصر والغنائم، وما كان من العدو إلا أن انقضّ على المسلمين، وتحول نصرهم إلى هزيمة، فكانت درسًا بليغًا في الأمة عبر التاريخ: إن هذه الأُمة لن تُحقِّق النصر ما لم تلتزم بأوامر نبيِّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العلماء والدعاة وأئمة المساجد: واجب اليوم عليكم أعظم من واجب الأمس، فأنتم حُمَاة الدين وحرّاسه، فلا تبرحوا أماكنكم.

المعلّمون والآباء والأمهات يُخرِجون للأمة رجالاً على الإسلام قائمين ومعتزين، فأنتم عدة البناء، فلا تبرحوا أماكنكم.

الشباب جيل الخير والتواصي والهمة والعطاء ومجالس العلم ودُور القرآن، أنتم ترسانة الإسلام الأقوى، فلا تبرحوا أماكنكم.

فتيات العفة والطهر والصمود أمام كل مؤامرة على المرأة في الإسلام: أنتنَّ الحصن، فلا تَبْرَحْنَ أماكنكنَّ.

كل مسلم ومسلمة يعمل في ثغر من ثغور الإسلام والأوطان لو تأمَّل

موضع قدميه لاكتشف أنه جندي لأجل هذا الدين، وأنه لو عمل بكل صدق وإخلاص وأمانة فإنه سيسد ثغرًا هامًّا ويدفع خطرًا عظيمًا، فلا تبرحوا أماكنكم، ولا تتركوا الفرصة للكسالى وأهل الأهواء والمتعالمين والمتلونين، فلا تتأخروا، فإن الأمر يكون فرض كفاية وفرض عين.

أنتُـمْ حُمـاةُ ظهورِنـا ... لا تَبْرَحُـوا جَبَـلَ الرُّمـاهْ

لا تَيأسـوا مِـن رَوْحِـهِ ... لا تَبْرَحُـوا جَبَـلَ الرُّمـاهْ

سـنظلُّ على جبلِ الرمـاةِ وخلفَنا ... صـوتُ النبـيِّ يهزُّنَـا: لا تَبرحوا

لا تحقروا من المعروف شيئًا.

لا تبخلوا بالكلمة النافعة عبر كل وسيلة وفي كل زمان ومكان مناسب.

قال زبيد: (سمعت كلمة فنفعني الله عَزَّوَجَلَّ بها ثلاثين سنة)[1].

*****

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٩).

وداعًا!

هذه كلمات ووصايا جمعتها وحررتها، وبذلتها لكل طالب علم وسالك طريق الحق وداعية بالحسنى في مشارق الأرض ومغاربها، دبّجتها بآي القرآن وسنة خير الأنام، وجمّلتها بأجمل السير لخير جيل مضى، لعلها تنير الطريق وتعين على المسير.

وها قد بذلتُ النصحَ جَهدي وإنني ... مُقِـرّ بتقصيـري وبـالله أهتـدي

● وقد قيل لابن المبارك: كم تكتب؟ قال: (لعل الكلمة التي أَنتفع بها لم أكتبها بعد)[1].

منْ شـاءَ من تلكَ الحُلَى فليغرفِ ... من شـاءَ منْ ذاكَ الجَنَى فليقطفِ

وقد يكون في بعض ما ذهبت إليه من الإشارات والتقريرات شيء من الخطأ، فما يخلو عمل إنسان غير معصوم من الخطأ، ولكني قد أُراه خطأ يهدي إلى كثير من الصواب، فيفتح آفاقًا للكتابة والمدارسة في التعديل والتصويب وإنضاجها، نصرة بإذن الله للإسلام وقضاياه، وتوجيهًا لجيل الأمة الصاعد الذي ولد وعقل على كم هائل من الصراعات والخلافات، وقد أنهكته تفكيرًا وقراءة وبحثًا عن الحقيقة - لأسباب ليس هذا مقامها - وقد حار واضطرب وهلك منه الكثير، ونجا من نجا، والخير في الأمة كثير.

راجيًا أن يستقيم بها العوج، وتعالج العرج، وتبث الأرج، وتخفف اللجج

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ٢٨٠).

والهرج، وتشفي الخمج، وتطبب الخدج، وتكون سببًا في الفرج، ومنه سبحانه الفرج.

والله المستعان وعليه التكلان، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

لا حَــوْلَ لا قُــوةَ إلا بالعــلي بيــدهِ الأَمــرُ فَــما شَــا يَفعَــلِ

وإلى لقاء آخر، يسره الله بمَنّه وكرمه، على طريق العلم والهدى.

إنّــا عــلى البِعــادِ والتفــرقِ لَنلتقــي بالذكــرِ إن لم نَلتــق

كتبه: فهد بن يحيى العماري

١٤٤٣/٤/٢

Famary1@Gmail.Com

فهرس

الموضوع	الصفحة
أسباب الكتابة	١٢
شكرودعاء ووفاء	١٤
الرحلة في طلب العلم	١٦
الرحلة في طلب العلم	٢٠
نماذج مضيئة من حياة السلف في الرحلات العلمية	٢٢
حكم استئذان الوالدين في السفرلطلب العلم	٢٤
وقفة	٢٨
وصايا أثناء الرحلة في طلب العلم	٢٩
آداب طلب العلم	٥٨
أدب الطالب مع شيخه	٦٤
سيرالرجال مدارس الأجيال	٧٣
أبوّة العلم	٨٣
ركائزالتحصيل العلمي	٩١
محاذيروتنبيهات	٩٩
مراحل طلب العلم	١٠٤
علماء وشباب بين الخشية والجرأة	١٠٦
مراحل طلب العلم	١٠٩
رأس المال	١١٢
كيفية طلب العلم	١١٤



الرحلة في التعليم والدعوة	١١٩
وصايا بعد العودة إلى البلدان	١٢٠
عظماء في التاريخ	١٢٢
الثبات الثبات	١٢٦
الصراع بين الحق والباطل	١٣٣
دعوة للتأمل	١٣٥
الاختلاف لا يعني الانتقام	١٣٦
حدد الهدف وانطلق، أبواب الخير مشرعة، كلانا على خير	١٤٥
قواعد في الدعوة إلى الله	١٥١
نشر العلم	١٥٣
منبر الجمعة	١٥٧
المسجد	١٥٩
الشورى من مفاتيح التوفيق والنجاح	١٦١
وعي الواقع	١٦٥
احترام التخصص	١٦٨
حتى لا تتعب	١٧٣
ليكن لك شركاء في العمل	١٧٤
حب الرئاسة والولاية	١٧٦
كن عالمًا وداعية بلا انتماء	١٧٨
من آفات القلوب	١٨٥
قول مرجوح خير من راجح	١٨٨
صفة اللباس	١٩٢

قيّم وقوّم	١٩٣
التواضع للحق والخلق	١٩٤
احترام عقول التاس سبب في النجاح	١٩٨
حلاوة المعاناة	١٩٩
التركيزوفن الإدارة والتخطيط	٢٠٠
التفكيروتحليل التاريخ ضرورة ملحة	٢٠٣
لا تكن مثاليًّا!	٢٠٤
الفأل الفأل	٢٠٥
المال القوة الناعمة	٢٠٧
فريق العمل	٢١١
لا تكن رأسًا في كل شيء	٢١٢
التعليم والبناء الخاص	٢١٣
أهلَكَ أهلَكَ!	٢٢٢
كن فقيهًا في الأولويات	٢٢٤
حظوظ النفس قاتلة مهلكة	٢٣٢
إغلاق المواضيع	٢٣٦
الجندي المجهول	٢٣٧
الصبرطريق الأنبياء	٢٤٠
مفاتيح الدعوة مفاتيح القلوب	٢٤١
خيرالزاد	٢٤٦
وعظ القلوب	٢٤٩
العمل المتعدي نفعه أفضل من العمل القاصر	٢٥٢

العلم المفقود	٢٥٤
القدوة! القدوة!	٢٥٧
إنها منتنة	٢٥٩
مَصْدَرَا النجاح	٢٦٢
الانضباط في الوقت والحذرمن الفوضوية	٢٦٦
العزلة المؤقتة مطلب	٢٦٨
صيانة العالِم للعلم	٢٧١
ليس كل ما يُعلَم يُقال ويُعمَل	٢٧٣
كن وفيًّا	٢٧٧
المؤازرة	٢٨١
التعايش والصراع	٢٩٣
التسرع في الفتوى	٢٩٥
فقه النوازل	٣٠١
كن حذرًا	٣٠٣
تسابق مخيف	٣٠٩
لا تخادع نفسك!	٣١٦
خيانة تغييرهوية الأمة	٣١٩
الخلاف شرٌّ	٣٢٢
احفظ لسانك ولا تضخم الأخطاء!	٣٢٦
الحكمة منهج الأنبياء	٣٢٨
لنكن صرحاء!	٣٤٣
أدب الخلاف	٣٤٥

لفتة	٣٥٢
احتواء المخالف وحكم الهجر	٣٥٣
التماس الأعذار	٣٥٥
أيها الشباب الهِمَامُ، طلاب المنح العلمية الشرعية	٣٥٧
مفهوم خاطئ	٣٥٩
احذر اللمز والشماتة!	٣٦٢
حقيقة النجاح	٣٦٤
عقدة التصنيف	٣٦٩
الأفكار الضالة والمناهج المنحرفة	٣٧٦
الشباب قوة الأمم	٣٧٨
حديث إلى الشباب	٣٨٠
حديث إلى النساء	٣٨٢
نماذج مشرقة، وصور مضيئة، وهمم عالية	٣٨٤
أيتها الأمة المباركة!	٣٩٤
لا تجالس أصحاب الأهواء	٣٩٦
البدعة	٣٩٨
الغربة في الدين	٤٠٢
سفير العلم والدعوة	٤٠٥
وداعًا!	٤٠٩
إصدارات للمؤلف	٤١٦

إصدارات المؤلف

- فتح آفاق للعمل الجاد.
- حنين الأفئدة.
- رحلة النجاح بين الزوجين.
- سباق الدعاة إلى مواكب الحجيج.
- المختصر في أحكام السفر.
- زاد المسافر ونوازله الفقهية (مترجم إلى عدة لغات).
- التحفة في أحكام العمرة والمسجد الحرام.
- زاد المعتمر (مترجم إلى عدة لغات).
- بغية المشتاق في أحكام جلسة الإشراق.
- زاد جلسة الإشراق (مترجم إلى عدة لغات).
- الابتعاث؛ آمال وآلام وأحكام.
- خالص الجمان في اغتنام رمضان.
- زاد الصائم ونوازله الفقهية (مترجم إلى عدة لغات).
- في العيد ملل، فما الخلل!
- همسات لزائرة البيت الحرام.

- أعياد غير المسلمين؛ حوار علمي.
- سَلوة الفؤاد في آداب وأحكام الإحداد.
- زاد المرأة المُحِدّة ونوازله الفقهية.
- الإجابة الواضحة في حكم تكرار الفاتحة.
- إمتاع النظر بأحكام الجمع في المطر.
- جزء في بعض أحكام نزلاء الفنادق.
- جزء في أحكام سجود السهو.
- الوجازة في أحكام صلاة الجنازة.
- سفير العلم والدعوة.
- التزود بأحكام التشهد.
- التحبير بأحكام التكبير.
- إنباء الأنام بأحكام تحية الإسلام.
- أسنى المراتب في أحكم السنن الرواتب.
- أحكام تلاوة القرآن في الصلاة.
- أحكام الصلاة؛ أداء وقضاء.
- الإنارة في أحكام الاستخارة.
- التجلية في أحكام الأضحية.

- فوح العطر في أحكام زكاة الفطر.
- الإيضاح الجَلِيّ في أحكام زكاة الحُلِيّ.
- نوازل العمرة في ظل جائحة كورونا.
- حكم الصلاة مع الإخلال بالاتصال والصفوف.
- جزء في أحكام المسح على الحوائل.
- إتحاف النبيل بأحكام التماثيل.
- البدور في أحكام الأيمان والنذور.
- الدرة في أحكام السترة.
- الدر المرصوف في أحكام صلاة الكسوف.
- زاد المؤذن.
- أحكام الفكة (الصَّرْف).
- أحكام تلاوة القرآن في الصلاة.
- الإبانة في أحكام سجود التلاوة.
- أحكام قراءة سورة الكهف.
- الكافي في أحكام الصلاة على الكراسي.
- إمتاع الفكر بأحكام الذكر.
- التواضع العلمي (لم يطبع).

- التداخل في أحكام الطهارة؛ صوره وأحكامه.

- الإكليل في أحكام التداوي والتجميل.

- إنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تنبيه: كثير منها يوجد على الشبكة المعلوماتية.